مكتبة فلسطين للكتب المصورة

عبدالرحمن الكواكبى

طبائعُ الاستبدادِ
ومصارعُ الاستعبادِ

وهي كلمةُ حقٍّ وصرخةٌ في وادٍ
إنْ ذهبت اليومَ مع الريحِ
لقد تذهبُ غداً بالأوتادِ

أبو المظفر سعيد محمد السنارى

دار الكتاب العربي
دمشق - القاهرة

طبائعُ الاستبدادِ
ومصارعُ الاستعبادِ

وهي كلمةٌ حقٌّ وصرخةٌ في وادٍ
إنْ ذهبت اليومَ مع الريح
لقد تذهبُ غداً بالأوتادِ

اسم الكتاب: **طبائعُ الاستبدادِ ومصارعُ الاستعبادِ**

تقديم : **أبو المظفر سعيد محمد السنارى**

المراجعة اللغوية والتدقيق: **طه عبدالرؤوف سعد**

تصميم الغلاف: **قسم الجرافيك بدار الكتاب العربي**

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٢٠١١/٢١٧٠٢

الترقيم الدولى : I.S.B.N. 978 - 977 - 376 - 683 - 4

تطلب كافة منشوراتنا :

حلب : دار الكتاب العربى ـ الجميلية أمام مسرح نقابة الفنانين ـ ت: ٢٢٥٦٨٧٠

دمشق : مكتبة رياض العلبي ـ خلف البريد ـ ت : ٢٢٣٦٧٢٨

مكتبة النوري ـ أمام البريد ت : ٢٢١٠٣١٤

مكتبة عالم المعرفة ـ جسر فيكتوريا ت : ٢٢٢٨٢٢٢

مكتبة الفتال ـ فرع أول ـ ت: ٢٤٥٦٧٨٦

فرع ثانى ـ ت : ٢٢٢٢٣٧٣

حقوق الطبع محفوظة

تحذير:

جميع الحقوق محفوظة لدار الكتاب العربى للنشر وغير مسموح بإعادة نشر أو إنتاج الكتاب أو أى جزء منه أو تخزينه على أجهزة استرجاع أو استرداد إليكترونية أو نقله بأية وسيلة أخرى أو تصويره أو تسجيله على أى نحو بدون أخذ موافقة كتابية مسبقة من الناشر.

دار الكتاب العربي
دمشق - القاهرة

الطبعة الأولى

٢٠١٢

سوريا ـ دمشق ـ الحجاز ـ شارع مسلم البارودي هاتف: ٢٢٣٥٤٠١ ص. ب ٣٤٨٢٥

مصر ـ القاهرة ـ ٥٢ شارع عبدالخالق ثروت ـ شقة ١١ تلفاكس : ٢٣٩١٦١٢٢

لبنان ـ تليفون : ٦٥٢٢٤١ / ٠٣ ـ ٤٣٤١٨٦ / ٠٥ ص. ب ٣٠٤٣ الشويفات

darketab@yahoo.com - daralwalid@yahoo.com - info@darketab.com

www.darketab.com http://www.facebook.com/groups/darketab

http://twitter.com/darketab http://www.youtupe.com/darketab

عبدالرحمن الكواكبي

طبائعُ الاستبدادِ
ومصارعُ الاستعبادِ

وهي كلمةُ حقٍّ وصرخةٌ في وادٍ
إنْ ذهبت اليومَ مع الريح
لقد تذهبُ غداً بالأوتادِ

أبو المظفر سعيد محمد السنارى

دار الكتاب العربي
دمشق - القاهرة

عبد الرحمن الكواكبي

إهـــداء

إلى الـذي يُكْلَمُـون في سـبيل حريـة أنفـسهم وأوطـانهم فـلا يتكلَّمـون، ويتألَّمون في سبيل الله فـلا يتململُـون، ويَـذُبُّون عـن حُرُمـات مُقدَّسـاتهم ولا يتذبْذَبُون، وتضِيقُ بهم الأوطـان عـن تحقيـق بُغْيَـتهم فـلا يَـشْكون، وتنـالُهم ضَرباتُ الاستبداد هنا وهناك فلا يضِجُّون، وتبْطِشُ بهـم عَـوَادِي الأيـام فـلا يبْكون، وتعترِضُهم نوائبُ الأزمان وهم ماضون في طريقهم لا يتردَّدُون.

وإلى الأستاذ الوالِد الفاضل: يحيى بن زكريا بن مجاهد.

وإلى جميع المعذَّبين في الأرض، والشاردين في بُلْدانها بالطُّول والعرْض.

أُهْدي إلـيهم هـذا الكتـاب؛ إنـصافًا للمـروءة، وطلبًـا للعـدل والحريـة، وإرضاءً للحق واليقين.

أبو المظفر سعيد بن محمد السِّنَّاري

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمـــة المعلق

في مساء يوم الخميس (٦ ربيع الأول سنة ١٣٢٠هـ)، الموافق (١٤ حزيران عام ١٩٠٢م)، جلس رجل في الخمسين من عمره في «مقهى يلدز» قُرْبَ حديقة الأزبكية بالقاهرة يتناول قهوته... كعادته بعد العشاء في صحبة عدد من كبار الأدباء.

كان الرجل أزَجَّ الحواجب، أبيض اللون، واسع الفم، عريض الصدر، أسود شعر الرأس والذقن، إلى الطول أقرب، قوي البِنْيَةِ، صحيح الجسم، متأنِّقًا في لباسه.

ولكنه ما كاد يحْتَسِي القهوة [1] حتى أحسَّ بألَمٍ شديد في أمعائه، فنهض وذهب إلى منزله مع ولده «كاظم»، وما كاد يبلغ به ولدُه البيتَ حتى بدأ أبوه يستفرغ ما في أحشائه، وهو يشكو من ألَمٍ فظيع.

وسَرْعان ما ذهب ابنه لاستدعاء الطبيب حالا، ولما عاد وجد أباه قد لفظ أنفاسه، وشاع النبأ الأليم في القاهرة، وتوافد أصحاب الرجل من بقاع الدنيا لتشييعه إلى مقبرة باب الوزير في سَفْح جبل المقطم.

وفي صباح اليوم التالي هبَّتِ الصحف والجرائد والمجلات العلمية والأدبية والإخبارية تنعَى هذا الرجل وتصفه بكونه كان: «طَيِّبًا رحيمًا، شديد العطْف، كثير المُزاح، دَمِثَ الأخلاق، حُلْوَ الحديث، شديد اللطافة، مَهِيبَ الطلْعة وسيمًا أنيقًا.. ».

---

(١) قيل بأن هناك مَن دسَّ له «السُّمَّ» في القهوة! والأقرب أنه مات بمرض «الخُنَاق الصدري» (Unstable Angina) كما سيأتي بيانه في ترجمته.

هذا الرجل هو الشيخ الأديب، والمصلح الإسلامي عبد الرحمن بن أحمد الكواكبي (١٢٦٥ - ١٣٢٠ هـ = ١٨٤٩ - ١٩٠٢ م)

وقد رثاه صاحبه العلامة رشيد رضا في «مجلته المنار» بقوله: « في يوم الجمعة ٦ ربيع الأول أُصِيب الشرق بفِقدْ رجل عظيم من رجال الإصلاح الإسلامي، وعالم عامل من علماء العمران، وحكيم من حكماء الاجتماع البشري، ألا وهو السائح الشهير، والرحَّالة الخبير، السيد الشيخ عبد الرحمن الكواكبي الحلبي مؤلف كتاب «طبائع الاستبداد» وصاحب سِجِلِّ «جمعية أم القرى» الملقَّب فيه بـ: السيد الفُرَاتي.

اختطفت المَنِيَّةُ منا بغتة هذا الصديقَ الكريم، والوليَّ الحميم، بل هدمتْ منا الركن الركين، وقوَّضتْ أقوى الدعائم والأساطين، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

وكان صاحب عزيمة قوية لا يهاب حاكمًا ولا يخاف ظالمًا، وعزيمته هي التي جَنَتْ عليه.

لم يكن الفقيد في اشتغاله بخدمة بيته وبلده وحكومته غافلًا عن شؤون المسلمين العامة، فقد كان يقرأ الجرائد التركية والمصرية حتى الممنوعة التي كانت تدخل إلى حلب كغيرها بوسائط خفية.

ولما هاجر إلى مصر كان أول أثر له فيها طَبْع سِجلَّ «جمعية أم القرى» وكان يقول: إن لهذه الجمعية أصلًا، وأنه هو توسَّع في السجل، ونقَّحه سِتَّ مرات آخره عند طبعه منذ سنتين ونيِّف، أي عقيب قدومه إلى مصر.

وقد قال لنا مرة: «إن الإنسان يتجرَّأ أن يقول ويكتب في بلاد الحرية ما لا يتجرأ عليه في بلاد الاستبداد، بل إن بلاد الحرية تُوَلِّدُ في الذهن من الأفكار والآراء ما لا يتولَّد في غيرها. ومن يقرأ الكتاب يظن أن صاحبه صرف معظم عمره في

البحث عن أحوال المسلمين وتاريخهم في عقائدهم وعلومهم وآدابهم وتقاليدهم وعاداتهم، ومنه يُعْلَم رأيُ الفقيد في الإصلاح»[٢].

قلت: وكان من أهمِّ آثار هذا الرحَّالة المُصْلِح كتابان قد أحَدَثا دَوِيّاً في الأوساط الثقافية في عصره وما بعد عصره.

وهذان الكتابان هما:

١- أُمُّ القُرَى

وهذا الكتاب: عبارة عن «رواية خيالية لجمعية متعددة الجنسيات عَقَدتْ مؤتمرًا في مكة بحثت فيه أسباب تخلُّف المسلمين والعرب ووسائل نهضتهم والمقترحات المتعلقة بمستقبلهم.

وعن هذا الكتاب ومباحثه يقول الدكتور أحمد أبو حاقة: «نادَى بالتحرُّر السياسي والاجتماعي والاقتصادي والديني والفكري والتربَوي والإنساني بصورة عامة، ونادى بالإصلاح على كل صعيد».

وفي هذا الكتاب نادى بتولِّي العرب زعامة العالم الإسلامي، وفي هذا يقول الكاتب السوفيتي: «لفين»: «لقد كان الكواكبي سَلفًا لأيديولُوجِيِّ النزْعة القومية العربية»[٣].

---

(٢) مجلة المنار» [٥/ ٢٣٧] العدد الصادر بتاريخ (١٦ ربيع الأول - ١٣٢٠هـ - ٢٣ يونيه - ١٩٠٢م).
وانظر أيضًا: [٥/ ٢٧٦] العدد الصادر بتاريخ (غرة ربيع الثاني - ١٣٢٠هـ - ٧ يوليو - ١٩٠٢م).

(٣) انظر مقال: «عبد الرحمن الكواكبي» لحفيده وسَمِيِّه الأستاذ عبد الرحمن الكواكبي. المنشور في «مجلة التراث العربي» (العدد ٦٧- السنة السابعة عشرة - أيار «مايو» عام ١٩٩٧م. - محرم ١٤١٨هـ).

قلت: وسيأتي المزيد عن خصائص هذا الكتاب ومباحثه.

٢- طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد

ويُعدُّ هذا الكتاب «لوحة رائعة مَنْ ينظر إليها يرى الشعوب المُسْتعبَدَة ويرى بين دفَّتيه صُوَرًا صادقة للسادة المُستبدِّين.

ويقول عنه « لوتسكي» الروسي: «كانت نشاطات هذا المُفكِّر الممتاز بلا ريب ذات مدلول تقدمي. وكانت بمثابة إعداد أيديولوجي للنهضة الوطنية وأحد العوامل التي سبَّبتْ نهوض الحركة الوطنية التحرُّرِية في الأقطار العربية» [٤].

تقريظ العلامة محمد رشيد رضا لـ «طبائع الاستبداد»

قلت: وقد أكثر المادحون لهذا الكتاب في تَعْدَاد خصائصه وفوائده، وسيأتي المزيد من ذلك في فصل خاص.

لكن يُعجِبني قول صاحبه العلامة محمد رشيد عنه في «مجلة المنار» إثْرَ صدور الكتاب في طبعته الأولى: « كتابٌ جديد ظهر في عالم الطباعة، جديد في وجوده، جديد في مباحثه ومسائله، جديد في حكمته وفلسفته، وإرشاده وسياسته، حملتْ به فكرة عالم عامل، ومُحَنَّك عاقل، ولَمَّا تمَّ حمْلُه وأراد أن يظهر في الوجود فضلُه، وضعتْه تلك الفِكْرة الوقَّادة، والقريحة النقَّادة، في أرض الحرية، من هذه البلاد المصرية، فكانت جريدة المؤيّد[٥] أولَ مَهْدٍ له تمهَّد.

---

(٤) انظر مقال: «عبد الرحمن الكواكبي» لحفيده وسَمِيِّه الأستاذ عبد الرحمن الكواكبي. المنشور في «مجلة التراث العربي » (العدد ٦٧- السنة السابعة عشرة - أيار «مايو» عام ١٩٩٧م. - محرم ١٤١٨هـ).

(٥) جريدة المؤيد هي جريدة مصرية أسسها الزعيم السياسي والكاتب المصري مصطفى كامل في (٨ ربيع الأول ١٣٠٧ هـ - ١ ديسمبر ١٨٨٩م) وكان رئيس تحريرها الكاتب المصري الكبير الشيخ علي يوسف، وتعدُّ الجريدة من أهم الجرائد في الوطن العربي حتى توقف إصدارها. =

ثم لم يلبث أنْ تمَّ فِصالُه، وظهر في إثْر ولاده كمالُه، وتمَّ له استقلاله، وعمَّ القارئين نوالُه.

أطال هذا الرجل النظر في الاستبداد، فرأى أنه هو المُخرِّب للبلاد، وتبصَّر مَليًّا في الاستعباد، فعلم أنه هو المُهْلِك للعباد، فدرس من هذين الأمرَين الأمَرَّيْن طبائعهما، وتعرَّف مصارعهما، ثم أتحف ناشِئة قومه بنتيجة علمه، وثمرة عقله وفهْمِه، وقرَّب إليهم ما كان على بُعْد سنين وأعوام، فجعله على مسافة يوم وأيام.

يشتمل الكتاب على خطبة في سبب تأليفه وإهدائه للناشِئة، ومقدمة في عِلْم السياسة والدعوة للكتابة في الاستبداد، ويليه فصول في تعريف الاستبداد وذويه، والاستبداد والدين، والاستبداد والعلم، والاستبداد والمجد، والاستبداد والمال، والاستبداد والأخلاق، والاستبداد والتربية، والاستبداد والترقي، والاستبداد والتخلص منه، وفي هذا الفصل ٢٥ بحثًا من أهم المباحث السياسية والاجتماعية ذكرها المؤلف، (تذكرةً للكُتَّاب ذوي الألباب، وتنشيطًا للنُّجَباء على الخوض فيها بترتيب)، وهذا الفصل الأخير وما فيه مما لم يُنْشَر في المؤيِّد.

أشار المؤلف لاسمه برمز «الرحالة ك»[٦] ليحكم الناس على القول بذاته لذاته، وللناس شغف بمعرفة الفضلاء النابغين من أُمَّتهم، وحِفْظ أسمائهم وألقابهم في ألواح القلوب ودفاتر التاريخ.

= وكانت هذه الجريدة تقوم بحملات صحفية مهمة في الهجوم على الاحتلال الإنجليزي خاصة في فترات الصراع بين الخديو عباس حلمي واللورد كرومر.

(٦) «الرحالة كاف» هو الاسم أو الرمز الذي كان يُوقِّع به الكواكبي كتبه ومقالاته؛ خوفًا من أن يفْطن إليه أحد من دُعاة الاستبداد فيقومون بأذيَّته وإهانته كما فعلوا معه في مدينة حلب قبل الهجرة إلى مصر. فاضطر الكواكبي إلى إخفاء اسمه -بعد ذلك - في كل ما يكتب، واكتفى بأن يُعرِّف نفسه في آخر مقالاته بـ «الرحالة كاف»!

فأما الذين يعرفون شخص الأستاذ الهُمام السيد الشيخ «عبد الرحمن أفندي الكواكبي الحلبي» وفضْلَه، فيقولون: أجْدَرُ بهذا الكتاب أن يكون له، وأما الذين لا يعرفونه فليحفظوا هذا الاسم الذي يطابق الرمز إلى أن يجيء يومٌ يستبدِل فيه هذا الرخَّالةُ التصريح، بالرمز والتلميح»[٧].

وقال عن هذا الكتاب في مكان آخر: « لم يكتب مثلَه فيلسوفٌ في الشرق ولا في الغرب» [٨].

قلت: و«هذان الكتابان - «أم القرى، وطبائع الاستعباد»- كانا موضعَ دراسة عشرات المؤلفين الذين أصدروا عنهما الكتب الكثيرة. فمنهم من يرى «أم القرى» أهم كتاباته، والأكثرون يرون «طبائع الاستبداد» هو الأهم.

فيقول عباس محمود العقاد في كتابه عن الكواكبي:« إن «طبائع الاستبداد» هو آية الكواكبي».

ويقول الدكتور عليٌّ الدين هلال: «عبد الرحمن الكواكبي أعظم من هاجم الاستبداد»، ويقول الدكتور أبو حاقة: «هو كتاب الحرية والثورة والإصلاح والتحرر»[٩].

---

(٧) «مجلة المنار» [٤/ ١٠٥] العدد الصادر بتاريخ (غرة ذى الحجة - ١٣١٨هـ - ٢١ مارس - ١٩٠١م).

(٨) مجلة المنار» [٥/ ٢٣٧] العدد الصادر بتاريخ (١٦ ربيع الأول - ١٣٢٠هـ- ٢٣ يونيه - ١٩٠٢م).

(٩) انظر مقال: «عبد الرحمن الكواكبي» لحفيده وسَمِيِّه الأستاذ عبد الرحمن الكواكبي. المنشور في «مجلة التراث العربي» (العدد ٦٧- السنة السابعة عشرة - أيار «مايو» عام ١٩٩٧م. - محرم ١٤١٨هـ).

حول عَلْمانِية الكواكبي!

هناك جدل ثائر بين جماعة من الباحثين حول عَلْمانية الكواكبي! وهو أمر يحتاج شرحًا مستفيضًا مع مزيد دراسة وتمعُّنٍ في كتب الكواكبي ومقالاته المنثورة هنا وهناك.

لكن: لا بأس من طرْحِ هذه القضية هنا بأسلوب هادئ، وبإيجاز يستوعب القارئ معه حقيقة الحال. فنقول:

في عام ١٩٨٨م. أصدر الباحث اللبناني «جان داية» كتابًا بعنوان «الإمام الكواكبي .. فصل الدين عن الدولة». كشف فيه الستار عن علمانية الكواكبي من سبعة أوجه! كلها مأخوذة من كلام الكواكبي نفسه(١٠)!

ثم جاء الباحث والمفكر الإسلامي محمد عمارة وأنكر علمانية الكواكبي ألبتة، بل ونافح عن ذلك وناضل، وذكر في مقدمته الطويلة لـ: «الأعمال الكاملة للكواكبي / عام ٢٠٠٦م.»: «أن المُصْلِح الإسلامي العظيم الذي رحل قبل أكثر من مئة عام لم يكن رائدًا لدعوة فصل الدين الإسلامي عن الدولة» وأكّد أن هذا «افتراء على الرجل الذي انحاز إلى إسلامية الدولة».

وقد استعرض عمارة في المقدمة المذكورة التي حملت عنوان: «الكواكبي هل كان علمانيًّا؟» ما اعتبره موقف الدين من الدولة قائلا: «إن الإسلام جاء ثورة على السلطة الدينية وتحريرًا للضمائر والعقائد.. والسلطة المدنية التي قررها إنما هي بقرار الشرْع وليست من العلمانية الثائرة ضد الشرع والدين».

---

(١٠) ويُراجَع أيضًا: مقال جان داية بعنوان «داء الطائفية ودواؤها في عصر نهضة بلاد الشام» المنشور في «مجلة الآداب/ العدد٥/٦ شهر مايو ٢٠٠٧م».

وقال: «إن الكواكبي كان منحازًا إلى العرب، ناقدًا نقدًا شديدا بل وحادًّا للأتراك العثمانيين» و«أنه كان يهدف إلى إحياء الخلافة الإسلامية التي طوَى العثمانيون صفحتها، وإعادتها للعرب وإقامة اتحاد إسلامي تعاوني بين الدول الإسلامية».

وأضاف أن الكواكبي: «قَطَع الطريق على أي محاولة لاتهامه بالعلمانية».

وقرُّر بأن هناك اتفاقًا بين الباحثين على أن الدكتور «علي عبد الرازق» هو أول من قال بفصْل الدين عن الدولة في العصر الحديث، وأنه لم يثبت أن أحدًا سبقه في هذا المجال، وأن قراءة وتحليل كتابات الكواكبي لا يمكن أن تصنفه مؤيدًا للعلمانية بحال من الأحوال، بل العكس هو الصحيح.

ثم ساق أدلة الباحث اللبناني «جان داية» على علمانية الكواكبي وردَّ عليها دليلا دليلا. وقد أصاب في بعضها وتمحَّل في بعضها.

والذي ثبت ولاح لنا بعد مطالعة كثير من مقالات الكواكبي واستقراء كتاباته وتوجُّهاته في جميع أطوار حياته: أنه كان من أوائل من أصَّل للعلمانية العربية – دون العلمانية الغربية الإلحادية – بخصوص فصْلِ الدين عن الدولة بلسان الحال والمقال.

ولعل من أقوى كلامه في إثبات ذلك ما سيأتي معنا في «طبائع الاستبداد» من قوله: « دعونا نُدبِّر حياتنا الدنيا، ونجْعل الأديان تحكُم في الآخرة فقط. دعونا نجتمع على كلمات سواء، ألا وهي: فلْتحيا الأمة، فلْيحيا الوطن»!

ومن أقوى الأدلة على ذلك أيضًا: ما كان مِنْ تَصدِّي العلامة السَّلَفِي محمد رشيد رضا لبعض شطحات الكواكبي في حياته وبعد مماته.

فقد قال رشيد رضا في مقاله القيِّم في رثاء الكواكبي بـ: «مجلة المنار»: «وقد كنا معه على وِفاق في أكثر مسائل الإصلاح ... حتى إن صاحب الدولة مختار باشا

الغازي اتهَمَنا بتأليف الكتاب[١١] عندما اطلع عليه، وربما نُشير إلى المسائل التي خالفْنا الفقيدَ[١٢] فيها في هامش الكتاب عند طبْعه، وأهمها الفصْل بين السلطتين الدينية والسياسية»[١٣].

ولا ريب أن محمد رشيد رضا كان من أعلم الناس بكلام الكواكبي ومآله، فقد جالسه وعاشره وخالطه وناقشه وجادله، وعرف منه وأنْكَر!

وأيضًا فهذا حفيد الكواكبي: «سعد زغلول» يقول عن جده ويصفه بكونه: «أول رائد لفلسفة العلمانية مجاهرًا بها بين المسلمين»[١٤].

وكان الكواكبي أيضًا من دُعاة القومية العربية، شديد التحامل جدًّا على الخلافة العثمانية، مع تأثُّره بكثير من أفكار دعاة الإصلاح الغربي.

يقول الأستاذ خالد أبو الفتوح في بحثه النفيس: «جذور العلمانية والتغريب في العالم الإسلامي» بعد كلام طويل: «في سنة ١٨٧٥م (١٢٩٢هـ) أسَّس خمسة شُبَّان تلقُّوا العلم في الكلية السورية الإنجيلية في بيروت وهم جميعًا نصارى من مريدي اليازجي والبستاني، ومن أبرزهم: إبراهيم اليازجي والدكتور فارس نمر[١٥] أسَّسوا جمعية سرية قامت على أساس قومي هي (جمعية بيروت) وهي تُعدُّ أول حزب سياسي في هذه البلاد، فعادتِ العثمانيين وسمَّتْ دولتهم باسم تركيا.

---

(١١) يعني كتاب: «أم القرى». للكواكبي.

(١٢) يعني الكواكبي.

(١٣) مجلة المنار [٥/ ٢٧٦] العدد الصادر بتاريخ (غرة ربيع الثاني - ١٣٢٠هـ - ٧ يوليو - ١٩٠٢م.).

(١٤) انظر: «الإمام الكواكبي فصل الدين عن الدولة»، لجان داية [ص/١٠].

(١٥) هاجر إلى مصر سنة ١٨٨٣م (١٣٠٠ هـ)، وكان أحد مؤسِّسي مجلة (المقتطف) وجريدة (المقطم) الموالِيتين للإنجليز.

وكان من أهم مبادئها: فصْلُ الدين عن الدولة واعتبار الجنس العربي هو الأساس، والغريب من تلك الجمعية اتهامها الدولة العثمانية باغتصاب الخلافة الإسلامية من العرب والتفريط في الدين، مع العلم أن أعضاءها المؤسسين ليسوا بمسلمين كما ذُكِرَ سابقًا، وأن من انضم إليها لاحقًا كان قوميًّا علمانيًّا، بل إن كاهنًا كاثوليكيًّا كان يدعو في جريدته «النحْلَة» في الفترة نفسها إلى الإصلاح الديني [الإسلامي] بلهجة العربي القومي، وهاجم عبد الحميد واصفًا إياه «بمغتصب لقب الخليفة»(١٦)

وإضافة إلى الاهتمام بالتعليم وتكوين الجمعيات السرية والعلنية، نشط نصارى الشام في نشر أفكارهم المتمثلة في العلمانية والقومية العربية عن طريق إصدار الصحف والمجلات التي كانت الوسيلة الإعلامية العامة الوحيدة آنذاك.

ولكن لم يكن النصارى وحدهم الدُّعاة إلى هذه الأفكار الجديدة في الشام، بل كان هناك بعض (علماء المسلمين) الذين تأثَّروا بهذه الدعوة، وعلى رأس هؤلاء برز في هذه المرحلة: عبد الرحمن الكواكبي (١٢٦٥- ١٣٢٠هـ/ ١٨٤٨- ١٩٠٢م) الذي أخذ على عاتقه الدعوة إلى (الوحدة الوطنية) وفصْل الدين عن الدولة، فكان كما يقول حفيده سعد زغلول عنه: «الكواكبي أول رائد لفلسفة العلمانية مجاهرًا بها بين المسلمين» (١٧).

وقال في موضع آخر: «وفي الشام أيضًا نشط عبد الرحمن الكواكبي في بداية حياته قبل أن يواصل هذا النشاط في مصر، وقد كان ينتمي إلى مدرسة الأفغاني ... التي كانت تُفكِّر في المسائل الطارئة بعقْل عصري، فتتدارسها في ضوء العلم والعقل النظري، ثم تنقلها إلى الدين وتربط بينهما برباط قوي متين ...

---

(١٦) انظر: الفكر العربي في عصر النهضة [ص/ ٢٧٦].

(١٧) «جذور العلمانية والتغريب في العالم الإسلامي» للباحث خالد أبو الفتوح. المنشور في «مجلة البيان» بتاريخ (ذو القعدة - ١٤٢١هـ - فبراير - ٢٠٠١م). (السنة: ١٥)

لذلك فإن آراء الكواكبي في الإصلاح الديني لا تخرج في جملتها عن آراء الأفغاني والشيخ محمد عبده والشيخ رشيد رضا ... »[١٨]، ويشير بعض الكُتَّاب إلى احتمال تأثُّر الكواكبي بكتاب (مستقبل الإسلام) لبلنت، كما يشيرون إلى وجود دلائل قوية لاقتباسه إطار وبعض أفكار كتابه عن الاستبداد من كتاب (رسالة في الاستبداد) للمفكر الإيطالي في عصر الثورة الفرنسية فيكتور ألفياري.

ومِن ثَمَّ: فقد رَبَطَ الكواكبي متابعًا ألفياري بين الاستبداد والدين، زاعمًا أن الاستبداد في السياسة متولِّد من الاستبداد في الدين أو مساير له، وإنْ نَفَى الكواكبي ذلك عن الإسلام الحقيقي[١٩].

ولم يقف تأثُّر الكواكبي بالفكر الغربي عند حد الاقتباس، بل سعى إلى حركة توفيقية إصلاحية شاملة في الإسلام؛ إذ يبدو من كلام الكواكبي [في كتابه أم القرى] على لسان المندوب الإنجليزي أنه يهدف إلى تكوين جماعة من المسلمين تنزع في تفكيرها مَنْزَع البُرُوتسْتانْت في تفكيرهم.

ومن هنا لم يجئ طرحه لمبدأ العلمانية في فصْل الدين عن الدولة من زاوية إلحادية كما طرحه شِبْلي شُمَيِّل[٢٠] مثلًا، بل جاء طرْحًا مناسبًا لعالم ديني

---

(١٨) انظر: «عبد الرحمن الكواكبي، حياته وعصره وآراؤه»، [ص/ ١٠٨]، و«الفكر العربي في عصر النهضة»، [ص/ ٢٧٧ ٢٧٨]، و«العلمانية من منظور مختلف»، [ص/ ١٦٣].

(١٩) انظر: «صحوة الرجل المريض»، للدكتور موفق بني المرجة، [ص/ ٢٠٣]، و«عبد الرحمن الكواكبي حياته وعصره وآراؤه»، [ص/ ٧١ ٧٥]، و«العلمانية من منظور مختلف»، [ص/ ١٦٣].

(٢٠) هو شبلي بن إبراهيم شميل (١٨٥٣ - ١٩١٧ م). واحدٌ ممن أَنْضَجَتِ الكراهيةُ والبغضاء للإسلام أكبادَهم! وأفسدتْ تعاليمه السمْحة العفيفة عليهم حياتهم، فعاشوا لأجل إسقاطه، وسعوا لطمس معالمه من قلوب أحبَّائه، فما ظفروا بشيء من ذلك سوى =

كبير[٢١]، فكانت من أقواله مخاطبًا العرب غير المسلمين: «.. دعونا يا هؤلاء نحن نُدبِّر شأننا ... دعونا ندبر حياتنا الدنيا ونجعل الأديان تحكم في الأخرى فقط! دعونا نجتمع على كلمات سواء، ألا وهي: فلتحيا الأمة، فليحيا الوطن..» [٢٢].

وقال الشيخ عبد العزيز مصطفى كامل في رسالته: «العلمانية .. إمبراطورية النفاق»: «طرح أحد أبرز مُفكِّري ذلك العصر، وهو عبد الرحمن الكواكبي (ت ١٩٠٢م) المنحدر من أصول إيرانية شيعية، مبدأ الفصل بين السلطة الدينية والسلطة السياسية للخليفة، بوضوح تام في كتابيه (طبائع الاستبداد) و (أم القرى) واقترح أن يكون للخليفة سلطة محددة بمنطقة الحجاز فقط، تُشْبِهِ سلطة البابا على مدينة الفاتيكان.

وقد اقتبس الكواكبي ذلك الطرْح عن تيار (العثمانيين الجُدُد) الذين نقلوه بدورهم عن مؤلفات الأرْمني النصراني (مورداجا وهسون) وقرينه (غريك سوفاس) ... »[٢٣].

قلت: ولهذه الأفكار المنحرفة في كتابات الكواكبي أسباب شتى منها:

١- أنه كان ضحية كغيره في ذلك الوقت لبداية انهيار الدولة العثمانية وبروز العالم العربي بِوَهنِهِ أمام المستعمر المتطور.

= الفضيحة بين العارفين بحقيقتهم، والعارِ والخُسران عند العالمين بقبيح دعوتهم وشنيع مقالتهم. جزاهم الله عن مساعيهم شرًّا، وعجَّل لأتباعهم شره قبل لقائه.

(٢١) انظر: «الإمام الكواكبي فصل الدين عن الدولة»، لجان دايه، [ص/ ١٨].

(٢٢) «جذور العلمانية والتغريب في العالم الإسلامي» للباحث خالد أبو الفتوح. المنشور في «مجلة البيان» بتاريخ (ذو القعدة - ١٤٢١هـ - فبراير - ٢٠٠١م). (السنة: ١٥).

(٢٣) «العلمانية .. إمبراطورية النفاق. مَنْ مهَّد لها الطريق؟!» لعبد العزيز مصطفى كامل. نقلا عن «موسوعة الرد على المذاهب الفكرية المعاصرة» جمع وإعداد علي بن نايف الشحود.

٢- تأثُّره بكتابات جماعة من الكُتَّاب الأُوربِّيين الذين انتفضوا وثاروا على الحُكْم الكنَسي البابوي عقب نجاح الثورة الفرنسية.

٣- تأثُّره بحركة الإصلاح التنويرية التي مهَّد لها رفاعة الطهطاوي وقادها جمال الدين الأفغاني وتلميذه محمد عبده.

٤- تأثُّره بأفكار مَنْ أسَّسوا الجمعية السِّرية الشامية: (جمعية بيروت) التي قامت على أساس قومي، وعادتْ العثمانيين وسمَّتْ دولتهم باسم تركيا.

وكان من أهم مبادئها: فصل الدين عن الدولة.

٥- وغير ذلك من الأسباب.

غفر الله له وعفا عنا وعنه، وجزاه خيرًا على باقي مساعيه المشكورة جزاءً موفورًا.

عمَلُنا في الكتاب:

قد توخَّينا أن يكون عمَلُنا على هـذا الكتـاب سـهْلا مُقْتَـضبًا دون إسـهاب أو حَشْوٍ يَملُّ منه القارئ أو تثْقُل معه مادة التعليقات. ويمكن أن نُلخِّـص منهجنـا في الخطوات الآتية:

١- قمنا بعمل مقدمة صالحة حول المؤلف وكتابه ومآخذ الباحثين عليه.

٢- ثم تلَوْنا ذلك بدراسة حول حياة المؤلف وكتبه ببعض التوسُّع. قام بها الناشر الفاضل.

٣- قمنا بترجمة أهم الأعلام الواردة في الكتاب.

٤- قمنا بتفسير جملة من المُصْطلحات والكلمات الواقعة في كلام المؤلف.

٥- استعنَّا في بعض التعليقات بجملة من إضافات الأستاذ الفاضـل «محمـد جمـال الطحان» في طبعته لكتاب: «طبائع الاستبداد». وقد عزَوْنـا ذلـك إليـه في كـل مرة، وذلك من باب نسبة الفضْل لأهله. جزاه الله خيرًا وأحسن إليه.

٦- نبَّهْنا على طَرَفٍ مما انحرف به قلَم المؤلف عن الجادَّة في تضاعيف كتابه.

٧- قمنا بتخريج الأحاديث التي يذكرها المؤلف، وبيان منزلتها من الصحة والضعف.

نسأل الله أن يتقبل منا أعمالنا، وأن يُجَمِّلَنـا بجـمال سـتْرِه وعفْـوه قبـل حُلـول آجالنا، وأن يُدْخلنا في زُمْرَة المتقين من عباده المؤمنين والمؤمنات، وأن يرزقنا مزيـدًا من الأعمال الباقيات الصالحات.

فإنه بكل جميل كفيل. وهو حسبنا ونعم الوكيل.

وكتبه:

أبو المُظَفَّر سعيد بن محمد السِّنَّاري

قصة حياة الرحالة «كاف»

«الرحالة كاف».. هذا هو الاسم المستعار الذي وقَّع به عبد الرحمن الكواكبي الطبعة الأولى من كتابه الأشهر«مصارع الاستبداد»، والرجل -لا شك- معذور، فقد استعْدَى بكتابه هذا كل حُكَّام الشرق في زمنه بلا استثناء.. ويبدو أن هذا اللقب «الرحالة» ينطبق على سيرته إلى حد كبير..

الولادة والنشأة:

وُلِد عبد الرحمن الكواكبي عام ١٨٥٤م في حي «الجلوم الصغرى» من مدينة حلب السورية، وقد جمع الوليد الشرف من طرفيْه، فوالده أحمد بهائي (أو بهاء الدين أحمد) بن محمد بن مسعود الكواكبي، ينتهي نسبه إلى الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما، وأحد أجداده هو عباس الصفوي مؤسس الدولة الصفوية الشيعية في تبريز، التي حكمت إيران قرابة قرن ونصف من الزمان.

وقد جاء السيد أحمد بهائي إلى حلب مهاجرًا من بلاد فارس، واستقر بها وتزوج «عفيفة بنت مسعود آل النقيب» ابنة مفتى أنطاكية، العربية الشريفة، فآل نقيب ينحدرون من النسل النبوي، وأحد أجداده لأمه هو الشريف أبو محمد إبراهيم، الذي هاجر إلى حلب زمن أبي العلاء المعري، ومدحه أبو العلاء في شعره.

كان الوالد أحمد بهائي (١٨٢٩ـ١٨٨٣م) من علماء الشرع، وقد عمل بأمانة الفتوى بولاية حلب، وعين عضوًا في مجلس إدارة الولاية، كما كان خطيبًا وإمامًا في مسجد أبي يحيى، ومديرًا ومدرسًا بالمدرسة الكواكبية، والمدرسة الشرفية والجامع الأموي بحلب، وقد اشتهر بتمكُّنه من علم المواريث وتحرير العقود والصكُوك،

وتولى قضاء حلب بالوكالة فترة، وقد أنجب غير بِكْرِه عبد الرحمن، ثلاثة أولاد: مسعود، وفاطمة، وأسماء.

وقد ساعد الوالد على تبوُّؤ تلك المكانة في حلب تمكنه من اللغة التركية التي نَدر أن يتقنها أحد في حلب في تلك الفترة. كما كان يتكلم الفارسية والعربية.

أما الوالدة فقد تُوفيت ووحيدها عبد الرحمن في السادسة من عمره، فأوكل الوالد حضانة الصغير لخالته «صفية آل النقيب»، وكانت ذات علم وثقافة، فمكث عندها في أنطاكية ثلاثة أعوام، ثم عاد إلى حلب حيث أتم حفظ القرآن على يديْ الشيخ طاهر الكلزي، ثم عاد لأنطاكية وهو في الحادية عشرة ليكمل تَلَقِّي العلوم على يد الأستاذ نجيب النقيب، الذي كان أستاذًا للأمير عباس حلمي الثاني، خديوي مصر فيما بعد، وقد أتقن الصبي النجيبُ اللغة التركية بجانب العربية والفارسية.

وبعد عام عاد عبد الرحمن إلى حلب، والتْحق بالمدرسة الكواكبية، فدرس العلوم العربية والشرعية إلى جانب المنطق والرياضة والطبيعة والسياسة، وبعد تخرُّجه اشتغل بالتدريس مدة، وكان عمره عشرين سنة.

في بلاط صاحبة الجلالة:

كان عبد الرحمن الشاب محبًّا للقراءة والاطلاع، حريصًا على تثقيف نفسه من كافة المصادر الأصلية والمترْجَمة، يقرأ بالعربية والتركية والفارسية، وكان قلمه مميزًا، وهو ما جعل والِي حلب يوُكِل إليه ـ وهو في الثانية والعشرين ـ تحرير الجريدة الرسمية للولاية «فُرات» التي كانت تصدر بالعربية والتركية.

ولكنه-وقد كان صاحب فِكْرٍ حر، وطبيعة ثورية- لم يستطع الاستمرار والتأقْلُم مع خط الجريدة الرسمي، الذي يُقيِّد من حُريته في الكتابة، ويجعل مدْح السلطة العثمانية نهجًا ثابتًا، فقرَّر بعد عامين أن يصطنع لنفسه منبرًا خاصًا، فأصدر صحيفة «الشهباء»،

متحايلًا على السلطات بأنْ جعل الترخيص باسم أحد معارفه، وكانت أول صحيفة عربية خالصة تصدر في حلب، وكان لصدورها صدًى واسعٌ في أنحاء الوطن العربي، وفيها أطلق الكواكبي العَنَان لقلمه، وكتب مقالات نارية تفضح الاستبداد، وراحت جرائد أخرى تُعيد نَشرْ مقالاته، وصار الناس يتداولون ما يُنشر في الصحيفة من مقالات ومقولات مُحرِّضة على الحرية، وهو ما جعل الوالي العثماني يستشعر الخطر ويتحرش بالصحيفة مِرارًا، ثم يأمر بغلْقها بعد ستة أشهر صدر فيها ١٦ عددًا.

وعن تلك التجربة يحكي الكواكبي، حسبما يروي حفيده سعد زغلول الكواكبي في كتابه عنه:

«علمتُ أن الحكومة تخاف من القلم خوفَها من النار، ولا تُعطي امتيازًا لجريدة لمن تعتقد أنه على بيِّنة من أمْره، ووتيرة من عمله، فاتفقتْ مع «الحاج هاشم الخراط» لبساطته وسذاجته أن يطلب هو الامتياز، وأستلم أنا التحرير. وما مضى زمَن على طلب الرجل المشار إليه إلا وصدرت الإرادة السَّنِيَّة بالسماح له بإنشاء الجريدة، مما لا يمكن أن أحصل عليه أنا ولو أنفقتُ كل ما أملك.

ولكننا لم نتوفَّق في إصدار (الشهباء) بأكثر من ستة عشر عددًا في خلال ستة أشهر، لأننا ما كنا نُصْدر بضعة أعداد إلا وتصدر الأوامر بإيقافنا وتغريمنا شيئًا من المال، فرأيت أن الهُدَى بالعدول عن العمل، فتركنا (الشهباء) آسفين بعد أن تكبَّدْنا من الخسائر الشيء الكثير».

لم يستسلم الكواكبي لِعسْف الوالي العثماني، فأنشأ في العام التالي (١٨٧٩م) جريدة «الاعتدال»، وأصدر منها نسختين: عربية وتركية، وفيها واصل طرْح أفكاره وآرائه، ونقد الحكومة بجُرْأة، وهو ما جعله هدفًا لمضايقات الوالي «جميل باشا»، وانتهى الأمر بإغلاقها هي الأخرى بعد بضعة أسابيع.

وقد كانت تجربتا «الشهباء» و«الاعتدال» كفيلتين بإقناع الكواكبي بأنه لا مستقبل لإصدار صحف خاصة في حلب، فلم يُكرِّر التجربة.

وقد حققتْ مقالات الكواكبي الشاب شهرة واسعة له، فبجانب نشْرِها في «الشهباء» و«الاعتدال» كانت مقالاته تصل لصحف القاهرة، وبيروت، ولندن.

في الوظيفة العامة:

بعد إغلاق «الاعتدال» انكبَّ الكواكبي على دراسة الحقوق، وبرع فيها، وعُيِّنَ عُضوًا فَخْرِيًّا في لجْنتيْ المالية والمعارف العمومية، والأشغال العامة، ثم عضوًا فخريًّا في لجنة امتحان المحامين.

وفي سنة ١٨٨٦م. صار مأمورًا للإجْراء (قَلَم المُحْضَرِين)، ثم افتتح مكتبًا للمحاماة يدافِع فيه عن المظلومين ويسعى لاسترداد حقوقهم دون أجْر، وقد اشتهر المكتب حتى أطلق الناس على صاحبه «أبو الضعفاء».

في تلك الفترة كان الكواكبي يعاني من اضطهاد والي حلب «جميل باشا»، وقد وصل الاضطهاد حدّ مصادرة بيت الكواكبي ومنْحِه لأحد خصومه، حسبما ورد في الشكوى التي أرسلها إلى الأستانة في يوليو ١٨٨٦م.

ثم قام الوالي بطرد حُرَّاس مزْرعة الكواكبي وإتلاف مزروعاتها، ونهْب محتوياتها، وأمر باستدعائه أكثر من مرة مُكبَّلًا بالقيود إلى دار الحكومة على مَرْأى من أهل حلب.

وتواصلتْ مكائد الوالي العثماني، ومحاولات إيقاعه بالكواكبي، حتى كانت سببًا في أن تشهد حلب أول مظاهرة نسائية في تاريخها، خرجتْ تطالب بالإفراج عن الكواكبي وبعض رِفاقه المعتقلين في إحدى القضايا التي اتهمهم فيها الوالِي ظلمًا.

وكان طبيعيًا أن يزداد الوالي حَنَقًا على الكواكبي بعد افتتاحه مكتب المحاماة، إذ قام بكشْف كثير من المظالم والأوضاع الخاطئة في الولاية، وتوالت رسائله وشكاواه الموقَّعة باسم «السيد الفراتي» تصدَّر للأستانة بِلُغة تركية بليغة تُحْرِج الباب العالي الذي كان ، ومع ازدياد وطأة الاضطهاد، اضطر الكواكبي لإغلاق المكتب ولزوم بيته، وبعد مدة جاء الفرج بنقْل «جميل باشا» والي حلب.

حاول الوالي الجديد (عثمان باشا) استمالة الكواكبي والانتفاع بخبراته ومواهبه، فعيَّنه رئيسًا للبلدية، وقد حاول الكواكبي إصلاح ما كان يُندِّد به من أخطاء، ولكنه لم يتبع منهج التدرُّج، بل أصدر قرارات تغيير فورية من اليوم الثاني لتعيينه، وهو ما كان سببًا في تذمُّر الناس وطلبهم عزْله، وهو ما وقع بعد أسبوع.

ورغم ذلك فقد كانت مدة الوالي الجديد هُدْنة التقط فيها الكواكبي أنفاسه من الاضطهاد والصراع مع الولاة، وبعد ثلاث سنوات مُنِيَتْ حلب بوالٍ جديد، هو عارف باشا الذي عُرِف بأكل الرشْوة، فعاد الكواكبي لإرسال حكم الشكاوى والرسائل إلى الأستانة لفضْحه، وهو ما جعل «عارف باشا» يُلفِّق له تُهمة إحداث فتنة بين الأرْمَن والمسلمين بحلب، ونجح في تزوير الأدلة على ذلك، حتى إن المحكمة التي أُحِيلَ إليها الكواكبي في حلب أصدرتْ عليه حكمًا بالإعدام!!

تقدَّم الكواكبي بطلب لاستئناف الحكم في محكمة بيروت، ومع تدخُّل بعض الفضلاء ممن يعرفونه، نجح في إثبات تزوير أدلة الاتهام، وحكمتْ المحكمة ببراءته!!

عاد الكواكبي إلى حلب ليواصل رسائله وفضْحه للوالي المرْتشي، وبالفعل عُزِلَ «عارف باشا»، وأُعِيدَ عثمان باشا واليًا على حلب.

كان عثمان باشا يعرف قدْر الكواكبي، فولَّاه رِئاسة غُرفة التجارة مع رئاسة مجلس المصرف الزراعي، وفيهما أظهر الكواكبي كفاءة ومقْدِرة، ثم استقال بعد عامين من رئاسة الغرفة، وبدأ أول أسفاره وكان لإسطنبول، حيث قضى بضعة أشهر ثم عاد لحلب، حيث تولَّى رئاسة كُتَّاب المحكمة الشرعية في حلب، وبعد عامين أُعْفِي منها.

كان الكواكبي قد كتب في تلك الفترة كتابه «أم القرى»، وقرأه على أصدقائه مرارًا فنصحوه بألَّا يطبعه إلا في مصر، إذ لم يكن المناخ في الولايات العثمانية يسمح بطباعة كتب تنتقد الأوضاع السياسية والعامة إلا في مصر، وبالفعل خرج الكواكبي من حلب بحجة ذهابه للأستانة، ومصر هي وجْهته الحقيقية.

في مصر:

وجد الكواكبي في مصر مَناخًا أكثر حرية من مناخ حلب، فمصر كانت ولاية عثمانية ذات وضْعٍ خاص، ينْعَم ولاتُها بقدْرٍ من الاستقلال والاستقرار غير متاح في أنحاء الدولة، كما أن الوجود الإنجليزي بها كان يُوفِّر قدْرًا من الحماية لمناوئي الدولة العثمانية.

وفي هذا المناخ تمكَّنَ الكواكبي من طبْع كتابه «أم القرى»، ونشر مقالاته النارية التي تحوَّلتْ بعد ذلك لكتاب«طبائع الاستبداد»، كما أُتِيحتْ له الفرصة للتلاقي والاحتكاك بكوكبة من العلماء والمصلحين الذين ترك فيهم جمال الدين الأفغاني بصمة رُوْحه وأفكاره، أمثال: الشيخ محمد عبده، ورشيد محمد رضا، والشيخ علي يوسف، ومحمد كُرْد علي، وإبراهيم سليم النجار، وعبد القادر المغربي، ورفيق العَظْم، وطاهر الجزائري، وعبد الحميد الزهراوي.. وغيرهم.

ولم يقتصر الترحيب بالكواكبي على مصر الشعبية والمثقفين، فقد احْتَفَىَ به الخديوي عباس حلمي الثاني، وقرَّر له راتبًا قدْرُه خمسون جنيهًا، وهو مبلغ ضخم بحسابات تلك الأيام.

ومن القاهرة، قام الكواكبي عام ١٩٠١م برحلة سِياحة في بلاد المشرق، زار فيها: إفريقيا الشرقية والجنوبية، والحبشة والصومال، وشِبْه الجزيرة العربية، والهند وإندونيسيا، وسواحل الصين الجنوبية.

كان الغرض من رحلته أن يطَّلِعَ على أحوال المشرق الإسلامي، ويُعاين مشكلاته وهمومه، ويحتكَّ بأهله وأرضه وثقافاته، وقد عاد للقاهرة بعد ٦ أشهر، مُودِعًا نتائج رحلته هذه في أصول كتاب كان ينوي طباعته، لولا أن القدَر لم يُمهله، وضاعت أصول الكتاب مع ما ضاع من مخطوطات كتاباته التي صادرها عُملاء السلطان عبد الحميد.

ويبدو أن علاقته بخديوي مصر كانت تسوء في تلك الفترة، وفي ذلك يقول صديقه عبد المسيح الأنطاكي: إن الكواكبي ظل مُخْتفيًا في القاهرة منذ وصوله إليها حتى طبع كتاب(أم القرى) إذ أرسل منه نسختين للخديوي في الإسكندرية، ونسخة أخرى للشيخ محمد عبده، والثالثة للشيخ علي يوسف، وقد سُرَّ الخديوي بالكتاب.

فأرسل مُوعِزًا إلى هذين الشيخين أن يَسْعيَا للتعرف على صاحب الكتاب الذي لم يذكر اسمه عليه، فما زالا يسألان حتى سمعا عن رجل غريب مقيم بشارع (عابدين) فلما قابلاه عرَّفهما بنفسه قائلًا: أنا معروف باسم عبدالرحمن الكواكبي من حلب، فتذكَّر علي يوسف أن مقالات وردتْ إليه بهذا الإمضاء، وسأله إن كان هو صاحب (أم القرى) فأنكر أولا، ثم أفاد بالإيجاب.

وهنا بدأت صلَته بالخديوي إلى أن تُوفي رحمه الله . لكن الظاهر أن هذه الصلة كانت هَشَّة القَوام، إذ سرعان ما تحسَّنَت العلاقات فيما بين الخديوي(عباس) والسلطان (عبد الحميد الثاني)، فساءت من طرف آخر بين الخديوي والكواكبي.

وفاته :

وفي ظروف مُرِيبة في الرابع عشر من يونيو سنة ١٩٠٢، كان عبد الرحمن يتناول قهوته في «مقهى يلدز» قُرْب حديقة الأزبكية بالقاهرة.. كعادته بعد العشاء في صحبة عدد من كبار الأدباء، ولكنه ما كاد يحْتسي القهوة حتى أحسَّ بألم شديد في أمعائه، فنهض وذهب إلى منزله مع ولده كاظم، وما كاد يبلغ به ولده البيت حتى بدأ يستفرغ ما في أحشائه، وهو يشكو من ألمه الفظيع، وذهب كاظم لاستدعاء الطبيب ولما عاد وجد أباه قد مات، وشاع النبأ الأليم في القاهرة، وتوافد أصحابه من بقاع الدنيا لتشييعه إلى مقبرة باب الوزير في سفْح جبل المقطم، حيث دُفِن هناك وبقيَ جثمانه أربعين سنة، ثم نُقِلَ إلى مقبرة في شارع الصداقة العفيفي..

وتصِف جريدة المؤيد اللحظات الأخيرة للكواكبي قائلة:«وكان الرجل لغاية الأمس على تمام الصحة و العافية، ثم نبَضَ بذراعه في الظهر عِرْق، أو سكَنَ نابض، فتألَّم نحو ساعة، وصل فيها الألم إلى القلب، ثم زال بعلاج خفيف استعمله، و بعد نصف الليلة الماضية عاوده الألم في الذراع، ثم اتصل بالقلب أيضًا، فعالجَه أكثر حتى زال قليلًا.

وبعد هُنَيْهَة عاجله الألم بشدة وتأثر القلب بسكتة كانت هي القاضية في منتصف الساعة الثالثة، وما أصبح الصبح حتى نَعاه أصدقاؤه لبعضهم...».

هناك مَن يتَّهمون الخديوي بأن له يدًا في اغتيال الكواكبي بالسُّمِّ، مُستدلين على ذلك بإسراع الخديوي في تغسيل الكواكبي ودفْنه في اليوم التالي، قائلين إن الخديوي فعل ذلك لدفْن الجريمة التي يمكن أن يكشفها التشريح للجثة.

وهناك من يتهمون عُمَلاء السلطان العثماني الذين كانوا يتتبَّعون أعداءه في مصر، ومما يُرْوَى في ذلك: أن أحد عُمَلاء السلطان لاحظ أن الكواكبي اعتاد أن يُبلِّل أصابعه لتقليب صفحات الكتاب الذي يقرؤه ، فوضع له سُمًّا في أطراف الصفحات!!

وهناك باحثون معاصرون يؤكِّدون أن وفاة الكواكبي كانت طبيعية، ومنهم الباحث السوري نصر الدين بحرة، الذي نشر في مجلة المعرفة السورية (رقم ٥٥٦ لعام ٢٠١٠) أن الأعراض التي وصفتْها صحيفة المؤيّد تتطابق تطابقًا تامًا مع أعراض الخُناق الصدري غير المستقر (Unstable Angina) والتي تكون نتيجة نقْص ترْوية إكليلية للعضَلة القلْبية، ويُؤدِّي إلى احتشاء العضَلة القلبية.

الكواكبي في عيون معاصريه :

تحدَّث عنه حفيده د.عبد الرحمن الكواكبي فيقول: «سأكتفي في وصْفِ شخصيته بإيراد أقوال من عاصروه وعاشروه، فأعمامُنا وعمَّاتُنا يتحدثون عنه كأب طيِّب رحيم، شديد العطف عليهم، كثير المزاح، دَمِث الأخلاق، حلو الحديث، شديد اللطافة، كثير الاهتمام بتفاصيل حياة أسرته.

وصفه عمُّنا د.أسعد في مجلة (الحديث) بأنه كان: رَبْعَة إلى الطول أقْرَب، قوي البنية، صحيح الجسم، عصبي المِزاج بِتَأنٍّ، أشْهل العينين، أزجَّ الحواجب، أبيض اللون، واسع الفم، عريض الصدر، أسود شعر الرأس والذقن، متأنقًا في لباسه، جسورًا غير هيَّاب فيما يعزم عليه، يتكلم بجهْر هادئ وسلاسة وابتسام، يُحْسِن السباحة والصيد والفروسية»..

ويصفه حفيده سعد زغلول الكواكبي: فالمعروف في أسرتنا أنه كان رَبْعَ القامة إلى الطول أقرب، دقيق الأنف، واسع العينين، أبيض البشرة، منتصب القامة، ويصفه جدي لأمي (الشيخ عبد الحميد الجابري) بأنه مَهيب الطَّلْعة وسِيمٌ أنِيقٌ دوْمًا..

ومن أخلاقه: حبُّه لأهله، كثير المزاح معهم، مُحِبٌّ لِلنِّكات راويًا لها...

أما في مجالسه العامة، فهو يكره المزاح السمْج واللعب والتلَهِّي، ولا يميل إلى مجالس الطرب واللهو، وأنه يعتبر ذلك إضاعة للوقت فيما لا يُجْدي...

وهو يرى التدرُّج في نَيْل المطالب تضييعًا للعمر وإفساحًا لمجال حدوث ما قد يجعل المطلوب ميئوسًا منه.

وأنه كان منذ حداثة سِنِّه تلْمع في مُحيَّاه مَخايل النَّجابة، والشهامة وعُلُو الجناب، سخي الطبع لا قيمة عنده للمال، ولُوعٌ بالتفضُّل على أقرانه وخِلَّانه، لا يرضَى أنْ يسبقه بالبذْل عليهم غيره، يأنف من الكذب والتدليس والغِيبة والنميمة، ويرى التلبُّس بهذه الخِلال الذميمة دناءة وغدرًا وخَورًا في الطبْع.

وكانت نفسه العزيزة عليه تأبَى الخضوع لأهل المجد بالباطل، ولا يرى شيئًا يُطفئ نار غضبه منهم أفضل من قهرهم وإذلالهم..».

ويصفه إبراهيم سليم النجار في مجلة (الضاد) الحلبية بأنه «رَبْعُ القامة، يميل إلى الطول قليلًا، أبيض الوجه بياضًا مُشْرِبًا بشيء قليل من الحُمْرة، شأن سُكَّان البلاد الباردة، مُعْتمُّ الرأس وقد أحاط خدَّيه بلحية قصيرة كانت كالإطار لوجهه، مدَّ فيها الشيْبُ خيوطه، وكان في نحو الخمسين من سِنِيِّه، غير أنه كان كثير النشاط، سريع الحركة، شديد العزم، يتكلم بشيء من الشدة والحزْم، ولو لم يكن شيخًا دِينيًّا لكان قائد جيش فاتح، فلقد كان في الحقيقة ثوْرِيًا بروحه وميوله».

ويتحدث عنه الشيخ رشيد رضا في رثائه له عند وفاته في مجلة المنار، فيقول عنه: «رجل عظيم من رجال الإصلاح الإسلامي، وعالم عامل من علماء العمران، وحكيم من حكماء الاجتماع البشري...وكان صاحب عزيمة، لا يهاب حاكمًا ولا يخاف ظالمًا».

ويصفه الشيخ رشيد رضا أيضًا بأنه:«... كان من أخلاقه الراسخة الحلم والأناة والرفق والنزاهة والعزة والشجاعة والتواضع والشفقة وحب الضعفاء. وقد كنتُ ككل مَن عرفه معجبًا بأناته حتى كنت أقول : إنني أراه يتروَّى في ردّ السلام ويتمكَّثَ في جواب ما يجيبه عدة ثوان، ولا أكاد أعرف أخلاقًا أعصَىَ على الانتقاد من أخلاقه».

ويتحدث عبد المسيح الأنطاكي في جريدة «القاهرة»، فيقول عن الكواكبي إنه:«نال إجازة التدريس في المدرسة الكواكبية المختصة بأسرته وهو في العشرين من عمره بعدما أظهر من النجابة والذكاء ما أدهش جميع مَنْ عرفوه. وقد حدثنا، رحمه الله، عن نفسه وهو يذكر لنا تاريخه، أن أول يوم دخل فيه المدرسة الكواكبية كأستاذ وهو في عُنْفوان شبابه، تلقَّاه أبوه على مصْطبة الجامع وقبَّله من جبهته فرحًا، وقال له: (إنني مسرور بهذا النجاح الظاهر عليك والذكاء المنبعث من عينيْك، ولكنني أقرأ على جبهتك ما لا يسرُّني من مستقبلك)، وبكى بكاء مرًّا.

قال: فوقفت إلى جانبه مبهوتًا لا أدري سببًا لبكائه في ساعة حقَّق الله فيها أمانِيه بي. وكان السيد عبد الرحمن كلما تذكر هذه الحادثة بكىَ أباه، ولا سيما بعد أن صَدَقتْ كلماتُه فيه»..

وقال فيه العلامة محمد كُرْد علي في مجلة الهلال:«رجل سِيماء الفضْل في وجهه، ودلائل سعة العلم في حديثه، لم تُتَحْ لي معاشرته إلا بُرْهة وجيزة، ولكن الفضل لا يخفى، وكان كبيرًا في عقله، كبيرًا في همته، كبيرًا في علمه، وكان خلَّابًا للألباب، إذا ضحك وإيَّاه نادٍ لا تُريد فراقه مِنْ بعد.

كانت عليه سِيماء الكآبة مما مُنِيَ به، ومع تمسُّكه بالإسلام، لم يكن متعصبًا، يأنس بمجلسه المسلم والمسيحي واليهودي على السواء، لأنه كان يرى رابطة الوطن فوق كل رابطة».

وتحدَّث كثيرون عن شخصيته عند وفاته، مثل يعقوب صَرُّوف الذي كتب في المقتطف يقول:«وكان يقول الحق ولو على نفسه، ومَنْ كان هذا حاله يقاسي الأمَرَّيْن، ولا يهدأ له بال، فكان ينصح بعضهم بالرجوع عن الجَوْر والعسْف، فحنقوا عليه من جرَّاء ذلك، وتواطأ بعض العُمَّال مع الأعيان عليه وساموه من ضروب التنكيل ألوانًا، فصبر على ما أصابه مما يصيب في العادة المنوِّرين العقلاء في البلاد الشرقية.

ومن صفاته أنه ما توانَى في أمر بدأ فيه، ولا تضجَّر ولا تمْلمل، وكان رَحِبَ الصدر، عاقلًا يخاطب الناس على قدْر عقولهم، فهو سياسي مُحنَّك مع الساسة، وعِمْراني اجتماعي مع علماء العمران، وعالم ديني مع علماء الدين، وتاجر مع التجار، وزارع مع الزُّرّاع، وصانع مع الصُّنّاع، وعامل مع العمّال، وكبير مع الكبراء.

بحيث كان الناظر إليه لأول وهْلة يقرأ في جبهته أمَارات العقل والخبْرة الطويلة والعلم الوافر. وإنه كان واسع المادة، بعيد غَوْر العقل...يتكلم عن رَوِيَّة ولا ينطق عن هوَى».

وكتب عنه المفكر المصري أحمد أمين في كتابه (زعماء الإصلاح في العصر الحديث): «...نزيه النفس، لا يخدعها مطْمَع ولا يُغْريها مَنْصِب، شجاع فيما يقول ويفعل، مهما جرَّت عليه شجاعته مِنْ سِجْن وضياع مالٍ وتشريد».

وممن تحدث عنه من معاصريه جورجي زيدان في «مجلة الهلال» وغيره من أدباء مصر ومثقَّفِيها، كما وصف شخصيته صديقه الشاعر حافظ إبراهيم في بيت الشعر الذي ارتجله عند دفنه حيث قال:

هنا رجلُ الدنيا هنا مَهْبِط التُّقَى ... هنا خيرُ مظلوم هنا خيرُ كاتب

قِفُوا واقرأوا أم الكتاب وسلِّموا ... عليه فهذا القبر قبرُ الكواكبي

الكواكبي المناضل والمثقَّف

كان الكواكبي في ثورته على الاستبداد العثماني، ودعوته الإصلاحية، لا يصْدُر مِنْ خَلْفية حرمان اقتصادي أو تهميش اجتماعي، فالرجل وُلِدَ وتربَّى في أسرة شريفة تتمتع بالثروة والجاه، وكان أبوه من رِجالات الإدارة في حلب، وكان بإمكان الكواكبي ـ لو أراد ـ أن يعيش في كنَف الإدارة العثمانية، مُتمتِّعًا بثروته وجاهه، دون أن يصطدم بها، أو يتعرَّض لاضطهادها، ويضطر للترْحال والاغتراب، لولا أنه كان صاحب مبادئ وفكْر حُرٍّ ورسالة.

يَصِفُه العقاد في دراسته القيِّمة عنه فيقول: «إنَّ فضْل الكواكبي في ثقافته أكبر من فضْل واحد.. إنه فضْل المثقَّف الذي تلقَّى ثقافته من ثمرة اجتهاده، وفضْل المثقف الذي بلغ بوسيلته ما لم يبلغ أنداده بأضعاف تلك الوسيلة، وفضل المثقف الذي انتفع بثقافته ونفع بها قومه وجعلها عملًا منتجًا ولم يتركها كما تلقّاها أفكارًا وكلمات».

يُعْتبَر الكواكبي رائدًا من رُوَّاد التعليم، حيث دعا إلى إصلاح أصول تعليم اللغة العربية والعلوم الدينية وتسهيل تحصيلها، والجَدّ وراء توحيد أصول التعليم وكتب التدريس، وقدّم الكثير من الأسس لاعتمادها في مجال التربية والتعليم، ودعا إلى فتح باب محْو الأمية، وبيَّن دَور المدارس في إصلاح المجتمع. كما ركَّز على أهمية تعليم المرأة كي تُجيد رسالتها في الحياة.

كما يُعْتبر الكواكبي أحد أعلام الحركة الإصلاحية، فوجَّهَ جهوده إلى العمل الأخلاقي، وكافح العادات السيئة والتقاليد البالية، ونقَدَ المعتقدات الفاسدة، وبذَل السعي المتواصل لنشر الفضائل والتمسك بها للنهوض بأخلاق المجتمع،

فقام بتشكيل الجمعيات والنوادي في القُرى والمُدن لتقوم بدور التوعية والتثقيف للجمهور، كما ردَّ فساد الأخلاق إلى انحلال الرابطة الدينية والاجتماعية وَفقْدِ التناصح وغياب الأخلاق.

فنجده يقول في كتابه (أم القرَى):

«فلِمِثْل هذا الحال لا غرْو أن تسأم الأمة حياتها فيستولي عليها الفتور، وقد كَرَّتْ القرون وتوالت البطون ونحن على ذلك عاكفون، فتأصَّل فينا فقْدُ الآمال وترْكُ الأعمال والبُعْد عن الجَدِّ والارتياح إلى الكسل والهزل، والانغماس في اللهو تسكينًا لآلام أسْر النفس والإخلاد إلى الخمول والتسفُّل طلبًا لراحة الفكْر المضغوط عليه من كل جانب... إلى أن صِرْنا نَنْفر من كل الماديات والجدِّيات، حتى لا نُطِيق مطالعة الكتب النافعة ولا الإصغاء إلى النصيحة الواضحة، لأن ذلك يُذكِّرنا بمفقودنا العزيز، فتتألَّم أرواحنا، وتكاد تزهق روحنا إذا لم نلجأ إلى التناسي بالملهيات والخرافات المروِّحات، وهكذا ضعف إحساسنا وماتت غيرتنا، وصِرْنا نغضب ونَحْقِد على من يُذكِّرنا بالواجبات التي تقتضيها الحياة الطيبة، لعجْزنا عن القيام بها عجْزًا واقعيًّا لا طبيعيًّا».

كان عبد الرحمن الكواكبي واحدًا من المفكرين العرب الذين كشفوا عن أسباب الجمود الذي خيَّم على العالم الإسلامي، وقارن ذلك بحالة التقدم التي وصل إليها الأوربيون في العصور الحديثة، والتي مكَّنتهم من الهيمنة على أجزاء واسعة من العالم الإسلامي.

قال في كتابه أم القرى: (إن مسألة التقهْقُر بِنْتُ ألف عام أو أكثر، وما حَفِظَ عِزَّ هذا الدين المبين كل هذه القرون المتوالية إلا متانةُ الأساس، مع انحطاط الأمم السائرة عن المسلمين في كل الشؤون، إلى أن فاقتْنا بعض الأمم في العلوم والفنون

المنوَّرة للمدارك، حزَبَتْ قوتها فنشرت نفوذها على أكثر البلاد والعباد من مسلمين وغيرهم، ولم يزل المسلمون في سُباتِهم إلى أن استولى الشَّلَل على كل أطراف جسم المملكة الإسلامية).

نشر الكواكبي آراءه وأفكاره في أهم كتابيه، أم القرى: وهو كتاب يدور موضوعه حول مؤتمر تخيَّله الكواكبي ليعرض فيه آراءه الإصلاحية في قالب جذَّاب يستهوِي النفوس، وأغلب مواضيعه في نقْد الشعوب الإسلامية.

أما كتابه «طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد» وهو الكتاب الذى نُقدِّم له، فهو دراسة سياسية تنظيرية غير مسبوقة للاستبداد وآثاره على المجتمعات.

وكان الكواكبي يحاول دائمًا أن يجمع شمْلَ الأمة الإسلامية لتكون قوة هائلة تُرهِب المستبدِّين، وكان يرى أنه بالعِلْم وحده يمكن أن يعرف الناس أن الحرية أفضل من الحياة نفسها وأكرم، وأن الشرف أعزّ من المنصب والمال. كما كان يحارب البدع ويرى أنها مرض يجب مداواته، فيقول عن أصحاب البدع الذين شوهوا صورة الإسلام: «فمنهم الذين استبدلوا بالأصنام القبور، فبَنوا عليها المساجد والمشاهد، وأرْخُوا عليها السُّتُور، يطوفون حولها مُقَبِّلين مُسْتَلِمِين أركانَها».

أصل الداء

اكتشف الكواكبي بعد ثلاثين عامًا من البحث أن أصل الداء في عصره هو الاستبداد السياسي، ودواؤه دفْعُه بالشورى الدستورية.

وحين يصف الكواكبي حاله، وهو يتحدث عن كيفية توصُّلِه إلى هذه النتيجة يقول:«طالما أتبعتُ نفسي في تحليلها وخاطرتُ بحياتي في دَرْسِها وتدقيقها، وبذلك يعلمون أني ما وقفت على الرأي القائل بأن أصل الداء هو الاستبداد السياسي، إلا بعد عناء طويل يُرجِّح أني قد أُصبْتُ الغرض».

الكواكبي الذي توصَّل إلى هذا الرأي في أواخر القرن التاسع عشر الميلادي، هو الرأي الذي توصلت إليه الأمة في الربيع العربي الراهن، وحاولت الثورة عليه، حيث ما زال الداء وعلة العلل هو الاستبداد بصوره كافة، وبالذات الاستبداد السياسي.

فالاستبداد الذي حاول الكواكبي مواجهته والتهويل منه، والتحريض على مقاومته، وبعث الكراهية نحوه، هو أكثر ما تفشَّى في الأمة بعد غيابه، لكننا ينقصنا الكواكبي الذي يرى نفسه في مواجهة الاستبداد، مواجهة شاملة وجذرية، ويعتبرها معركته الأولى وقضيته الرئيسية، كما كانت هي قضية الكواكبي في عصره، القضية التي عُرِف بها الكواكبي من بين كل المُصْلِحين الذين عرفهم التاريخ الإسلامي الحديث في القرون الثلاثة الأخيرة، بحيث أصبح متلازمًا الحديث عن الكواكبي والحديث عن الاستبداد.

والذي يجزم به كثير من المفكرين والباحثين أن الفكر الإسلامي المعاصر والأدب العربي الحديث لم ينْجُزا كتابًا في الاستبداد يتجاوز أو يماثل كتاب الكوكبي في «طبائع الاستبداد». الكتاب الذي ما زال يحتفظ بقيمته المعرِفية ومرجعيته الفكرية وبحيويته المعنوية والأدبية في حَقْلِه ومجاله، وهو يكشف عن مستوى الوعي الرفيع الذي وصل إليه الكواكبي، والإدراك العميق في تحليل مشكلة الأمة.

كما يكشف عن جرأة وشجاعة وإحساس بألم وكراهية شديدة للاستبداد. فهو الكتاب الذي ينبغي أن يعرفه ويقرأه الجميع، وتُدْرَس نصوصه في مناهج التعليم، لأنه أفضل كتاب يُعلِّم الأمة كراهية الاستبداد ومناهضته، ويُقدِّم أفضل تشريح لماهية الاستبداد وأصوله وعلائقه بالدين والعلم والمال والأخلاق والتربية والترقِّي.

الاستبداد والنهضة علاقة شرطية

وكان يفترض أن يُساهم هذا الكتاب في تطوير وتأكيد اهتمامات الفكر الإسلامي المعاصر بقضية الاستبداد والاستبداد السياسي بوجه خاص، إلا أن هذه الاهتمامات كانت محدودة جدًا، لا تُعادِل هذه المشكلة وحجْمها وخطورتها، وبالشكل الذي يمكن أن يُعدَّ تراجعًا أمام معضلة، كان من المفترض أن تستحوذ على أوسع الاهتمامات لأنها وكما وصفها الكواكبي أصل الداء وعلة العلل. الأمرُ الذي يُفسِّرَ لنا محدودية حضور الكواكبي وخطابه الإصلاحي في الأدبيات الإسلامية المعاصرة، وهذا ما ينبغي أن يُراجَع ويُعاد النظرُ فيه.

ومن أجل تكوين المعرفة بخطاب الكواكبي علينا التعرُّف على ما يمكن أن نصطلح عليه بفلسفة الكواكبي، والمقصود بهذه الفلسفة هو معرفة الناظِم المعْرفي الكُلِّي الذي يُؤطِّر وينُظِّم مجموع الأفكار والتصورات والمفاهيم التي كوَّنها الكواكبي وعَبَّر عنها هذا أولًا.

وثانيًا معرفة الحد الحقيقي الذي يميِّز فكر الكواكبي عن غيره من المُصْلحين الذين عاصرهم بشكل خاص كالسيد جمال الدين الأفغاني، والشيخ محمد عبده، والشيخ محمد رشيد رضا، والميرزا محمد حسين النائيني وغيرهم.

ويمكننا أن نفهم فلسفة الكواكبي عن طريق كتابيه الشهيرين (طبائع الاستبداد) و(أم القرى) فالأول كتاب في الاستبداد، والثاني كتاب في النهضة. وبذلك تكون فلسفة الكواكبي في هذه العلاقة بين الاستبداد والنهضة، في حين أن فلسفة الأفغاني هي العلاقة بين الجامعة الإسلامية والنهضة، وفلسفة عبده هي العلاقة بين الإصلاح الإسلامي والنهضة.

والعلاقة بين الاستبداد والنهضة هي علاقة بين الهدْم والبناء، وهي علاقة شرطية أيضًا فلا بد من معالجة الاستبداد لكي نتقدم نحو النهضة، هذه هي الفلسفة التي بحاجة إلى أن تكون فاعلة في حياتنا ووجْدانِنا، وفي أدَبِيَّاتِنا وخطاباتنا.

الكواكبي وجمال الدين الأفغاني:

حتى لو كان الكواكبي متأثرًا بالسيد جمال الدين الأفغاني فإنه لم يكن تلميذًا له أو لمدرسته الفكرية والإصلاحية. لذلك ليس صحيحًا ما يذكره بعض الكتاب في تصنيف الكواكبي على أنه من تلامذة الأفغاني. وهذا ما يظهر ويتأكد في حالة تحليل الأفكار عندهما، فهناك قدْر من الاتفاق وقدْر من الاختلاف أيضًا.

والذين أرَّخُوا لحياة الكواكبي وسيرته لم يذكروا أنه الْتقَى بالأفغاني أو صاحبه. والاحتمال الوحيد في هذا الأمر هو ما ذكره حفيده سعد زغلول الكواكبي الذي كتب السيرة الذاتية الموثَّقة لِجَدّه، حيث يحتمل أن يكون الكواكبي قد اجتمع بالأفغاني سِرًّا في آخر زيارة له إلى إسطنبول عندما كان الأفغاني في إقامته الجبْرية هناك. ولم يذكر شيئًا عن مضمون هذا الاجتماع سوى أن الأفغاني يحتمل أنه حذَّر الكواكبي من مغبَّة اعتقاله، الأمر الذي جعل الكواكبي يسارع إلى ترك إسطنبول ويعود إلى حلب ليخرج منها نهائيًّا متوجِّهًا إلى مصر .

أما لقاء الكواكبي بالشيخ محمد عبده فلم يحصل إلا بعد وصوله إلى مصر، عِلْمًا أن الكواكبي لم يُغادر حلب طوال حياته إلا إلى تركيا. وفي مصر لم يجالس الشيخ عبده كثيرًا لأنه سرعان ما ترك مصر لينشغل برحلاته وسفراته الطويلة والبعيدة.

والأمر المهم في هذا الشأن هو أن الكواكبي حينما وصل إلى مصر كان قد تحدَّدتْ لديه أفكاره الرئيسية الناضجة والراسخة لديه. فكتاباه «طبائع الاستبداد» و«أم القرى» صنفهما في حلب وحملهما معه إلى القاهرة لينشرهما من هناك إلى بلاد الشرق والعالم الإسلامي.

ما أضافه الكواكبي على الصعيد الفكري كان على قدْر كبير من الأهمية في حركة الإصلاح الإسلامي، مع ذلك لم يكتسب تلك الأهمية المفترضة، وتراجعت تأثيراته الفكرية نِسْبيًا في ظل هَيْمنة شخصية السيد جمال الدين الأفغاني والشيخ محمد عبده على فكر ومشروع حركة الإصلاح الإسلامي.

فالكواكبي إذا لم يكن أول عربي يتصدى للاستبداد بالنقد والتجريح في العصر الحديث، فقد سبقه إلى ذلك مفكرون كُثُر من أمثال: خير الدين وابن أبي الضياف التونُسيْن، وجمال الدين الأفغاني، بالإضافة إلى عدد من المسيحيين السوريين الذين استقوا آراءهم السياسية من فلاسفة الثورة الفرنسية ومونتسكيو بصورة خاصة. لكن المؤكد أن الكواكبي كان أول عربي يتصدى للاستبداد بالتحليل والدراسة الجادة.

لعل الكواكبي يُمثِّل حالةً وسَطيَّة بين الأفغاني وعبده. فهو في مجالات يتفق فيها مع الأفغاني ويختلف فيها مع عبده، وفي مجالات أخرى يحصل العكس يتفق فيها مع عبده ويختلف فيها مع الأفغاني.

وقد اهتم بعض الكتاب والباحثين الذين درسوا حركة الإصلاح الإسلامي أو أرَّخُوا لحياة المصلحين بإظهار المقارنة بين الأفغاني والكواكبي وجوانب الاتفاق والاختلاف بينهما.

فأحمد أمين يرى بأن «الأفغاني اكتوى بالسياسة الإنجليزية، فصب عليها جامَّ غضبِه، واستغرقتْ حملتُه عليها أكبر قِسْم في «العروة الوثقى». في حين اكْتَوَى الكواكبي بالسياسة العُثمانية فكانت موضع نقْده.

الأفغاني نظر إلى العوامل الخارجية، والكواكبي نظر إلى العوامل الداخلية. لذلك كانت معالجة الأفغاني للمسائل معالجة ثائر، تخرج من فمه الأقوال نارًا حامية، ومعالجة الكواكبي معالجة طبيب يفحص المرض في هدوء ويكتب الدواء في أناة.

الأفغاني غَضُوب والكواكبي مُشْفِق، الأفغاني داعٍ إلى السيف والكواكبي داعٍ إلى المدرسة. الأفغاني حادّ الذكاء حادّ الطبْع، والكواكبي رزِين الذكاء هادئ الطبع، إذا وُضِعَتْ أمامهما عقبة تخطَّاها الأول قبل وتخطَّاها الثاني بعد. فلا عجب إنْ كان للأفغاني دَوِيٌّ المدافع، وكان للكواكبي خرِير الماء يعمل في بُطءْ حتى يُفتِّت الصخر».

وفي نظر الشيخ مرتضى المطهري بأن «الكواكبي كالسيد جمال الدين وعلى خلاف الشيخ عبده، يُعطي للنشاط السياسي ورَفْع الوعي السياسي للجماهير اهتمامًا أكثر منه بسائر الشؤون الإصلاحية في الحياة».

وإذا كان الكواكبي يشترك مع الأفغاني في مفهوم الجامعة الإسلامية، فإنه يختلف عنه في إعطاء موقع الزعامة إلى العرب وبنوع من التأكيد والإصرار. وهما يشتركان في نقْد ومعارضة الاستبداد، ويختلفان في أن الكواكبي يرى بأن الاستبداد لا يقاوم بالقوة أو الشدة وإنما باللِّين والتدرُّج.

كما يمكن القول بأن الكواكبي في كتابه «طبائع الاستبداد» يقترب من المِزاج النفسي والعقلي عند الأفغاني، وفي كتابه «أم القرى» يكاد يقترب من المزاج النفسي والعقلي عند الشيخ عبده.

إن الرؤية التي قدَّمها الكواكبي في توصيف مشكلة أو مشكلات الأمة كانت على قدر كبير من الأهمية والتميز، واتصفت عن غيرها من رُؤى وتصوُّرات المصلِحين والمفكرين في عصره بالتركيز والتحديد والضبط والنظام.

فمن السهولة معرفة هذه الرؤية ومكوِّناتها وعلائقها وهكذا حدودها ونظامها، إطارها ومنهجيتها. وقد ظهر الكواكبي بمظهر الواثق في التعبير عن هذه الرؤية والقاطع بها، بعد أن بذل جهدًا واسعًا في البحث والتأمل والنظر كما كان يصف حاله دائمًا، خصوصًا في كتابه «طبائع الاستبداد» في حين أن الدارس لرؤية السيد جمال الدين الأفغاني يواجه صعوبة في تجميع هذه الرؤية وتوثيقها بالكامل لأنها رؤية مُشَتَّتة ومتناثرة في مقالات وكتابات وخطابات مُوزَّعة بين دُوَل ولغات مختلفة وبأسماء متعددة.

أما رؤية الشيخ محمد عبده فقد مرَّتْ بأطوار وتحوُّلات وتغيُّرات، فحين كان في مصر كانت رؤيته في طور معين، وبعد نفْيه إلى الخارج أصبحت هذه الرؤية في طَوْر آخر، وبعد عودته إلى مصر دخلت هذه الرؤية في طور مختلف كليًّا عما كانت عليه سابقًا.

وهكذا الحال مع رشيد رضا الذي تغيرتْ رؤيته بين عصرين، عصر أستاذه الشيخ عبده، وعصر ما بعده. بخلاف الكواكبي الذي كان واضحًا في التعبير عن رؤيته وأفكاره واهتم كثيرًا في ضبط وتحديد هذه الرؤية.

الكواكبي وطبائع الاستبداد

لقد عُرِف الكواكبي واشتهر بكتابه «طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد»، وقد صنَّف الكواكبي هذا الكتاب في حلب دون أن يطَّلع عليه أحدٌ، وحمله معه إلى القاهرة، حيث نشره على حلقات في صحيفة «المؤيد»، وجَمَعَه لاحقًا في كتاب. وظهرت نسخته المنقَّحة أول مرة سنة ١٩٥٧م، وحُفِظَ المخطوط الأصلي -حسب رواية ابنه الدكتور عبد الرحمن الكواكبي- في مديرية الوثائق التاريخية التابعة لوزارة الثقافة بدمشق.

في هذا الكتاب حاول الكواكبي أن يشرح رؤيته لما وصفه بالداء الدفين وسبب الانحطاط في الأمة وما هو الدواء؟ والانخراط في بحث المسألة الكبرى على حدّ وصْفه، ويعني بها المسألة الاجتماعية في الشرق عمومًا وفي المسلمين خصوصًا.

ومنذ البداية وفي مقدمة هذا الكتاب حدَّد الكواكبي رؤيته النهائية والحاسمة التي استقر عليها في تفسير أصْل هذا الداء بعد بحث وتأمُّل ونظَرٍ استغرق ثلاثين عامًا كاد يشمل كما يقول: «كل ما يخطر على البال من سبب يتوهم فيه الباحث عند النظرة الأولى، أنه ظفر بأصل الداء أو بأهم أصوله، ولكن لا يلْبث أن يكشف له التدقيق أنه لم يظفر بشيء، أو أن ذلك فرع أصل، أو هو نتيجة لا وسيلة».

وتمحَّص عنده أن أصل هذا الداء هو الاستبداد السياسي ودواؤه دفْعه بالشورى الدستورية. الأصل الذي أعطاه الكواكبي وصفَ الإصابة والترجيح، وكيف أنه بذل جهدًا كبيرًا في التوصل إليه والثبات عليه، وحسب قوله: «إن إراحة لفكر المطالعين أُعدِّد لهم المباحث التي طالما أتعبتُ نفسي في تحليلها، وخاطرتُ حتى بحياتي في درسها وتدقيقها، وبذلك يعلمون أني ما وافقت على الرأي القائل بأن أصل الداء هو الاستبداد السياسي إلا بعد عناء طويل يُرجِّح أني قد أصبتُ الغرض».

أما غاية المؤلف من هذا الكتاب فهو «التنبيه لمَوْرِد الداء الدفين، عسى أن يعرف الذين قَضْوا نَحْبَهم، أنهم هم المتسبِّبون لما حلَّ بهم، فلا يعتبون على الأغْيار ولا على الأقدار، إنما يعتبون على الجهل وفقْد الهِمَم والتواكُل، وعسى الذين فيهم بقية رَمَقٍ من الحياة يستدركون شأنهم قبل الممات».

وقد اكتسب هذا الكتاب اهتمامًا واسعًا من الكُتَّاب والباحثين والنقَّاد، وذلك لطبيعة موضوعه وطريقة معالجته ووضوح وجرأة أفكاره، وتركيزه على قضية

شديدة الحساسية يُصنِّفها البعض في دائرة المحرمات والممنوعات، وجاء في وقت لَفَتَ الانتباه إليه بصورة كبيرة، وعُرِف على نطاق واسع، ولعل الكواكبي التفت إلى حساسية هذا الجانب في ربْط موضوع الكتاب بزمنه وعصره، كما لو أنه موجَّه إلى سلطة أو دولة معينة فتدارك هذا الأمر بقوله في مقدمة الكتاب: «وأنا لا أقصد في مباحثي ظالمًا بعينه ولا حكومة أو أمة مخصصة، إنما أردت بيان طبائع الاستبداد وما يفعل، وتشخيص مصارع الاستعباد وما يقضيه ويمضيه على ذويه».

ومنذ ظهور هذا الكتاب وهو يُعْتبر الأكثر أهمية في نقْد الاستبداد وتشريح أصوله ومكوناته وعلاقاته، وإلى اليوم وهو يحافظ على هذا الزَّخَم النقْدي، وعلى قيمته المعنوية والفكرية، ومكانته المرجعية والمعْرِفية. لدرجة أصبح بالإمكان الاقتران بين الحديث عن الكواكبي والحديث عن الاستبداد، فهو أكثر من عُرِفَ مِنْ بين المصلحين في العالم العربي والإسلامي بنقد الاستبداد.

وحين يصفه المسْتَعْرِب الروسي المتخصص في تاريخ الفكر العربي الحديث والمعاصر «زلمان ليفين» يقول عنه بأنه: «مفكِّر سياسي مُفْعَم بكراهية الاستبداد في كافة مظاهره، وخاصة الاستبداد السياسي في الدولة العثمانية».

والاهتمام الواسع بهذا الكتاب لفَتَ انتباه البعض لمعرفة طبيعة المصادر والمنابع الفكرية المكوِّنة لمثل هذه الأفكار والمسائل والمقولات التي عبَّر عنها الكواكبي، واتصفت بالحيوية والنقدية والتنوير. خصوصًا أن الكواكبي أشار في مقدمة وبداية هذا الكتاب إلى وجود اقتباسات بدون تحديد لنوعيتها ومصادرها، وكميتها ومساحتها في الكتاب.

وحينما حاول الكواكبي تحديد الإطار العام أو الحقْل المعْرِفي الذي ينتمي إليه موضوع الكتاب، حدَّده بعلم السياسة وقال عنه: «إن السياسة عِلْم واسع جدًّا،

يتفرَّع إلى فنون كثيرة ومباحث دقيقة شتى، وقلما يوجد إنسان يحيط بهذا العلم، كما أنه قلما يوجد إنسان لا يحتك فيه. وقد وجِدَ في كل الأمم المترقِّية علماء سياسيون تكلموا في فنون السياسة ومباحثها استطرادًا في مُدوَّنات الأديان أو الحقوق أو التاريخ أو الأخلاق أو الأدب».

وهذا الحقْل في نظر الكواكبي شهد تطورًا وتوسعًا عند الأوروبيين والغربيين عمومًا، وحسب رأيه: «أما المتأخرون من أهل أوروبا ثم أميركا فقد توسعوا في هذا العلم وألَّفوا فيه كثيرًا وأشبعوه تفصيلًا حتى أنهم أفردوا بعض مباحثه في التأليف بمجلدات ضخمة، وقد مَيَّزوا مباحثه إلى سياسة عمومية، وسياسة خارجية، وسياسة إدارية، وسياسة اقتصادية، وسياسة حقوقية إلخ، وقسَّموا كلًا منها إلى أبواب شتى وأصول وفروع».

الأمر الذي يؤكد وجود اقتباسات من منابع الفكر الأوروبي. والذين حاولوا دراسة هذا الكتاب وتفكيك نصوصه يتفقون على هذه الحقيقة من حيث الإجمال والعموم، لكن من الصعب عليهم تحديد حَجْم ومساحة وحتى نوعية هذه الاقتباسات.

وأكثر ما يتفق عليه هؤلاء هو استفادة الكواكبي من كتاب «في الاستبداد» للكاتب الإيطالي «فيتوريو ألفيري» (١٧٤٩ ـ ١٨٠٣م). وقد عزَّز الكواكبي هذه الحقيقة حينما أشار إلى اسمه في أواخر الكتاب، وَوَصفَه بالكاتب المشهور.

لذلك فقد اعتبر أحمد أمين أن الكواكبي استفاد من الاقتباسات الأجنبية في كتابه «طبائع الاستبداد» واقتبس فيه كثيرًا من أقوال ألفيري، لكنه لا يعرف كيف توصَّل إليها، أو كيف وصلتْ إليه.

أما الباحث فهمي جدعان فهو لا يعطي وصْف الكثير إلى هذه الاقتباسات، ويرى أن الكواكبي استقَى عددًا من أفكاره بدون تحديد لحجمها ونوعيتها، ويُرجِّح عنده أن الكواكبي تعرَّف على كتاب (ألفيري) عن طريق ترجمته إلى التركية التي قام بها جَودتْ عبد الله.

ولعل الذين بالغوا في تصوير هذه الاقتباسات هم بعض الكُتَّاب الغربيين، حيث نظروا إلى الكواكبي كما لو أنه كان ناقلًا أو مُترجمًا لأفكار غيره من الأوروبيين، لكن في قالب يتكيَّف وطبيعة السياقات الاجتماعية والفكرية والسياسية للمنطقة العربية.

ومن المحتمل أن يكون هؤلاء الكُتَّاب الأوروبيون هم أول من تحدَّثوا عن مثل هذه الاقتباسات عند الكواكبي في كتابه «طبائع الاستبداد»، ومنهم نقل الكُتَّاب العرب وجُود الاقتباس.

وما يؤكد هذا الافتراض: أن ألفيري الذي رجع إليه الكواكبي قطعًا لم يكن معروفًا في العالم العربي، ولعل الكواكبي هو أول من أشار إليه، وكتابه «في الاستبداد» إذا كان معروفًا في أوروبا فإنه كان مجهولًا في المنطقة العربية.

والملاحظ على تصويرات الباحث الروسي «ليفين» وغيره من الكُتَّاب الغربيين الذين يتقاطعون معه أنها تصويرات تتصف بالمبالغة وعدم الإنصاف والاعتراف بالجدارة العلْمية، وفيها مصادرة واضحة لجهد الكاتب.

كما أن هذه التصويرات تكشف عن ذهنية التعالي والاستحواذ عند الغربيين واحتكار عَقْل الحداثة والتنوير والتقدم. في حين أنَّ فحْص كتاب «طبائع الاستبداد» يكشف عن السيرة العملية للكواكبي نفسه وتاريخه في مصادمة الاستبداد، وأنه كُتِب بلغة شفافة وثائرة تُعبِّر عن طبيعة معاناته وحقيقة وجْدانه

الداخلي وتكوينات إدراكاته الذهنية في تأملاته لمشكلات الأمة وتشخيص أصل الداء أو علة العلل.

وغالبًا ما كان يعبِّر عن شدَّة معاناته وعمق تأملاته في استنباط هذه الأفكار، فحين يصف مباحث كتاب «طبائع الاستبداد» يقول عن حاله «طالما أتعبتُ نفسي في تحليلها وخاطرت حتى بحياتي في درسها وتدقيقها».

وحين حاول تجديد النظر في الكتاب بعد نفاده في برهة قليلة كما يقول عبرَّ عن حاله بقوله: «أحببت أن أعيد النظر فيه وأزيده زيدًا مما درسته فضبطته، أو ما اقتبسته وطبقته، وقد صرفت في هذا السبيل عمرًا عزيزًا وعناء غير قليل».

وكأنه أراد أن يؤكد انتساب هذه الأفكار إليه، وتمسكه بها، وثقته التامة بها. لذلك لا يمكن القول إلا بانتماء هذه الأفكار له، وهو ما لا يلْغي استفادته من أفكار الآخرين وفي مقدمتهم ألفيري نفسه.

وحتى هذه الأفكار تعامل معها الكواكبي بعقلية نَقْدية، فقد أظهر اختلافه مع ألفيري، وهو يناقش إشكالية أن الاستبداد السياسي متولِّد من الاستبداد الديني وحسب قول الكواكبي: «تضافرت آراء أكثر العلماء الناظرين في التاريخ الطبيعي للأديان على أن الاستبداد السياسي متولد من الاستبداد الديني، والبعض يقول إن لم يكن هناك توليد فهما أخوان أبوهما التغلُّب وأمهما الرياسة، أو هما صِنْوان قويَّان بينهما رابطة الحاجة على التعاون لتذليل الإنسان، والمشاكلة بينهما أنهما ما كان أحدهما في مملكة الأجسام والآخر في عالم القلوب».

والفريقان في نظر الكواكبي «مصيبان في حكمهما بالنظر إلى مغْزَى أساطير الأوَّلين، والقسم التاريخي من التوراة والرسائل المضافة إلى الإنجيل. ومخطئون في حق الأقسام التعليمية الأخلاقية فيهما، كما هم مخطئون إذا نظروا إلى أن القرآن جاء

مؤَيِّدًا للاستبداد السياسي، وليس من العذر في شيء أن يقولوا نحن لا ندرك دقائق القرآن نظرًا لخفائها علينا في طَيِّ بلاغته، ووراء العلم بأسباب نزول آياته، وإنما نبني نتيجتنا على مقدمات ما نُشاهد عليه المسلمين منذ قرون إلى الآن من استعانة مستبديهم بالدين..

وهذا القرآن الكريم مشحون بتعاليم إماتة الاستبداد وإحياء العدل والتساوي حتى في القصص منه.. ـ فلا مجال لِرمْي الإسلامية بتأييد الاستبداد» إلى جانب أفكار أخرى ناقشها الكواكبي واختلف فيها مع ألفيري أيضًا، كمسألة استخدام القوة في مقاومة الاستبداد التي يراها ألفيري ويرفضها الكواكبي.

أما الملاحظات التي تُسجَّل على كتاب «طبائع الاستبداد» فقد أخذ عليه أحمد أمين: «حصْره في دائرة النظريات، وكان الكتاب يكون أوقع في النفس لو ملأه بالشواهد، أو ما رأى وسمع من أحداث وهو معروف بسعة الاطلاع، فلو قرن النظريات بالشواهد لكان كتابه أكثر فائدة وأعم نفعًا».

ولعل الكواكبي كان حَذِرًا من هذه الملاحظة ومتعمدًا اجتنابها حين قال: «وأنا لا أقصد في مباحثي ظالمًا بعينه ولا حكومة أو أمة مخصَّصة» حتى لا يتحدَّد الكتاب بزمان ومكان ويتأطَّر بهما.

لقد الْتفت الكواكبي منذ وقت مبكر إلى مشكلة الاستبداد والاستبداد السياسي، واعتبرها أصل الداء وعلة العلل، والرؤية التي قدَّمها الكواكبي في تحليل وتفكيك هذه المشكلة هي من أنضج الرؤَى التي أنتجها الفكر الإسلامي الحديث، وتحولت إلى رؤية مرجعية في مجالها، ومازالت هذه الرؤية تحتفظ بقيمتها وفاعليتها في الفكر الإسلامي المعاصر.

وكان من المفترض أن يكون لهذه الرؤية تحريض قوي نحو زيادة الاهتمام بهذه المشكلة وبمختلف أدوات البحث ومنهجيات العلوم الاجتماعية والإنسانية؛ لأنها ظاهرة معقدة وخطيرة، ولها رواسب وجذور قديمة، وعلاقات وتأثيرات واسعة وممتدة.

وقد حاول الكواكبي أن يُهوِّل من شدّة هذه المشكلة بتوصيفات خطيرة وكأنه يريد لَفْت النظر لها، كقوله: «أن الاستبداد داء أشدّ وطْأة من الوباء، أكثر هولًا من الحريق، أعظم تخريبًا من السيْل، أذل للنفوس من السؤال. داء إذا نزل بقوم سمعتْ أرواحهم هاتفَ السماء ينادي القضاء القضاء، والأرض تُناجي ربها بكشف البلاء».

ومع ذلك فإن الفكْر الإسلامي المعاصر مازال مقصرًا في مستويات الاهتمام ودرجات الالتفات والنظر لهذه المشكلة المستشرية والمستعصية، حيث لم يُقدِّم معالجات مهمة أو تراكُمات معرفية، فالكتابات الإسلامية في هذا المجال تعد ضئيلة ومحددة، لا تعادل على الإطلاق حجم وخطورة هذه المشكلة.

الكواكبي و«أم القرى»:

وصَف الشيخ رشيد رضا كتاب «أم القرى» في جريدته «المنار» بأنه: «لم يُكْتَبْ مثله في الإصلاح الإسلامي»، واعتبره أحمد أمين بأنه «بحْث مبْتكَر يدل على كِبَر عقله ـ أي الكواكبي ـ وقوة تفكيره، وسعة اطِّلاعه، وصِدْق غِيرَته على العالم الإسلامي».

ولا شك أن هذا الكتاب قد تميز بأُطروحة فريدة من بين مؤلفات المصلحين، وحاول الكواكبي من خلاله أن يقدم تحليلًا شاملًا لمشكلات الأمة، وبمنهجية تستوعب تعدد البيئات والقوميات واللغات وتنوع المجتمعات والثقافات، وصياغة برنامج مشترك للنهضة والتمدن.

ومِن أكثر ما شغل اهتمام الكتاب والباحثين في هذا الكتاب هو معرفة ما إذا كانت هذه الجمعية التي تحدَّث عنها الكواكبي لها أساس من الوجود أم لا؟ ومنشأ هذا الاهتمام هو دِقة الطريقة التي اعتمدها الكواكبي في تصوير وتوصيف اجتماعات هذه الجمعية والتي تُعْطِي كل إيحاءات الحقيقة وبإتقان فني محكم.

فقد تساءل أحمد أمين «هل كانت هذه الجمعية حقيقة، أو هي من نَسْجِ خياله؟ يقول هو ـ أي الكواكبي ـ إن لها أصلًا في الحقيقة، وأن الخيال تمَّمها فهل هذا صحيح؟ أم هو من قبيل تأييد الخيال كما يفعل كثير من الرُّوائيين؟».

وقد رجَّح أحمد أمين الرأي الثاني. وهذا ما يؤكده ويقطع به حفيده عبد الرحمن الكواكبي الذي اعتنى بتدقيق مؤلفات جَدِّه، فقد نوَّه في تقديم كتبه بعد مراجعة وتدقيق كتاب «أم القرى» بقوله «ولما كان السيد الفراتي[يقصد الكواكبي] لم يغادر حلب خلال مقامه فيها إلا إلى إسطنبول، ولم يَقُمْ بجولاته إلى العالم الإسلامي إلا بعد رحيله إلى مصر، فإن المؤتمر الذي عُقِد في مكة، والذي يدور عليه موضوع الكتاب، إنما هو مؤتمر تخيَّله المؤلف ليعرض فيه آراءه الإصلاحية في قالب جذَّاب يسْتهوي النفوس».

مع ذلك هناك من اعتقد بأن هذه الجمعية ليست مجرد رواية مختلقة أو محاورات متخيلة، ويذهب إلى هذا الرأي المفكر المصري د.محمد عمارة الذي يؤكده ويقطع به، ويستشهد بما نقله رشيد رضا عن كلام الكواكبي له بأن لهذه الجمعية أصلًا.

وهناك من الباحثين من لا يستبعد وجود تلك الجمعية وأن يكون السيد جمال الدين الأفغاني هو مُنشؤها، بمراعاة أن منهج الجمعية كان قائمًا على أساس تناسي الاختلافات المذهبية بين السنة والشيعة، وهو منهج مشابه لدعوة جمال الدين».

وهناك من يرى أن الكواكبي أراد أن يلْفِت إلى حاجة الأمة إلى مثل هذه الجمعية وضرورة السعي نحو تكوينها، ولعله كان يحاول النهوض بجمعية بهذه الصورة والكيفية.

ومن المحتمل أيضًا أن رحلته الطويلة إلى إفريقيا وشرق آسيا تأتي في هذا النطاق تحديدًا، أي لتكوين المعرفة بالعالم الإسلامي والتأكيد على ضرورة قيام جمعية تتبنَّى مشروع النهضة الإسلامية في الأمة. وبالتالي فإن الغاية من كتابه «أم القرى» هو تكوين صورة واكتشاف المثال وبلورة نموذج للقياس عليه.

إلى جانب هذا التفسير هناك بعض الحقائق المهمة التي يكشف عنها هذا الكتاب، وهي:

١- إن المشكلة التي تعاني منها الأمة هي مشكلة عامة وشاملة، أو كما وصفها الكواكبي على لسان الأستاذ الرئيس في الاجتماع الثاني بالفتور العام أي «أن هذا الفتور شامل لكل أعضاء الجسم الإسلامي، فيناسب أن يُوصف بالعام، وربما يتوقف الفكر في الوهلة الأولى عند الحكم بأن الفتور عام يشمل كافة المسلمين، ولكن بعد التدقيق والاستقراء نجده شاملًا للجميع في مشارق الأرض ومغاربه».

الأمر الذي يتطلب تكوين المعرفة بهذه المشكلة العامة أو الفتور العام في الأمة وتشخيص هذا الفتور وتحديد مسبباته وأعراضه وتداعياته ومفاعيله، وكيف يظهر ويتطور ويؤثِّر في المجتمعات الإسلامية، وضرورة أن يعرف الجميع مشكلة الجميع.

وقد حدَّد الكواكبي هذه المشكلات واعتبر: «أن هذا الفتور المبحوث فيه ناشئ عن مجموع أسباب كثيرة مشتركة فيه، لا عن سبب واحد أو أسباب قلائل تمكن

مقاومتها بسهولة وهذه الأسباب منها أصول، ومنها فروع لها حكم الأصول، وكلها ترجع إلى ثلاثة أنواع، وهي أسباب دينية، وأسباب سياسية، وأسباب أخلاقية».

٢ـ إن الأمة بحاجة إلى اجتماع عام يضمُّ أهل الحل والعَقْد ومن كل الملل والنحل، للتداول في قضايا الأمة العامة ومشكلاتها الكبرى وكيفية النهوض بها واكتشاف طريق المستقبل والمدنية. الاجتماع الذي يفترض فيه أن يتعالى عن الخلافات المذهبية، ويتخطَّى إشكاليات ورواسب الماضي، ويتجاوز خطوط الانقسام بكافة صورها، وعقلية التصنيف بجميع أنماطها. ويُرسِّخ من جهة أخرى المشتركات العامة، والتوافقات الكلية، والتفاهمات المتحدة، وينطلق من رؤية جديدة لمفهوم الأمة والمستقبل.

٣ـ لكي تتغلب الأمة على هذا الفتور العام وتغير من أوضاعها ومن موقعها في هذا العالم فهي بحاجة إلى نهضة في كل أجزائها وأطرافها، وفي كل مِلَلها ونِحَلِها. نهضة عامة وشاملة يشترك فيها الجميع، ويتحمل مسؤوليتها الجميع، ويتشاور ويتفق عليها الجميع.

٤ـ هذه النهضة تتطلب الاتفاق على برنامج عام يشترك الجميع في بلْوَرة تصوراته ومكوناته وعناصره، وصياغة ملامحه ومرتكزاته ومنطلقاته. وضرورة أن تكون هناك جمعية تعمل على تحريك وتطبيق هذا البرنامج ومتابعة مقرراته وتوصياته في سبيل تحقيق النهضة الإسلامية.

وقد حدَّد الكواكبي العناصر العامة والأساسية لمثل هذا البرنامج وهي حسب رؤيته التي حدَّدها في النقاط التالية:

- المسلمون في حالة فتور مُسْتحكِم عام.

- يجب تدارك هذا الفتور سريعًا، وإلا فتَنْحَلّ عصبيتهم كليًّا.
- سبب الفتور تهاون الحكام، ثم العلماء، ثم الأمراء.
- جرثومة الداء: الجهل المطلق.
- أضر فروع الجهل: الجهل في الدين.
- الدواء هو: أولًا تنوير الأفكار بالتعليم، ثانيًا إيجاد شَوْقٍ للترقِّي في رؤوس الناشِئة.
- وسيلة المداواة عقْدُ الجمعيات التعليمية القانونية.
- المكلفون بالتدبير هم حكماء ونُجباء الأمة من الأعيان والعلماء.
- الكفاءة لإزالة الفتور بالتدريج موجودة في العرب خاصة.
- يلزم تشكيل جمعية ذات مكانة ونفوذ في دائرة القانون.

لقد وصف الكواكبي مشكلة الأمة بالفُتور العام، وقبله وصف الشيخ محمد عبده هذه المشكلة بالجمود واعتبرها علة تزول. ولعل الكواكبي أراد أن يبعث الأمل في إمكانية التغلب على هذه المشكلة والنهوض بالأمة نحو المدنية، وقد قال على لسان الأستاذ الرئيس في كلمة افتتاح الاجتماع الأول: «إنه ينبغي أن لا يُهولَنا ما ينبسط في جمعيتنا من تفاقم أسباب الضعف والفتور كي لا نيأس من روح الله، وأن لا نتوهم الإصابة في قول من قال إننا أمة ميتة فلا تُرجَى حياتنا، كما لا إصابة في قول من قال إذا نزل الضعف في دولة أو أمة لا يرتفع، فهذه الرومان واليونان والأمريكان والطليان واليابان وغيرها، كلها أمم أمثالنا استرجعت نشأتها بعد تمام الضعف وفقْدِ كل اللوازم الأدبية للحياة السياسية.. ثم أيقنوا أن الأمر ميسور، وظواهر الأسباب ودلائل الأقدار مبشرة أن الزمان قد استدار ونشأ في الأمة أنْجاب أحرار وحكماء أبرار»..

وبعد قرْن على غياب الكواكبي من الصعب القول بأن مشكلة الأمة هي مجرد فتور عام، بل هي أعمق من ذلك بكثير فهي مشكلة حضارية وليست مجرد فتور عام.

الكواكبي والعروبة

لقد حاولتْ بعض الكتابات العربية أن تُصوِّر أفكار الكواكبي على أنها البدايات الأُولى والحقيقية والناضجة لانبعاث القومية العربية والفكر القومي العربي. وأصحاب هذا الاتجاه يرون أن الكواكبي دعا في كتابيه «طبائع الاستبداد» و«أم القرى» إلى أن يتولَّى العرب إدارة بلادهم، وإلى نزْع الخلافة من الأتراك وإعادتها إلى العرب .

ومن أصحاب هذا الاتجاه د.محمد عمارة الذي يعتبر أفكار الكواكبي أنضج بناء فكْري شهده تطور الفكر القومي عند العرب حتى ذلك الحين، والبناء الأول في هذا المجال، حيث اكتملت لديه عناصر النظرة المتكاملة.. وأن نظرية الكواكبي في العروبة والقومية إنما تقف في مقدمة الأبنية الفكرية، والتي هي من تجديداته وإبداعاته.

ويعتقد (عمارة) بأن الذين أخطأوا في فهْم موقف الكواكبي من قضية العروبة إنما خلطوا وجهة نظره فيها بحديثه عن الدين الإسلامي، والروابط الروحية التي تربط بين المسلمين.

ومصدر هذه الأخطاء حسب رأي (عمارة) هو كتاب «أم القرَى» وهؤلاء إما أنهم لم يتعمقوا في دراسة هذا الكتاب، أو أنهم درسوه دون أن يتعمقوا الفروق الدقيقة والحاسمة بين عدد من المصطلحات والأسماء التي اشتمل عليها الكتاب.

والنتيجة التي يريد عمارة الوصول إليها هي تخطئة الذين صوَّروا الكواكبي على أنه داعية خلافة إسلامية أو جامعة إسلامية، أو يدعو إلى دولة تقوم على العقيدة الدينية. وهناك من يرى بأن الكواكبي مثَّل حلقة الوصْل بين حركة

الإصلاح الإسلامي وبين الحركة القومية والفكر القومي. هذا النمط من القراءات لأفكار الكواكبي فيه قدر من النزعة التوظيفية التي لا ضرورة لها، لأن من الواضح على كتاب «أم القرى» إنه يدور في إطار مفهوم الجامعة الإسلامية مع إعطاء العرب موقع الزعامة في هذه الجامعة.

وحتى هذه الزعامة للعرب لا يربطها الكواكبي بمنطلقات عِرْقية أو قومية، وإنما بخلْفيات واعتبارات دينية. وحتى اللغة العربية لا ينظر الكواكبي لها باعتبارات قومية وإنما باعتبارات الدين لكونها لغة القرآن الكريم.

يُضاف إلى ذلك أن الفكر القومي العربي كما تحدَّد في مساراته الفكرية وبالصورة التي وصل إليها، يُلاحظ عليه أنه تحوَّل من المرجعية الإسلامية التي كان يمثلها الكواكبي إلى المرجعية العلمانية التي مثَّلها نجيب عازوري وساطع الحصري لاحقًا. التحول الذي ترتب عليه قطيعة فكرية بين حركة الإصلاح الإسلامي ومرجعيتها الفكرية وبين الفكر القومي العربي ومرجعيته الفكرية.

مقارنة بين «الطبائع» و«أم القرى»:

هناك مقولة جاءت في سياق تحليل العلاقة بين كتابيْ «طبائع الاستبداد» و«أم القرى»، واللافت في هذه المقولة أنها تكررت بتمامها عند ثلاثة من الكُتَّاب المصريين في أزمنة مختلفة لكنها ليست متباعدة.

ومن حيث الترتيب الزمني فإن أقْدَم هؤلاء هو أحمد أمين الذي اعتبر أن كتاب «طبائع الاستبداد» هو في نقْد الحكومات الإسلامية، و«أم القرى» هو في نقْد الشعوب الإسلامية .

هذه المقولة ذكرها بتمامها عبد الباسط محمد حسن في كتابه «جمال الدين الأفغاني وأثره في العالم الإسلامي الحديث». وأعاد تكرارها عاطف العراقي في

كتابه «العقل والتنوير». وهذا التكرارِ ليس بالتأكيد هو من محْض الصدْفة، ولا هو نوع من التناص أو التواتر.

وليس القصد من ذلك هو الكشف عن هذا التكرار، وإنما القصد هو مناقشة هذه المقولة. ومن حيث الإجمال يمكن القول بصحة هذه المقولة من جهة التوصيف العام، لكنه ليس هو التوصيف الأدق لأن هناك اختلافا أو تمايزا في المنطق واللغة والغاية بين الكتابين. فالمنطق العام لكتاب «طبائع الاستبداد» هو البحث في تحليل أصل المشكلة، أما كتاب «أم القرى» فمنطقه العام هو البحث عن حل المشكلة.

الكتاب الأول جاء بلسان الفرد والكتاب الثاني جاء بلسان الجماعة. الأول أقرب إلى عالم السياسة والثاني أقرب إلى عالم الثقافة والاجتماع. الأول كتب بعقلية الثائر والثاني كتب بعقلية المفكر. الأول يصنع معارضة ورفضًا، والثاني يصنع رؤية وتصورًا ومنهجًا.

من المفارقات التي تظهر بين كتابيْ «طبائع الاستبداد» و«أم القرى» وتحتاج إلى تفسير هي طبيعة الموقف من السياسة. فطبائع الاستبداد كتاب في السياسة بامتياز، وخطاب في المعارضة السياسية بامتياز أيضًا.

وقد صنَّف الكواكبي هذا الكتاب منذ البداية على حقْل السياسة بشكل واضح وصريح، وقدم تعريفًا لعلم السياسة رَبَطه بالاستبداد، وحسب قوله: «لَّما كان تعريف علْم السياسة بأنه هو إدارة الشؤون المشتركة بمقتضى الحكمة، يكون بالطبع أول مباحث السياسة وأهمها بحْث الاستبداد، أي التصرف في الشؤون المشتركة بمقتضى الهوى».

هذا الاقتحام في السياسة ومن موقف المعارضة للاستبداد، يفارقه ما دعا إليه في كتاب «أم القرى» من عدم التدخُّل في السياسة. فقد جاء في قانون الجمعية التي

اقترحها ما نصه: «الجمعية لا تتدخل في الشؤون السياسية مطلقًا فيما عدا إرشادات وإخطارات بمسائل أصول التعليم وتعميمه».

وفي مكان آخر من الكتاب يقول أيضًا: «من المأمول أن تكون الحكومات الإسلامية راضية بهذه الجمعية حامية لها ولو بعد حين، لأن وظيفتها الأساسية أن تنهض بالأمة من وهدة الجهالة وترقَى بها في معارج المعارف، متباعدة عن كل صبغة سياسية».

وذلك رغم أن الكتاب لا يخلو من إشارات ومضامين سياسية ففي أكثر من مكان يؤكد الكواكبي ضرورة النظر السياسي لمشكلات الأمة، ففي حديثه عن أمراض الأمة يقول بضرورة أن: «يتشخص المرض أو الأمراض المشتركة تشخيصًا سياسيًّا». ويقول: «لنبدأ بتشخيص داء الفُتور المستولي على الأمة تشخيصًا سياسيًا مُدقِّقًا».

ويمكن أن نُفسِّر هذه المفارقة بأن الكواكبي في «طبائع الاستبداد» تحدَّث عن رؤيته بما يراها هو، واعتبر علة العلل في الاستبداد السياسي، أما في كتاب «أم القرى» فقد تحدث عن رؤيته لكن بما تراها الأمة، ووصف المشكلة بالفتور العام. ولأنه كان يتطلع لتأسيس جمعية إسلامية عامة تضم مختلف الملل والنحل الإسلامية، فأراد لهذه الجمعية أن تكون مستقلة وغير متحيِّزة لا لمذهب ولا لحكومة ولا لمنطقة، وإنما معبرة عن الجامعة الإسلامية.

يتفاوت تقدير الباحثين لكتابيْ الكواكبي، فدعاة النهضة الدينية والقومية يُعطون أم القرى الأولية، وغيرهم من أنصار الديمقراطية والحرية يعطون الأولية لـ«طبائع الاستبداد»، كالعقاد مثلًا الذي يقول:«طبائع الاستبداد هو آية الكواكبي».

الإ ـار العام لفكر الكواكبي

يمكن إيجاز المُحصِّلة الفكرية للكواكبي ضمن النقاط التالية :

أ- فكرة الاستبداد: وفي هذا الموضوع يوضِّح الكواكبي أن الحكومة يجب أن تكون منتخبة ملزمة بقانون، يراقبها الشعب وينسق بين هيئاتها، كي لا تتحول إلى مستبدة، ويركِّز على ضرورة الفصْل بين التشريع والتنفيذ مع التنسيق بينهما. والاستبداد مرفوض دينيًا وعقليًا، وتجب إزالته.

ب- يُفرِّق الكواكبي بين العقيدة الدينية المستندة إلى القرآن، وبين الاجتهادات التي تشكل مجمل التراث. وهو في أفكاره يتضح طابعه الأخلاقي المستند إلى الدين والعلم والتربية.

ج- للعقل منزلة كبرى في فِكْر الكواكبي. وهو يؤكِّد أن الإسلام بُنِيَ على العقل، ويؤكد أنه ضد النقل الأعمى، وهو يدعو إلى التوسُّع بالتعليم وتوعية الرأي العام وبثّ الحماسة في النفوس. في إطار عقلاني يُذكِّرنا بابن خلدون.

د- يدعو الكواكبي إلى حكومة دستورية محدَّدة السلطات تحترم حرية الفرد. ويؤكد أن كل حكومة لا تخضع لمراقبة سوف تتحول إلى مستبدة.

هـ- يُفرِّق الكواكبي بين الإسلام والإسلامية. والإسلامية هي المنهج المشتق من الإسلام وهي منطلقه في منهجه الفكري.

و- الكواكبي يدعو إلى ربْط العلم بالعمل. وهو متفائل بالمستقبل. إنسانيُّ النزْعة.

ز- الكواكبي مفكِّر عربي النزعة ضمن إطار إسلامي منهجي.

ح - تحتل القضايا الاجتماعية والتربوية مكانة بارزة في فكر الكواكبي، وهو يضعها في سياق صلاتها بالقضايا السياسية والاقتصادية والدينية ومن هذه القضايا:

المرأة – التعليم – الأخلاق – مستوى المعيشة.

الإصلاح الاجتماعي والتربوي:

يمكننا تلمُّس جوانب الدعوة إلى الإصلاح في الميدان الاجتماعي والتربوي في سائر كتابات الكواكبي. كما يمكننا ملاحظة أنها متداخلة مع دعوته إلى الإصلاح السياسي والديني:

ولقد أفرد الكواكبي في كتابه طبائع الاستبداد، فصلين:

الأول بعنوان: الاستبداد والأخلاق .

والثاني بعنوان: الاستبداد والتربية .

كما ناقش موضوع الإصلاح الاجتماعي والتربوي من خلال الحوارات التي ضمها كتابه «أم القرى». ووردت على ألْسن المشاركين في ذلك المؤتمر، وبخاصة السيد الفراتي الذي هو الكواكبي نفسه، وحواراته مع العارف التاتاري والفقيه الأفغاني والسعيد الإنجليزي.

ثم في قانون جمعية تعليم الموحدين الذي ختم به كتابه «أم القرى» حيث ركَّز على موضوع الإصلاح الاجتماعي والتربوي في مقدمة القانون .

ودعونا نتتبع رحلة الكواكبي الإصلاحية في ميادينها الاجتماعية والتربوية:

أولًا :في ميدان الأخلاق:

يقول الكواكبي في طبائع الاستبداد:

«الاستبداد: يتصرف في أكثر الأميال الطبيعية والأخلاق الحسنة، فيضعفها أو يفسدها أو يمحوها فيجعل الإنسان يكفر بِنِعَم مولاه، لأنه لم يملكها حق الملك ليحمده عليها حق الحمد، ويجعله حاقدًا على قومه لأنهم عَوْن لبلاء الاستبداد عليه، وفاقدًا حب وطنه، لأنه غير آمن على الاستقرار فيه ويود لو انتقل منه،

وضعيف الحب لعائلته، لأنه ليس مطمئنًا على دوام علاقته معها، ومختل الثقة في صداقة أحبابه. لأنه يعلم منهم أنهم مثله لا يملكون التكافؤ، وقد يضطرون لإضرار صديقهم بل وقَتْلِهِ وهم باكون.

أسيرُ الاستبداد لا يملك شيئًا ليحرص على حِفْظه، لأنه لا يملك مالًا غير معرض للسلْب ولا شرفًا غير معرَّض للإهانة. ولا يملك الجاهل منه آمالًا مستقبلة ليتبعها ويشقى كما يشقى العاقل في سبيلها.

الاستبداد يسْلُب الراحة الفكرية فيُضْني الأجسام فوق ضَناها بالشقاء، فتمرض العقول ويختل الشعور على درجات متفاوتة في الناس. والعوام الذين هم قليلو المادة في الأصل قد يصل مرضهم العقلي إلى درجة قريبة من عدم التمييز بين الخير والشر، في كل ما ليس من ضروريات حياتهم الحيوانية، ويصل تسفُّل إدراكهم إلى أن مجرد آثار الأبَّهَة والعظَمة التي يرونها على المستبد وأعوانه تبهر أبصارهم، ومجرد سماع ألفاظ التفخيم في وصفه وحكايات قوته وصولته يزيغ أفكارهم، فيرون ويفكرون أن الدواء في الداء، فينصاعون بين يدي الاستبداد انصياع الغنم بين أيدي الذئاب حيث هي تجري على قدميها جاهدة إلى مقر حتْفها.

لهذا كان الاستبداد يستولي على تلك العقول الضعيفة للعامة فضلًا عن الأجسام فيفسدها كما يريد، ويتغلَّب على تلك الأذهان الضئيلة فيشوِّش فيها الحقائق بل البديهيات كما يهوَى، فيكون مثلهم في انقيادهم الأعمى للاستبداد ومقاومتهم للرشد والإرشاد، مثل تلك الهوام التي تترامى على النار، وكم هي تغالب من يريد حجزها على الهلاك.

ولا غرابة في تأثير ضعْف الأجسام على الضعف في العقول، فإن في المرضَى وخفة عقولهم، وذوي العاهة ونقْص إدراكهم، شاهدًا بَيِّنًا كافيًا يُقاس عليه نقْصُ عقول الأُسَراء البؤساء بالنسبة إلى الأحرار السُّعَداء، كما يظهر الحال أيضًا بأقل

فرق بين الفئتين من الفرق البين في قوة الأجسام وغزارة الدم واستحكام الصحة وجمال الهيئات.

ربما يستريب المطالِع اللبيب الذي لم يتعب فِكْره في درْس طبيعة الاستبداد، من أن الاستبداد المشؤوم كيف يقوم على قلْب الحقائق، مع أنه إذا دقَّق النظر يتجلى له أن الاستبداد يقلب الحقائق في الأذهان: يرى أنه كم مُكِّن بعض القياصرة والملوك الأولين من التلاعب بالأديان تأييدًا لاستبدادهم فاتبعهم الناس.

ويرى أن الناس وضعوا الحكومات لأجل خِدْمتهم، والاستبداد قلَب الموضوع، فجعل الرعية خادمة للرعاة فقبلوا وقنعوا. ويرى أن الاستبداد استخدم قوة الشعب، وهي هي قوة الحكومة، على مصالحهم لمصالحهم فيرتضوا ويرضخوا. ويرى أنه قد قبل الناس من الاستبداد ما ساقهم إليه من اعتقاد أن طالب الحق فاجر، وتارك حقه مطيع، والمشتكي المتظلِّم مُفْسد، والنبيه المدقق ملحد، والخامل المسكين صالح أمين.

وقد اتبع الناس الاستبداد في تسميته النصح فضولًا، والغيرة عداوة والشهامة عتوًّا، والحمية حماقة، والرحمة مرضًا، كما جاوره على اعتبار أن النفاق سياسة، والتحيُّل كِياسة، والدناءة لُطْف، والنذالة دمَاثة»...

وفي هذا النص للكواكبي يمكننا التوقف عند أبرز نِقاطه وهي:

أ-الاستبداد يُفسد الأخلاق ويمحوها.

ب-الاستبداد يفسد الفكر ويُفقد الإنسانَ القدرة على التمييز بين الخير والشر.

ج-الاستبداد يُعلِّم الناس النفاق وقَلْب الحقائق وتزويرها.

وهذه الآفات الاجتماعية تنعكس نتائجها على مجمل المجتمع، لأن الأخلاق التي تنمو في ظل الاستبداد تكون معاكِسة للفطرة الإنسانية وتفقد المرء ثقته بنفسه، وتُعلِّمه الرياء والخوف والاستكانة.

فالإنسان كالشجرة ينمو وِفْق ما يصادفه من عناية وسُقْيا.

يقول الكواكبي: «الأخلاق أثمار بذرها الوراثة، وتُربتُها التربية، وسُقياها العِلْم، والقائمون عليها هم رجال الحكومة، بناءً عليه؛ تفعل السياسة في أخلاق البشر ما تفعله العناية في إنماء الشجر».

«نعم: الأقوام كالآجام، إن تُرِكَتْ مهملة تزاحمتْ أشجارها وأفلاذُها، وسَقُمَ أكثرها، وتغلَّب قويُّها على ضعيفها فأهلكه، وهذا مثل القبائل المتوحِّشة. وإن صادفت بُسْتانيًّا يهمه بقاؤها وزهوها فدبّرها حسبما تطلبه طباعها، قوِيَتْ وأينعتْ وحسُنتْ ثمارها، وهذا مثل الحكومة العادلة.

وإذا بُلِيتْ ببُسْتانيٍّ جدير بأن يُسمّى حطّابًا لا يعنيه إلا عاجل الاكتساب، أفسدها وخرَّبها، وهذا مثل الحكومة المستبدَّة. ومتى كان الحَطَّاب غريبًا لم يُخْلَق من تراب تلك الديار وليس له فيها فَخَار ولا يلْحقه منها عار، إنّما همّه الحصول على الفائدة العاجلة ولو باقتلاع الأصول، فهناك الطّامة وهناك البوار. فبناءً على هذا المثال، يكون فِعلُ الاستبداد في أخلاق الأمم فِعْلَ ذلك الحطّاب الذي لا يُرجَى منه غير الإفساد.

لا تكون الأخلاق أخلاقًا ما لم تكن ملكة مُطَّرِدة على قانون فِطْري تقتضيه أولًا وظيفة الإنسان نحو نفسه؛ وثانيًا وظيفته نحو عائلته؛ وثالثًا وظيفته نحو قومه؛ ورابعًا وظيفته نحو الإنسانية؛ وهذا القانون هو ما يسمّى عند الناس بالناموس.

ومِنْ أين لأسيرِ الاستبداد أن يكون صاحب ناموس، وهو كالحيوان المملوك العَنان، يُقادُ حيث يُراد، ويعيش كالرِّيش، يهبُّ، حيث يهبُّ الريح، لا نظام ولا إرادة؟ وما هي الإرادة؟ هي أمُّ الأخلاق، هي ما قيل فيها تعظيمًا لشأنها: لو جازت

عبادة غير الله لاختار العقلاء عبادة الإرادة! هي تلك الصفة التي تفصل الحيوان عن النّبات في تعريفه بأنّه متحرك بالإرادة. فالأسير، إذن، دون الحيوان لأنّه يتحرّك بإرادة غيره لا بإرادة نفسه. ولهذا قال الفقهاء: لا نيّة للرقيق في كثير من أحواله، إنما هو تابع لِنيّة مولاه. وقد يُعْذَر الأسير على فساد أخلاقه؛ لأنَّ فاقد الخيار غير مُؤَاخَذ عقلًا وشرعًا.

أسير الاستبداد لا نظام في حياته، فلا نظام في أخلاقه، قد يصبح غَنيًّا فيَضْحَى شجاعًا كريمًا، وقد يُمْسي فقيرًا فيبيتُ جبانًا خَسيسًا، وهكذا كلُّ شؤونه تشبه الفوضى لا ترتيب فيها، فهو يتبعها بلا وجهة. أليس الأسير قد يُرهَق، ويسيء كثيرًا فيُعفى، وقليلًا فيُشنَق، ويجوع يومًا فيُضْوَى، ويخصب يومًا فيُتْخَم، يريد أشياء فيُمنَع، ويأبى شيئًا فيُرغم؟!

وهكذا يعيش كما تقتضيه الصُّدَف أن يعيش، ومن كانت هذه حاله كيف يكون له أخلاق، وإنْ وجد ابتداء يتعذر استمراره عليه؟! ولهذا لا تُجوِّز الحكمة الحُكمَ على الأُسَراء بخيرٍ أو شرّ.

أقلُّ ما يؤثّره الاستبداد في أخلاق الناس، أنَّه يُرغم حتى الأخيار منهم على إِلْفة الرّياء والنفاق ولبئس السيئتين، وإنه يُعِين الأشرار على إجْراء غَيّ نفوسهم آمنين من كلِّ تَبِعة ولو أدبية، فلا اعتراض ولا انتقاد ولا افتضاح، لأنَّ أكثر أعمال الأشرار تبقى مستورة، يلقي عليها الاستبداد رداء خوف الناس من تبعة الشهادة على ذي شرّ وعقبى ذكر الفاجر بما فيه.

ولهذا، شاعت بين الأُسَراء قواعد كثيرة باطلة كقولهم: إذا كان الكلام من فضة فالسكوت من ذهَب، وقولهم: البلاء موكولٌ بالمنطق. وقد تغالَى وُعَّاظُهم في سدِّ أفواههم حتى جعلوا لهم أمثال هذه الأقوال من الحِكَم النبوية، وكم هجوا لهم الهجو والغيبة بلا قيد، فهم يقرؤون: ﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ ويغفلون بقية الآية، وهي: ﴿إِلَّا مَن ظُلِمَ﴾.

ويرى الكواكبي أن الأخلاق الحسنة تأتي بالنهي عن المنكر، ويكون ذلك بالنصيحة والتوبيخ. ولكن أين هم الناصحون، والاستبداد يفرز للوعظ والإرشاد منافقين نالوا الوظيفة بالتملُّق، وبالتالي لا يصدقهم الناس ولا يثقون بهم؟!!

يقول الكواكبي :

«أقوى ضابط للأخلاق النهي عن المنكر بالنصيحة والتوبيخ؛ أي بحرص الأفراد على حراسة نظام الاجتماع، وهذه الوظيفة غير مقدور عليها في عهد الاستبداد لغير ذوي المَنَعة وقليل ما هم، وقليلًا ما يفعلون، وقليلًا ما يفيد نهيهم؛ لأنه لا يمكنهم توجيهه لغير المستضعفين الذين لا يملكون ضررًا ولا نفعًا، بل ولا يملكون من أنفسهم شيئًا، ولأنَّه ينحصر موضوع نهيهم فيما لا تخفى قباحته على أحدٍ من الرّذائل النفسية الشخصية فقط، ومع ذلك فالجسور لا يرى بُدًّا من الاستثناء المخلِّ للقواعد العامة كقوله: السّرقة قبيحة إلا إذا كانت استردادًا منها، والكذب حرام إلا للمظلوم.

والموظَّفون في عهد الاستبداد للوعظ والإرشاد يكونون -مطلقًا- ولا أقول غالبًا، من المنافقين الذين نالوا الوظيفة بالتملُّق، وما أبعد هؤلاء عن التأثير، لأنَّ النصح الذي لا إخلاص فيه هو بذر عقيم لا ينبت، وإنْ نبت كان رياءً كأصله، ثمَّ إنَّ النُّصح لا يفيد شيئًا إذا لم يصادف أذنًا تتطلّب سماعه؛ لأنَّ النصيحة وإن كانت عن إخلاص فهي لا تتجاوز حُكْمَ البذر الحيّ: إنْ أُلْقِيَ في أرضٍ صالحة نبَتْ، وإن أُلقي في أرضٍ قاحلة مات.

أمّا النهي عن المنكرات في الإدارة الحرة، فيمكن لكلِّ غَيورٍ على نظام قومه أن يقوم به بأمانٍ وإخلاص، وأن يُوجِّه سهام قوارِصه على الضعفاء والأقوياء سواء، فلا يخصُّ بها الفقير المجروح الفؤاد، بل تستهدف أيضًا ذوي الشّوكة والعناد. وأنْ

يخوض في كلِّ وادٍ حتى في مواضيع تخفيف الظُّلم ومؤاخذة الحُكَّام، وهذا هو النصح الإنكاري الذي يُعْدي ويُجْدي، والذي أطلق عليه النّبي عليه السلام اسم (الدّين) تعظيمًا لشأنه، فقال: (الدين النصيحة)..».

والخصال عند الكواكبي ثلاثة أنواع :

«الأول: الخصال الحسنة الطبيعية، كالصدق والأمانة والهمّة والمدافعة والرحمة، والقبيحة الطبيعية كالرياء والاعتداء والجبانة والقسوة، وهذا القسم تضافرت عليه كلُّ الطبائع والشرائع.

والنوع الثاني: الخصال الكمالية التي جاءت بها الشرائع الإلهامية، كتحسين الإيثار والعفو وتقبيح الزنا والطمع؛ وهذا القسم يوجد فيه ما لا تُدرك كلُّ العقول حكمته أو حكمة تعميمه، فيمثّله المنتسبون للدّين احترامًا أو خوفًا.

والنوع الثالث: الخصال الاعتيادية، وهي ما يكتسبه الإنسان بالوراثة أو بالتربية أو بالإلْفة، فيستحسن أو يستقبح على حسب أمياله ما لم يُضطرَّ إلى التحوُّل عنها.

ثمَّ إنَّ التدقيق يفيد أنَّ الأقسام تشتبك وتشترك ويُؤثِّر بعضها في بعض، فيصير مجموعها تحت تأثير الإلفة المديدة، بحيث كلُّ خصلة منها ترسخ أو تتزلزل، حسبما يصادفها من استمرار الإلفة أو انقطاعها.

فالقاتل –مثلًا– لا يستنكر شنيعته في المرَّة الثانية كما استقبحها في نفسه في الأُولَى، وهكذا يخفُّ الجُرْم في وهمه، حتى يصل إلى درجة التلذذ بالقتل، كأنّه حقٌّ طبيعي له، كما هي حالة الجبّارين وغالب السياسيين، الذين لا ترتجُّ في أفئدتهم عاطفة رحمة عند قتلهم أفرادًا أو أُممًا لغاياتهم السياسية، إهراقًا بالسيف أو إزهاقًا بالقلم، ولا فرق بين القتل بقطع الأوداج وبين الإماتة بإيراث الشقاء غير التسريع والإبطاء.

أسيرُ الاستبداد العريق فيه يرث شرَّ الخصال، ويتربَّى على أشرِّها، ولا بدَّ أن يصحبه بعضها مدى العمر. بناءً عليه؛ ما أبعده عن خصال الكمال! ويكفيه مفسدةً لكلِّ الخصال الطبيعية والشرعية والاعتيادية تلبسه بالرّياء اضطرارًا حتى لا يألفه ويصير مَلَكةً فيه، فيفقد بسبب ثقته نفسه بنفسه، لأنَّه لا يجد خُلُقًا مستقرًّا فيه، فلا يمكنه، مثلًا، أن يجزم بأمانته، أو يضمن ثباته على أمرٍ من الأمور، فيعيش سيئ الظنّ في حقِّ ذاته مترددًا في أعماله، لوّامًا نفسه على إهماله شؤونه، شاعرًا بفتور همَّته ونقْصِ مروءته، ويبقى طول عمره جاهلًا مَوْرِد هذا الخلل، فيتَّهم الخالق،والخالقُ -جلَّ شأنه- لم يُنقصه شيئًا. ويتَّهم تارةً دينه، وتارةً تربيته، وتارةً زمانه، وتارةً قومه، والحقيقة بعيدة عن كلِّ ذلك، وما الحقيقة غير أنّه خُلق حرًّا فأُسِر.

أجمع الأخلاقيون على أنَّ المتلبِّس بشائبةٍ من أصول القبائح الخُلُقِية لا يمكنه أن يقطع بسلامة غيره منها، وهذا معنى: «إذا ساءت فِعال المرء ساءتْ ظنونه».

فالمرائي -مثلًا- ليس من شأنه أن يظنَّ البراءة في غيره من شائبة الرياء، إلاّ إذا بَعُدَ تشابه النشأة بينهما بُعْدًا كبيرًا، كأن يكون بينهما مغايرة في الجنس أو الدّين أو تفاوت مهمٌّ في المنزلة كصعلوك وأمير كبير.

ومثال ذلك الشرقيّ الخائن، يأمن الإفرنجي في معاملته، ويثق بوزْنه وحُسْبانه، ولا يأمن ويثق بابن جِلْدتِه. وكذلك الإفرنجي الخائن قد يأمن الشرقي، ولا يأمن مطلقًا ابن جنسه. وهذا الحكم صادق على عكس القضية أيضًا؛ أي أنَّ الأمين يظنُّ الناس أمناء خصوصًا أشباهه في النشأة، وهذا معنى «الكريم يُخْدَع»، وكم يذهل الأمين في نفسه عن اتِّباع حكمة الحزْم في إساءة الظنِّ في مواقعه اللازمة.

إذا علمنا أنَّ من طبيعة الاستبداد أُلْفَة الناس بعض الأخلاق الرديئة، وأنَّ منها ما يُضْعِف الثّقة بالنفس، علمنا سبب قلة أهل العمل وأهل العزائم في السّراء،

وعلمنا أيضًا حكمة فقد الأُسراء ثقتهم بعضهم ببعض. فينتج من ذلك أنَّ الأُسَراء محرومون – طبعًا- من ثمرة الاشتراك في أعمال الحياة، يعيشون مساكين بائسين متواكلين متخاذلين متقاعسين متفاشلين، والعاقل الحكيم لا يلومهم، بل يشفق عليهم، ويلتمس لهم مخرجًا. ويتبع أثر أحكم الحكماء القائل: ربِّ ارحم قومي، فإنهم لا يعلمون، اللهم اهدِ قومي، فإنهم لا يعلمون..».

وإذا كان فساد الأخلاق ناجمًا عن الاستبداد. فكيف يرى الكواكبي الطريق إلى إصلاح الأخلاق الذي إذا حصل صلح معه المجتمع.

إنه يرسم لذلك مبادئ هي:

أ-وجوب التمسك بالدين وعدم التهاون به.

ب-الحكمة البالغة والعزم القوي.

ج- تقوية حس الإيمان.

د-تنوير العقول بمبادئ الحكمة.

هـ- إطلاق زِمام العقول ليملك الإنسان إرادته ويقرر عمله.

ويشرح الكواكبي ذلك في كتابه طبائع الاستبداد فيقول :

«وقد اتَّفق الحكماء الذين أكرمهم الله تعالى بوظيفة الأخذ بِيَدِ الأمم في بحثهم عن المهلكات والمنجيات، على أنَّ فساد الأخلاق يُخرج الأمم عن أن تكون قابلة للخطاب، وأنَّ معاناة إصلاح الأخلاق من أصعب الأمور وأحوجها إلى الحكمة البالغة والعزم القوي، وذكروا أنَّ فساد الأخلاق يعمُّ المستبدَّ وأعوانه وعُمَّاله، ثمَّ يدخل بالعدْوى إلى كلّ البيوت، ولا سيما بيوت الطبقات العُليا التي تتمثَّل بها السُّفْلَى. وهكذا يفشو الفساد، وتُمْسي الأمة يبكيها المحِبُّ ويشمت بها العدو، وتبيت وداؤها عَيَّاءً يتعاصى على الدواء.

وقد سلك الأنبياء عليهم السلام، في إنقاذ الأمم من فساد الأخلاق، مسلك الابتداء أولًا بفكِّ العقول من تعظيم غير الله والإذعان لسواه. وذلك بتقوية حسن الإيمان المفطور عليه وجْدان كلُّ إنسان، ثمَّ جهدوا في تنوير العقول بمبادئ الحكمة، وتعريف الإنسان كيف يملك إرادته؛ أيْ حريته في أفكاره، واختياره في أعماله، وبذلك هدموا حصون الاستبداد وسدّوا منابع الفساد.

ثمَّ بعد إطلاق زِمام العقول، صاروا ينظرون إلى الإنسان بأنَّه مكلَّف بقانون الإنسانية، ومطالب بحسن الأخلاق، فيعلمونه ذلك بأساليب التعليم المقنع وبثّ التربية التهذيبية.».

ويأتي الكواكبي بمقارنة طريفة بين مفهوم الأخلاق عند الإنسان الغربي من جهة والإنسان الشرقي من جهة ثانية. فيرى أن الأول مادي جافٍ، والثاني عاطفي وجْداني :

«الغربي: ماديُّ الحياة، قوي النفس، شديد المعاملة، حريص على الاستئثار، حريص على الانتقام، كأنه لم يبق عنده شيء من المبادئ العالية والعواطف الشريفة التي نقلتْها له مسيحية الشرق. فالجِرْماني مثلًا: جافُّ الطبع، يرى أن العضو الضعيف من البشر يستحق الموت، ويرى كل فضيلة في القوة، وكل القوة في المال، فهو يحب العلم، ولكن لأجل المال، ويحب المجد ولكن لأجل المال. وهذا اللاتيني مطبوع على العُجْب والطيْش، يرى العقل في الإطلاق، والحياة في خلع الحياء، والشرف في الترف، والكِياسة في الكسب، والعِزّ في الغلبة، واللذة في المائدة والفِراش.

أما أهل الشرق فهم أدَبيُّون، ويغلب عليهم ضَعْفُ القلب وسلطان الحب، والإصغاء للوجْدان، والميل للرحمة ولو في غير موقعها، واللُّطْف ولو مع الخصم.

ويرون العز في الفُتُوَّة والمروءة، والغِنَى في القناعة والفضيلة، والراحة في الأُنْس والسكينة، واللذة في الكرم والتحبب، وهم يغضبون ولكن للدين فقط، ويغارون ولكن على العِرْض فقط..».

ويختم الكواكبي حديثه عن إصلاح الأخلاق بنقطة بالغة الأهمية، هي أن التمسك بالدين لا يعني – فقط – العبادة إذا كانت قولًا بلا فعل. فالأمة التي أعمى الاستبداد بصيرتها صارت لا تعرف من أمور الدين إلا العبادة ...

«والأمر الغريب أنَّ كلَّ الأمم المُنْحطَّة من جميع الأديان تحصر بَلِيَّة انحطاطها السياسي في تهاونها بأمور دينها، ولا ترجو تحسين حالتها الاجتماعية إلا بالتمسُّك بعروة الدين تمسكًا مكينًا، ويريدون بالدين العبادة، ولنِعم الاعتقاد لو كان يفيد شيئًا، لكنه لا يفيد أبدًا؛ لأنه قولٌ لا يمكن أن يكون وراءه فعل، وذلك أنَّ الدين بَذرٌ جيد لا شبهة فيه، فإذا صدقت مَغْرسًا طَيِّبًا نبَتَ ونَما، وإنْ صادف أرضًا قاحلة مات وفات، أو أرضًا مِغْراقًا هافَ الاستبداد بصرها وبصيرتها، وأفسد أخلاقها ودينها، حتى صارت لا تعرف للدين معنى غير العبادة والنسك اللذين زيادتهما عن حدِّهما المشروع أضرُّ على الأمة من نقصهما كما هو مشاهد في المُتَنسِّكِين.

نعم: الدين يُفيد الترقِّي الاجتماعي إذا صادف أخلاقًا فطرية لم تفسد، فينهض بها كما نهضت الإسلامية بالعرب، تلك النهضة التي نتطلبها منذ ألف عام عبثًا.».

ويتناول الكواكبي الموضوع نفسه في «أم القرى» في سياق حديثه عن مجمل أسباب الفتور. وذلك في الاجتماع السابع من مؤتمر أم القرى المنعقد يوم الأربعاء ٢٤ ذي القعدة ١٣١٦ هـ.

ويشرح السيد الفُراتي (عبدالرحمن الكواكبي) الأسباب الأخلاقية للفتور الذي يعاني منه المسلمون.

ويُلخِّص هذه الأسباب فيما يلي :

١ـ الاستغراق في الجهل والارتياح إليه.

٢ـ استيلاء اليأس من اللحاق بالفائزين في الدين والدنيا.

٣ـ الإخلاد إلى الخمول ترويحًا للنفس.

٤ـ فَقْد التناصح.

٥ـ انحلال الرابطة الدينية الاحتسابية.

٦ـ فساد التعليم والوعظ والخطابة والإرشاد.

٧ ـ فَقْدُ التربية الدينية والأخلاقية.

٨ ـ فقْدُ قوة الجمعيات وثمرة دوام قيامها.

٩ ـ فَقْد قوة المالية الاشتراكية بسبب التهاون في الزكاة.

١٠ ـ تَرْكُ الأعمال بسبب ضعف الآمال.

١١ ـ إهمال طلب الحقوق العامة جُبْنًا وخوفًا من التخاذل.

١٢ ـ غلبة التخلقُّ بالتملُّق تزلُّفًا وصَغَارًا.

١٣ ـ تفضيل الارتزاق بالجندية والخدمة الأميرية على الصنائع.

١٤ ـ توَهُّم أن علم الدين قائم في العمائم وفي كل ما سطر في كتاب.

١٥ ـ معاداة العلوم العالية ارتياحًا للجهالة والسفالة.

١٦ ـ التباعد بين المكاشفات والمفاوضات في الأمور العامة.

١٧ ـ الذهول عن تطرق الشرك وشآمته.

ويشرح السيد الفراتي (عبدالرحمن الكواكبي) أن هذه الأسباب موجودة بصورة خاصة في السلطنة العثمانية بسبب الخلل في السياسة والإدارة. وهي موجودة كذلك في بقية الممالك الإسلامية بشكل يقل أو يكثر.

أمَّا في الاجتماع الثامن الذي عُقِد في اليوم التالي، أي يوم الخميس ٢٥ ذي القعدة ١٣١٦ هـ. فقد أوضح السيد الفراتي (الكواكبي) أن أعظم أسباب الفتور في المسلمين إنما هي غَرارتهم – أي غفلتهم – ويُمثِّل لذلك ببعض الأقوال الخاطئة السائرة على الألسن، مِن مثل: «المؤمن مُصاب» «إن الله إذا أحب عبده ابتلاه» «إن أكثر أهل الجنة البُلْه»..

ويشرح الكواكبي هذه الغَرَارة فيقول:

«ومن (الغَرَارة) توهمنا أن شؤون الحياة سهلة بسيطة ، فنظنّ أن العلم بالشيء إجمالًا ونظريًا بدون تمرُّن عليه يكفي للعمل به ، فيقدِّم أحدنا مثلًا على الإمارة بمجرد نظره في نفسه أنه عاقل مدبّر قبل أن يعرف ما هي الإدارة علمًا ، ويتمرّن عليها عملًا ، ويكتسب فيها شهرة تعينه على القيام بها.

ويقدّم الآخر منّا على الاحتراف مثلًا بيع الماء للشرب ، بمجرّد ظنّه أنّ هذه الحرفة عبارة عن حمْله قِرْبة وقَدَحًا وتعرُّضه للناس في مجتمعاتهم ، ولا يرى لزومًا لِتلَقِّي وسائل إتقان ذلك عمّن يرشده مثلًا إلى ضرورة النظافة له في قربته وقدحه وظواهر هيئته ولباسه.

وكيف يحفظ برودة مائه وكيف يَسْتبرقه ويوهم بصفائه ليُشَهّي به، ومتى يغلب العطش ليقصد المجتمعات ، ويتحرّى منها الخالية له عن المزاحين، وكيف يتزلّف للناس ويوهم بلسان حاله أنه مُحْترف بالإسقاء كَفًّا لنفسه عن السؤال. إلى نحو هذا من دقائق إتقان الصنْعة المتوقف عليها نجاحه فيها ، وإن كانت صنعته بسيطة حقيرة .

فالعاقل من يتخصص بعمل واحد ثم يجاوب نفسه عن كل شيء غيره «لا أدري ولا أقْدِر» ، لأن الأول يتكلف أعمالًا لا يحسنها فتفسد عليه كلها ، والثّاني يتحرى لكل عمل لزم له من يحسنه فتنتظم أموره ويهنأ عيشه. ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه..

ومن (الغَرَارة) ظنُّنا أن الكِياسة في «أدْرَي وأقْـدِر» جوابًـا للـنفس في مقاصـد كثيرة شتّى. والحقيقة أن الكياسة لا تتحقق في الإنسان إلاّ في فن واحد فقط يتولَّـع فيه فيُتْقِنه حق الإتقان كما قال تعالى .

فالمَلِك- مثلًا- وظيفته العامة وانتخاب وزير يثق بأخلاقه، ويعتمد على خبرته في انتخاب بقية الوزراء والسيطرة عليهم في الكليات.

فالملك مهما كان عاقلًا حكيمًا لا يقدر على إتقان أكثر من وظيفته المذكورة.

فالملك إذا تغرَّر وتنزَّل للتدخل في أمـور الـسياسة أو الإدارة الملكيـة أو الأمـور الحربية أو القضاء، فلا شك أنه يكون كرب بيت يداخل طباخـه في مهنتـه، ويـشارك بستانيه في صنعته، فيفسد طعامه ويبور بُسْتانه، فيشتكي ولا يدري أن آفته من نفسه.

ومن «الغَرَارة» اللوْث في الأمور، أي تركها بلا ترتيب، والحكمة قاضـية عـلى كل إنسان، ولو كان زاهـدًا منفـردًا في كهـف جبـل، فـضلًا عـن سـائس رعيـة أو صاحب عائلة، أن يتخذ ترتيبًا في شؤونه، وذلك بأن يُرتِّب:

أولًا ـ أوقاته حسب أشغاله، ويرتب أشغاله حسب أوقاته. والشغل الذي لا يجد له وقتًا كافيًا يهمله بالكلية أو يُفوِّضه لمن يَفِي حق القيام به عنه.

ثانيًا- يُرتِّب نفقاته على نسبة المضمون من كسْبِه، فإن ضاق دخلـه عـن المُـبْرَم مِـن خَرْجه يُغيِّر طراز معيشته، ولو بالتحول مثلًا من بلده الغالية الأسعار أو التي مظهره فيها يمنعه من الاقتصاد إلى حيث يمكنه ترتيبها على نسبة كسبه.

ثالثًا- يُرتِّب تقليل غائلة عائلته عند أول فرصة، ملاحظًا إراحة نفسه مـن الكَـدّ في دور العجز من حياته، فيُربِّي أولاده ذكورًا وإناثًا على صورة أن كُـلًا مـنهم متـى بلـغ أشده يمكنه أن يستغني عنه بنفسه، معتمدًا على كسبه الذاتي ولو في غير وطنه.

رابعًا- يُرتِّب أموره الأدبية على نسبة حالته المادية، أعني يرتب أموره الدينية ولذاته وشهواته الجسمية ترتيبًا حسنًا، فلا يحمل نفسه منها ما لا تطيق للاستمرار عليه.

خامسًا - يُرتِّب ميْله الطبيعي للمجد والتعالي على حسب استعداده الحقيقي. فلا يترك نفسه تتطاول إلى مقامات ليس من شأن قوته المادية أن يبلغها إلا بمحض الحظ أي الصدف.

وخلاصة البحث أن الغَرَارة من أقوى أسباب الفتور، وقد أطلْتُ في وصْفِها وإيضاحها ليتأكد عند السادة الإخوان أن إزالة أسباب الفتور الشخصي ليس من عقيمات الأمور».

ثانيًا- في ميدان قضايا المرأة :

يبحث الكواكبي موضوع واقع المرأة من خلال حديثه في كتابه «أم القرى» عن أسباب انحلال الأخلاق والفتور والغرارة والجهل :

أ- إنَّ تَرْكَ النساء جاهلاتٍ يقود إلى انحلال أخلاق المجتمع.

ب - في تاريخنا كانت النساء يتلقَّيْنَ العلم ويشاركنَ فيه (عائشة – كثير من الصحابيات – كثير من العالِمات).

ج - يُخطئ من يظن أن الجهل يحفظ عِفَّة النساء. فالجاهلة أجْسر على الفجور من العالِمة.

د - إن جهْلَ النساء يترك أثرًا سيِّئًا في تربية الأولاد.

هـ- إنَّ جهْل النساء ينعكس سَلْبًا على علاقتهن بأزواجهن.

و- المرأة أقْدر من الرجل وليست أضعف منه.

ف- المرأة حينما تسير وراء الرجل فلكي تسُوقه لا لكي تَتْبَعُه.

ز- في المرأة دَهاء أكثر مما لدَى الرجل.

ي- يؤيد الكواكبي حجاب المرأة وتفرُّغها لتدبير المنزل. ويربْط بين الحجاب ومكارم الأخلاق.

يقول الكواكبي في نصه:

« إن لانْحلال أخلاقنا سببًا مهمًّا آخر أيضًا يتعلق بالنساء، وهو تَرْكُهن جاهلات على خلاف ما كان عليه أسلافنا، حيث كان يوجد في نسائنا كأُمِّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها التي أخذنا عنها نصف علوم ديننا، وكمئات من الصحابيات والتابعيات راويات الحديث والمتفقهات، فضلًا عن ألوف من العالمات والشاعرات اللاتي في وجودهن في العهد الأول بدون إنكار، حجة دامغة تُرْغِم غِيرة أنْف الذين يزعمون أن جهل النساء أحفظ لعفَّتهن، فضلًا عن أنه لا يقوم لهم برهان على ما يتوهمون، حتى يصح الحكم بأن العلم يدعو للفجور وأن الجهل يدعو للعِفَّة، نعم ربما كانت العالمة أقدر على الفجور من الجاهلة!! ولكن الجاهلة أجْسر عليه من العالمة.

ثم أن ضرر جهل النساء وسوء تأثيره في أخلاق البنين والبنات أمر واضح غَنيٌ عن البيان. إنما سوء تأثيره على أخلاق الأزواج فيه بعض خفاء يستلزم البحث، فأقول:

إن الرجال ميَّالون بالطبع إلى زوجاتهم، والمرأة أقْدر مطلقًا من الرجل في ميدان التجاذب للأخلاق، ولا يتوهم عكس ذلك إلا من استحكم فيه تغرير زوجته له بأنها ضعيفة مسكينة مسخرة لإرادته، حال كون حقيقة الأمر أنها قابضة على زمامه تسوقه كيف شاءت، وبتعبير آخر يغره أنه أمامها وهي تتبعه، فيظن أنه قائد لها، والحقيقة التي يراها كل الناس من حولها دونه أنها إنما تمشي وراءه بصفة سائق لا تابع.

وما قدَّرَ دهاء النساء مثلُ الشريعة الإسلامية، حيث أُمِرتْ بالحَجْبِ والحَجْر الشرعيْن حصْرًا لسلطتهن وتفرُّغهن لتدبير المنزل، فأمرتْ باحتجابهن احتجابًا

محدودًا بعدم إبداء الزينة للرجال الأجانب، وعدم الاجتماع بهم في خلْوة أو لغير لـزوم. وأُمِرتْ باستقرارهن في البيوت إلا لحاجة. ولا شك أنه ما وراء هـذه الحـدود إلا فـتح باب الفجور، وما هذا التحديد إلا مرحمة بالرجال وتوزيعًا لوظائف الحياة..».

كما يتحدث الكواكبي عن ضرورة التكافؤ في الزواج بين الرجـل والمـرأة، لأن الرجل ينجَرُّ إلى أخلاق زوجته. وكثير من أُمراء المسلمين فسدت أخلاقهم بـسبب أمهاتهم أو زوجاتهم :

«والصينيون، وهم أقدم البشر مدنَيَّة، التزموا تصغير أرجـل البنـات بالـضغط عليها لأجل أن يعسر عليهن المشي والسعي في إفساد الحياة الـشريفة. ذاك الـشرف الذي هو من أهم مقاصد الشرقيين، بخلاف الغربيين الذين لا يهمهم غير التوسُّـع في الماديات والملذات.

وقد أمرتِ الشريعة برعاية الكفاءة في الزوج، وذلـك أيـضًا مرحمـة بالرجـال. وأكثر الأئمة المجتهـدين أغفلـوا لـزوم تحـرِّي الكفـاءة في جانـب المـرأة للرجـل، وأوجبوا أن يكون هو فقط كُفْؤًا لها كي لا تهلكه بفَخَارها وتحكمها.

على أن لرعاية الكفاءة في المرأة للرجل أيـضًا موجِبـات عائليـة مهمـة، منهـا: التخيُّر للاستسلام والتخيـير لتربيـة النَّسْل، وللتـساهل في ذلـك دخـل عظـيم في انحلال الأخلاق في المـدن، لأن التـزوج بمجهـولات الأصـول أو الأخـلاق، أو بسافلات الطباع والعادات، أو بالغريبات جِنسًا أو الرقيقـات، مفاسـد شـتى؛ لأن الرجل ينجرُّ طوعًا أو كرهًا لأخلاق زوجته، فإن كانت سافلة يتسفَّل لا محالة، وإن كانت غريبة بغَضَتْه في أهله وقومه، وجرَّتْه إلى موالاة قومها والتخلُّـق بـأخلاقهم. ولا شك أن هذه المفسدة تستحكم في الأولاد أكثر من الأزواج.

وربما كان أكبر مُسبِّب لانحلال أخلاق الأمراء من المسلمين أتاهم من جهة الأمهات والزوجات السافلات، إذ كيف يُرجَى من امرأة نشأت سافلة رقيقة ذليلة أن تترك بعلها، وهو في الغالب أطوع لها من خلخالها، أن يجيب داعي شهامة أو مروءة؟ أو أن تغرس في رؤوس صِبْيتها أميالا سامية، أو تُحمِّسهم على أعمال خطرة؟ كلا لا تفعل ذلك أبدًا. إنما تفعله الشريفات اللاتي تجدن في أنفسهن عزة وشهامة، وهذا هو سِرُّ أعاظم الرجال لا يوجدون غالبًا إلا من أبناء وبُعُول نسوة شريفات أو بيوت قروية. وهذا هو سبب حِرْص أمراء العرب والإفرنج على شرف الزوجات.».

ثالثًا: ميدان الناشئة والشباب

يرى الكواكبي قبل أكثر من قرْن من اليوم أن هناك شُبَّانًا يحبون «التفرْنُج» ويقلدون الغرْب بسطحية. بينما هناك شُبَّان يحافظون على دينهم وكرامتهم.

وفي سياق هذين النموذجين من الناشئة والشُّبَّان يُوضِّح الكواكبي الصفات التي يريدها لدى شباب عصره وهي:

أ- النُّبْل والجهد والعمل.

ب- العاطفة الدينية العميقة.

ج- العاطفة الوطنية.

يقول الكواكبي :

« ولْيُعْلَم أن الناشئة الذين تعْقِد الأمة آمالها بأحلامهم عسى يصدق منها شيء، وتتعلق الأوطان همتهم عساهم يأتون فعلًا مذكورًا، هم أولئك الشباب ومن في حكمهم المحمديون المهذبون، الذين يقال فيهم إن شباب رأي القوم عند شبابهم الذين يفتخرون بدينهم فيحرصون على القيام بمبانيه الأساسية نحو الصلاة والصوم، ويتجنبون مناهيه الأصلية نحو الميسر والمسكرات.

الذين لا يقصرون بناء القصور الفخر عظام نَخَرَها الدهر، ولا يرضون أن يكونوا حلقة ساقطة بين الأسلاف والأخْلاف، الذين يعلمون أنهم خُلِقوا أحرارًا فيأبون الذل والإِسار.

الذين يودون أن يموتوا كرامًا ولا يحيون لئامًا، الذين يجتهدون أن ينالوا حياة رضية، حياة قوم كل فرد منهم سلطان مستقل في شؤونه لا يحكمه غير الدين، وشريك أمين لقومه يقاسمهم ويقاسمونه الشقاء والهناء، وولدٌ بارٌّ بوطنه لا يبخل عليه بجزء طفيف من فكره ووقته وماله. الذين يحبون وطنهم حب مَنْ يعلم أنه خُلِقَ مِن تُرابه.

الذين يعشقون الإنسانية ويعلمون أن البشرية هي العِلْم، والبهيمية هي الجهالة. الذين يعتبرون أن خير الناس أنفعهم للناس. الذين يعرفون أن القنوط وباء الآمال والتردد وباء الأعمال.

الذين يفقهون أن القضاء والقَدَر هما السعي والعمل. الذين يُوقِنون أن كل ما على الأرض من أثر هو مِنْ عَمَل أمثالهم البشر، فلا يتخيلون إلا المقدرة ولا يتوقعون من الأقدار إلا خيرًا.

وأما الناشئة المتفَرْنِجة فلا خير فيهم لأنفسهم فضلًا عن أن ينفعوا أقوامهم وأوطانهم شيئًا؛ وذلك لأنهم لا خلاق لهم، تتجاذبهم الأهواء كيف شاءت، لا يتّبعون مسلكًا ولا يسيرون على ناموس مُطَّرد، لأنهم يحكمون الحكمة فيفتخرون بدينهم ولكن لا يعلمون به تهاونًا وكسلًا. ويرون غيرهم من الأمم يتباهون بأقوامهم ويستحسنون عاداتهم ومميزاتهم فيميلون لمناظرتهم، ولكن لا يقوون على تَرْك التفرنج كأنهم خلقوا أتباعًا. ويجدون الناس يعشقون أوطانهم فيندفعون للتشبه بهم في التشبيب والإحساس فقط، دون التشبث بالأعمال التي يستوجبها الحب الصادق.

والحاصل أن شؤون الناشئة المتفرنجة أيضًا لا تخرج عن تذَبْذُب وتلُّون ونِفاق، يجمعها وصْف: «لا خَلاق لهم». والواهِنة خير منهم، متمسكون بالدين ولو رياء، وبالطاعة ولو عمياء، على أنه يوجد في المتفرنجة أفراد غيُورون كالراسخين من أحرار الأتراك، الملتهبين غيرة تقتضي احترام مَزِيَّتهم..».

والكواكبي يعيب على رجال الدين عدم إحساسهم بالمسؤولية وتقصيرهم في توجيه الناشئة نحو المُثُل والقِيَم الأخلاقية.

وهو يشتدُّ في حملته على هؤلاء الواهنين من رجال السياسة وشيوخ دين وسَرَاة قوم متخاذلين :

«وهؤلاء الواهِنة يحق لهم أن تشق عليهم مفارقة حالات ألِفوها عمرهم، كما قد يألف الجسم السقم فلا تلذ له العافية. فإنهم منذ نعومة أظفارهم تعلموا الأدب مع الكبير، يُقَبِّلون يده أو ذيله أو رجله، وألِفوا الاحترام فلا يدوسون الكبير ولو داس رقابهم. وألِفوا الثبات ثبات الأوتاد تحت المطارق. وألِفوا الانقياد ولو إلى المهالك. وألِفوا أن تكون وظيفتهم في الحياة دون النبات، ذاك يتطاول وهم يتقاصرون، ذاك يطلب السماء وهم يطلبون الأرض كأنهم للموت مشتاقون.

وهكذا طُولُ الأُلْفة على هذه الخصال قلَب في فكرهم الحقائق، وجعل عندهم المخازي مفاخر، فصاروا يسمون التصاغر أدبًا، والتذلل لُطْفًا، والتملُّق فصاحة، واللَّكْنة رزانة، وتَرْك الحقوق سماحة، وقبول الإهانة تواضعًا، والرضاء بالظلم طاعة. كما يُسمُّون دعوى الاستحقاق غرورًا، والخروج عن الشأن الذاتي فضولًا، ومدَّ النظر إلى الغد أملًا، والإقدام تهورًا، والحمية حماقة، والشهامة شراسة، وحرية القول وقاحة، وحب الوطن جنونًا..».

رابعًا- في ميدان العلاقات الاقتصادية

يتحدث الكواكبي خلال الاجتماع الثالث، يوم الخميس ١٨ ذي القعدة ١٣١٦ هـ، وعلى لسان الفقيه الأفغاني فيقول :

«وذكَر أن الداء العام فيما يراه هو الفقر الآخذ بالزِّمام، لأن الفقر قائد كل شر، ورائد كل نَحْس، فمنه جَهْلُنا، ومنه فساد أخلاقنا، بل منه تشتت آرائنا حتى في ديننا، ومنه فقد إحساسنا، ومنه إلى كل ما نحن فيه، أو نتوقع أننا سنوافيه.

فهذه فطرتنا، لا نقْص فيها عن غيرنا، وعددنا كثير، وبلادنا متواصلة، وأرضنا مخصبة، ومعادننا غنية، وشرعنا قويم، وفخارنا قديم، فلا ينقصنا عن الأمم الحية غير القوة المالية، التي أصبحت لا تحصل إلا بالعلوم والفنون العالية، وهذه لا تحصل إلا بالمال الطائل، فوقعنا في مشكل الدور، وعسى أن نهتدي لفكِّه سبيلًا، وإلا فيحيق بنا ناموسُ فَناء الضعيف في القوي وبيننا الجاهل والعالم.

مِن أعظم أسباب فَقْر الأمة: أن شريعتنا مبنية على أن في أموال الأغنياء حقًّا معلومًا للبائس والمحروم، فيؤخذ من الأغنياء ويُوزَّع على الفقراء، وهذه الحكومات الإسلامية، قد قلَبتْ الموضوع، فصارت تُجْبِي الأموال من الفقراء والمساكين وتبذلها للأغنياء.».

ويُركِّز الكواكبي في هذا الجانب على النقاط التالية:

أ-قوة المال وعلاقته بالاستبداد .

ب- العلاقة بين الاستبداد السياسي والاستبداد الاجتماعي.

ج- العلاقة بين قوة المال والتحصيل العلمي.

د- صلة كل القضايا الاقتصادية بالدين والمجتمع والسياسة.

هـ- الدعوة إلى وضع ميزانيات منهجية مدروسة مُبرْمَجة.

ز- الدعوة إلى معيشة الاشتراك العمومي.

خ- إن الأموال موجودة لدى المسلمين ولكنهم لا يحسنون التصرف بها.

ط- الشريعة الإسلامية وضعت الأسس الكفيلة بالعدالة الاجتماعية

ي- ضرورة اهتمام المسلمين بتطوير حياتهم اليومية من حيث أيام العمل والعطل والاستراحات والترفيه .

هذا هو مجمل قول الكواكبي في هذا الميدان:

والشريعة الإسلامية هي أول شريعة ساقت الناس والحكومات لأصول البرمجة المؤسَّس عليها فن الاقتصاد المالي، الإفرادي والسياسي.

ويُخيَّل لي أن سبب هذا الفتور، الذي أخلَّ حتى في الدين، هو فقْدُ الاجتماعات والمفاوضات، وذلك أن المسلمين في القرون الأخيرة قد نسوا بالكلية حِكْمة تشريع الجماعة والجمعة وجمعية الحج، وتَرْك خُطبائهم ووعَّاظهم، خوفًا من أهل السياسة، التعرض للشؤون العامة.

كما أن علماءهم صاروا يسترون جُبنهم بجعلهم التحدث في الأمور العمومية والخوض فيها من الفضول والاشتغال بما لا يغني، وأن إتيان ذلك في الجوامع من اللغْو الذي لا يجوز، وربما اعتبروه من الغيبة أو التجسس أو السعي بالفساد، فسَرى ذلك إلى أفراد الأمة، وصار كل شخص لا يهتم إلا بخُوَصةَ نفسه، وحِفْظ حياته في يومه، كأنه خُلِق أُمَّة واحدة، وسيموت غدًا، جاهلًا أن له حقوقًا على الجامعة الإسلامية والجامعة البشرية، وأن لهما عليه مثلها، ذاهلًا عن أنه مدني بالطبع، لا يعيش إلا بالاشتراك، ناسيًا أو جاهلًا أوامر الكتاب والسنة له بذلك...

ثم بتوالي القرون والبطون على هذه الحال تأصَّل في الأمة فقْدُ الإحساس، إلى درجة أنه لو خربت هذه الكعبة، والعياذ بالله تعالى، لَمَا تقطَّبَتْ الحياة أكثر من لحظة،

ولا أقول لما زاد تلاطم الناس على سبعة أيام، كما ورد في الأثر، لأن المراد بأولئك الناس أهل خزينة العرب إذ ذَّاك.

وإذا دقَّقْنا النظر في حالة الأمم الحية المعاصرة، وهي ليس عندها ما عندنا من الوسائل الشريفة للاجتماعات والمفاوضات، نَجِدُهم قد احتالوا للاجتماعات، ولاسترعاء السمع والاستلْفات بوسائل شتى:

١ـ منها تخصيصهم يومًا في الأسبوع للبَطالة والتفرغ من الأشغال الخاصة، لتحصل بين الناس الاجتماعات، وتنعقد الندوات، فيتباحثون ويتناجون.

٢ـ ومنها تخصيصهم أيامًا، يتفرغون فيها لتذاكر مهمات الأعمال لأعاظم رجالهم الماضين، تشويقًا للتمثل بهم.

٣ـ ومنها إعدادهم في مُدَنهم ساحات ومنتديات، تسهيلًا للاجتماع والمذاكرات وإلقاء الخطب وإبداء التظاهرات.

٤ ـ ومنها إيجادهم المُتنزَّهات الزاهية العمومية، وإجراء الاحتفالات الرسمية والمهرجانات بقصد السوق للاجتماعات.

٥ـ ومنها إيجادهم محلات التشخيص المعروف (بالكوميديا) و (التياترو)، بقصد إرَاءة العِبَر واسترعاء السمْع للحِكَم والوقائع، ولو ضمن أنواعٍ من الخلاعة التي اتخذت شِباكًا لمقاصد الجمْع والإسماع، ويعتبرون أن نفْعها أكبر من ضرر الخلاعة.

٦ـ ومنها اعتناؤهم غاية الاعتناء بتعميم معرفة تواريخهم المِلِّيَّة، المفصلة المدْمَجة بالعِلَل والأسباب، تمكينًا لحُبِّ الجنسية.

٧ـ ومنها حرصهم على حفظ العاديات المنبهة، وادِّخار الآثار القديمة المنوهة، واقتناء النفائس المشعرة بالمفاخر.

٨ـ ومنها إقامتهم النُّصُب المُفكِّرة بما نُصِبتْ له من مهمات الوقائع القديمة.

٩ـ ومنها نشْرُهم في الجرائد اليومية كل الوقائع والمطالعات الفكرية..».

ويضع الكواكبي في بحث «الاستبداد والمال» أصولًا وِفْق منهجيته التي يدعوها الإسلامية للإصلاح الاقتصادي، وخلاصتها:

آ- تقرير أنواع العُشُور والزكاة وتقسيمها على أنواع المصارف العامة وأنواع المحتاجين حتى المدينين.

ب- تقرير أحكام تمنع التواكل والارتزاق وتلزم كل فرد بالعمل.

ج- ترْكُ الأراضي الزراعية ملكًا لعامة الأمة يعمل بها الفلاحون ويؤدون إلى بيت المال ضريبة الخمس.

د-وضْعُ قواعد شرعية عامة وجزئية والطلب من الحكومة أن تنفذها.

هـ- أن يكون إحراز المال بوجه مشروع ومن غير احتكار.

و-أن لا يتجاوز المال قدر الحاجة .

خامسًا- في ميدان التعليم:

أفرد الكواكبي في قانون الجمعية الذي أقر يوم الإثنين ٢٩ ذي القعدة ١٣١٦ هـ عشر قضايا لمعالجة موضوع التعليم. كما تحدث في مقدمة القانون عن حالة الفتور والجهل وتهاون العلماء وضرورة التنوير بالعلم والتعليم.

وهذه القضايا على النحو التالي:

قضية (٢٧):

إيقاظ فِكْر علماء الدين إلى الأمور الخمسة الآتية، وتنشيطهم للسعي في حصولها ومساعدتهم بإرادة أسهل الوسائل وأقربها، وهي:

١ـ تعميم القراءة والكتابة مع تسهيل تعليمهما.

٢ـ الترغيب في العلوم والفنون النافعة التي هي من قبيل الصنائع مع تسهيل تعليمها وتلقِّيها.

٣ـ تخصيص كل من المدارس والمدرسين لنوع واحد أو نوعين من العلوم والفنون ليوجد في الأمة أفرادٌ نابغون متخصصون.

٤ـ إصلاح أصول تعليم اللغة العربية والعلوم الدينية وتسهيل تحصيلها، بحيث يبقى في عمْر الطالب بقية يصرفها في تحصيل الفنون النافعة.

٥ـ الجَدُّ وراء توحيد أصول التعليم وكتب التدريس.

قضية (٢٨)

السعْي في تأليف متون مختصرة بسيطة واضحة على ثلاث مراتب:

١ـ لتعليم المبتدئين أو المكتفين بالمبادئ.

٢ـ لتعليم المنتهين الطالبين الإتقان.

٣ـ لتعليم النابغين الراغبين في الاختصاص.

قضية (٢٩)

الاهتمام في جعْل المتعلمين والمعلمين على أربع مراتب:

١ـ العامة ومُعلِّموهم أئمة المساجد والجوامع الصغيرة.

٢ ـالمهذبون ومُعلِّموهم مُدرِّسو المدارس العمومية والجوامع الكبيرة.

٣ـ العلماء ومُعلِّموهم مُدرِّسو المدارس المختصة بالعلوم العالية.

٤ـ النابغون ومعلموهم الأفاضل المتخصصون.

قضية (٣٠)

السعْي لدى أمراء الأمة بمعاملة كافة طبقات العلماء معاملة الأطباء، أي بالحجر رسميًا على من يتصدر للتدريس والإفتاء والوعظ والإرشاد ما لم يكن مجازًا من قِبَل هيئة امتحانية رسمية وموثوق بها تُقام في العواصم.

قضية (٣١)

التوسُّل لَدَى الأمراء أن يعطوا لأحد العلماء الغيورين في كل بلدة صفة محتسِب ديني على جماعة المسلمين في تلك البلدة، ويجعلون له مستشارين منتخبين من عقلاء الأهالي، وتكليف الجمعية الاحتسابية بأن تقوم بالنصيحة للمسلمين بدون عنف، وبتسهيل تعميم المعارف والمحافظة على الأخلاق الدينية.

قضية (٣٢)

التوسُّل لنيْل العلماء ما يستحقون مِنْ رِزْق وحُرْمة، ومنْعهم عن كل ما يخلُّ بصفتهم وشرفهم.

قضية (٣٣)

التوسل لحمْل أهل الطرائق على الرجوع إلى الأصول الملائمة للشرع والحكمة في الإرشاد وتربية المريدين. وتكليف كل فِرْقة منهم بوظيفة مخصوصة يخدمون بها الأمة الإسلامية من نحو اختصاص فرقة القادرية مثلًا بإعاشة وتعليم الأيتام، وأُخرى بمواساة المساكين وأبناء السبيل، وجماعة بتمريض الفقراء والبائسين، وفئة بالتشويق إلى الصلاة، وغيرها بالتنفير عن المُسْكِرات. ونحو ذلك من المقاصد الخيرية الشرعية، فيكون عملهم هذا عوضًا عن العُطْل والتعطيل.

قضية (٣٤)

حَمْلُ العلماء والمرشدين وجمعيات الاحتساب على السعي لإرشاد أفراد الأمة، خصوصًا أحْداثها، إلى قواعد معاشية وأخلاقية متحدة الأصول تلائم الإسلامية والحرية الدينية، وتفيد تَرَيُّض الأجسام وتقوية المدارك، وتُثْمِر النشاط للسعي والعمل، وتُولِّد الحَمِيَّة والأخلاق الشريفة.

قضية (٣٥)

تعتني الجمعية بصورة مخصوصة بوضع مؤلفات أخلاقية ملائمة للدين والزمان، وتكون على مراتب من بسيطة ومتوسطة وعالية، بحيث تقوم هذه المؤلفات مقام مطولات الصوفية.

ونقوم بوضْع مؤلفات اللغة، وسْطى عربية لا مُضَرية ولا علمية، وجعْلها لغة لبعض الجرائد ولمؤلفات الأخلاق ونحوها مما يهم نشْره بين العوام فقط.

قضية (٣٦)

تعتني الجمعية في حمْل العلماء وجمعيات الاحتساب على تعليم الأمة ما يجب عليها شرعًا من المجاملة في المعاملة مع غير المسلمين، وما تقتضيه الإنسانية والمزايا الإسلامية من حسن معاشرتهم ومقابلة معروفهم بخير منه، ورعاية الذمة والتأمين والمساواة في الحقوق، وتجنب التعصب الديني أو الجنسي بغير حق.

كما يخصص الكواكبي في «طبائع الاستبداد» بحثًا كاملًا بعنوان:«الاستبداد والتربية».

ويُركِّز في هذا البحث على النقاط التالية :

أ- التربية ملكة تحصل بالتعليم والتمرين والقدوة والاقتباس.

ب- الاستبداد عدو التربية وسبب فسادها.

ج- التربية تمر بمراحل حسب العمر ولكل مرحلة دور ورائد تربوي: الأم – الأب – المُعلِّم – المجتمع.....

د- التربية الفردية جزء من التربية الاجتماعية ومن القانون العام.

هـ- الحكومات هي التي تتولى مسؤولية التربية.

و- التربية علم وعمل.

ز- التربية هي هدف الأمم وبدونها لا تقوم لها قائمة.

وهذه أمثلة من آراء الكواكبي في الميدان التربوي:

«التربية مَلَكة تحصل بالتعليم والتمرين والقدوة والاقتباس، فأهم أصولها وجود المُرَبِّين وأهم فروعها وجود الدين. وجعلت الدين فرعًا لا أصلًا، لأن الدين علْم لا يفيد العملِ إذا لم يكن مقرونًا بالتمرين. وهذا هو سبب اختلاف الأخلاف من علماء الدين عند الإسلام عن أمثالهم من البراهمة والنصارى، وهو سبب إقبال المسلمين في القرن الخامس وفيما بعده، على قبول أصول الطرائق التي كانت لُبًّا محْضًا لما كانت تعليمًا وتمرينًا أي تربية للمريدين، ثم خالطها القَشْر، ثم صارت قِشْرًا محضًا، ثم صار أكثرها لهْوًا أو كفرًا.

والاستبداد رِيحٌ صرْصَر فيه إعصار يجعل الإنسان كل ساعة في شأن، وهو مُفسد للدين في أهمّ قسميه أي الأخلاق، وأما العبادات منه فلا يمسها لأنها تلائمه في الأكثر.

ولهذا تبقَى الأديان في الأمم المأسورة عبارة عن عبادات مُجَرَّدة صارت عادات فلا تفيد في تطهير النفوس شيئًا، ولا تنهى عن فحشاء ولا منكر لفقْد الإخلاص فيها تبعًا لفقْده في النفوس التي أَلِفتْ أن تتلجأ وتتلوَّى بين يدي سطْوة الاستبداد في زوايا الكذب والرياء والخداع والنفاق، ولهذا لا يُسْتَغرَب في الأسير الأليف تلك الحال، أي الرياء، أن يستعمله أيضًا مع ربه، ومع أبيه وأمه ومع قومه وجنسه، حتى ومع نفسه.

التربية تربية الجسم وحده إلى سنتين، هي وظيفة الأم أو الحاضنة، ثم تُضاف إليها تربية النفس إلى السابعة، وهي وظيفة الأبوين والعائلة معًا، ثم تضاف إليها تربية العقل إلى البلوغ، وهي وظيفة المعلمين والمدارس، ثم تأتي تربية القدوة

بالأقربين والخلطاء إلى الزواج، وهي وظيفة الصدفة، ثم تأتى تربية المقارنة، وهي وظيفة الزوجين إلى الموت أو الفراق.

ولا بد من أن تصحب التربية من بعد البلوغ، تربية الظروف المحيطة، وتربية الهيئة الاجتماعية، وتربية القانون أو السير السياسي، وتربية الإنسان نفسه»..

الحكومات المنتظمة، هي التي تتولى ملاحظة تسهيل تربية الأمة من حين تكون في ظهور الآباء، وذلك بأن تَسُنَّ قوانين النكاح، ثم تعتني بوجود القابلات والملقحين والأطباء، ثم تفتح بيوت الأيتام اللقطاء، ثم تَعدّ المكاتب والمدارس للتعليم من الابتدائي الجبري إلى أعلى المراتب، ثم تُسهِّل الاجتماعات وتُمهِّد المسارح وتحمي المنتديات، وتجْمع المكتبات والآثار، وتُقِيم النُصُب المُذكِّرات، وتضع القوانين المحافظة على الآداب والحقوق، وتسْهر على حفظ العادات القومية، وإنماء الإحساسات المالية، وتُقوِّي الآمال، وتُيسِّر الأعمال، وتُؤمِّن العاجزين فعلًا عن الكسب من الموت جوعًا، وتدفع سلِيمِي الأجسام إلى الكسْب ولو في أقصى الأرض، وتحمي الفضْل وتُقدِّر الفضيلة.

وهكذا تُلاحظ كل شؤون المرء ولكن من بعيد، كي لا تخلّ بحريته واستقلاله الشخصي، فلا تقرب منه إلا إذا جنى جرمًا لتعاقبه، أو مات لتواريه».

«التربية عِلْم وعمل. وليس من شأن الأمم المملوكة شؤونها، أن يوجد فيها من يعلم التربية ولا من يعلمها. حتى إن الباحث لا يرى عند الأُسَراء عِلْمًا في التربية مدفونًا في الكتب فضلًا عن الأذهان.

أما العمل فكيف يتصوَّر وجوده بلا سَبْق عزْم، وهو بلا سبْق يقين، وهو بلا سبق عِلْم. وقد ورد في الأثر: «النية سابقة العمل». وورد في الحديث: «إنما الأعمال

بالنيات». بناءً عليه ما أبعدَ الناس المغصوبة إرادتهم، المغلولة أيديهم، عن توجيه الفكر إلى مقصد مفيد كالتربية، أو توجيه الجسم إلى عمَل نافع كتمرين الوجه على الحياء والقلب على الشفقة».

«ثم إن التربية التي هي ضالة الأمم وفقْدها هو المصيبة العظمى، التي هي المسألة الاجتماعية حيث الإنسان يكون إنسانًا بتربيته، وكما يكون الآباء يكون الأبناء، وكما تكون الأفراد تكون الأمة، والتربية المطلوبة هي التربية المرتبة على إعداد العقل للتمييز، ثم على حسن التفهيم والإقناع، ثم على تقوية الهمة والعزيمة، ثم على التمرين والتعويد، ثم على حُسْن القدوة والمثال، ثم على المواظبة والإتقان، ثم على التوسط والاعتدال، وأن تكون تربية العقل مصحوبة بتربية الجسم، لأنهما متصاحبان صحة واعتلالًا، فإنه يقتضي تعويد الجسم على النظافة وعلى تحمُّل المشاق، والمهارة في الحركات، والتوقيت في النوم والغذاء والعبادة، والترتيب في العمل وفي الرياضة والراحة، وأن تكون تلْكُما التربيتين مصحوبتين أيضًا بتربية النفس على معرفة خالقها ومراقبته والخوف منه.

فإذا كان لا مطمع في التربية العامة على هذه الأصول بمانع طبيعة الاستبداد، فلا يكون لعقلاء المُبْتَلِين به إلا أن يسعوا أولًا وراء إزالة المانع الضاغط على العقول، ثم بعد ذلك يعتنوا بالتربية حيث يمكنهم حينئذ أن ينالوها على توالي القرون والله الموفق»..

وهكذا يبْرز موضوع التربية والتعليم واحدًا من أبرز الموضوعات التي شغلت الكواكبي في حياته وكتاباته، مؤكدًا على مدى ما يلحقه الاستبداد من ضرر بالعملية التربوية،، ومؤكدًا دور العلم في تحرير الشعوب، ودور العلم في القضاء على الاستبداد.

وكان الكواكبي يرى أن العلوم الدينية لا تكفي وحدها بل لا بد من رِفْدها بالعلوم الفلسفية والطبيعية والأدبية في سبيل تنوير أذهان الناشئة .

سادسًا- في المنهج :

لم يكتف الكواكبي بوصْف الداء وشرح أسبابه وأعراضه بل إنه انتقل إلى رسْمِ العلاج بمنهجية عالية ودقة، مستخدمًا في ذلك لغة رصينة أكاديمية، وبرنامجًا واعيًا للإصلاح يشمل ميادين المجتمع.

وقد رأى الكواكبي أن الاستبداد هو أعلُّ العلل في ميادين الفكر والسياسة والتربية والأخلاق والمال. ولكنه لم يكتفِ بموقف البكاء على الأطلال، بل إنه شخَّص لنا المرض وشرَع يصِف العلاج على الفور.

ولعنة الاستبداد تقابلها لدى الكواكبي بدائل دعا إليها تتمثَّل في :

أ -المساواة.

ب -الحرية.

جـ -العدالة.

د -الشورى الدستورية.

وللوصول إلى هذه البدائل الإيجابية، لا بد من توفُّر مبادئ للعمل خلاصتها :

١ـ إن الأمة التي لا يشعر كلها أو أكثرها بآلام الاستبداد لا تستحق الحرية.

٢ـ الاستبداد لا يُقاوم بالشدة بل بترقِّي الأمة في الإدراك والإحساس والتعليم والتحميس.

٣ـ قبل مقاومة الاستبداد يجب تهيئة البديل.

والبديل الشامل لكل هذه الأسس والمبادئ هو المنهج الذي يسميه الكواكبي:«الإسلامية». وهي البديل العام عن الاستبداد في شتى ميادين الحياة والفكر.

وخلاصة رأي الكواكبي في هذا المجال مطالبته بنظام حكومي قانوني قائم على أساس الشورى مستمد من الشريعة، هذه الشريعة التي تحمل أفضل القواعد الأساسية في السياسة والتربية والاقتصاد وكل شؤون الحياة. ونموذج ذلك دولة الرسول الكريم والخلفاء الراشدين.

وهكذا فالإسلامية تشمل بدائل المساواة والحرية والعدالة والشورى إلى جانب التكافل الاجتماعي (لقد قدم الكواكبي برنامجًا للإصلاح تفوَّق في عصره على البرامج التي كانت مطروحة. ولا يزال مشروعه حيًّا) بعد أكثر من قرن من طرْحه. ولا زِلْنا بحاجة إلى استحضار الكواكبي في حالة الانهيار التي نعيشها.

مؤلفات الكواكبي وأهمُّ ما كُتِبَ عنه

يُمْكن حصْرُ ما كتبه الكواكبي من كُتُب ومؤلفات على النحو التالي:

- **أم القرى:**

وهو أول ما نُشِر للكواكبي، وهو بحث يضمُّ محاضِر جلَسات مؤتمر إسلامي عالمي عُقِد في مكة المكرمة، وتناول واقع المسلمين وأسباب تأخرهم، والمقترحات والوسائل اللازمة لنهضتهم.

- **طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد**

وقد نشره مقالات متفرقة في الصحف القاهرية قبل أن يجمعه في كتاب ويطبعه في القاهرة.

- **صحائف قريش**

أشار إليه الكواكبي في مقدمة كتابه «أم القرى» قائلًا إنه «سيصدر وسيكون له شأن كبير في النهضة الإسلامية العلمية والخلقية»، ولكنه فُقِدَ ضمن ما فُقِد من مخطوطات الكواكبي.

- **العظمة لله**

فُقِدَ أيضًا، وقد ذكر العلامة محمد كُرْد علي أنه رآه لدى الكواكبي في القاهرة.

- **الأنساب:**

فُقِد أيضًا، وقد أشار سعد زغلول الكواكبي حفيد عبد الرحمن الكواكبي أن هذا الكتاب كان موجودًا لدَى محمد رشيد رضا لطباعته.

- **أمراض المسلمين والأدوية الشافية لها**

وكان الكواكبي قد نشره كبحث في جريدة «المؤيّد» تحت عنوان «ما هو الداء وكيف يُرْجَى الشفاء».

- **أحسن ما كان في أسباب العمران**
- **ماذا أصابنا وكيف السلامة؟**

وكان من المفترض أن يقوم صديقه عبد المسيح الأنطاكي بنشْر الكتابين، وهو ما لم يحْدُث، وذلك حسبما ذكر سعد زغلول الكواكبي في كتابه عن جده عبد الرحمن الكواكبي.

- **تجارة الرقيق وأحكامه في الإسلام**

فُقِد ضمْن أوراق الكواكبي ولم يتبقَّ منه غير جزء نشره محمد رشيد رضا في مجلة المنار عام ١٩٠٥م.

هذا عن مؤلفاته، أما عن مقالاته في الصحف فهي كثيرة، بدأها بالكتابة في صحيفة «فرات» التي أشرنا لقصته معها، ثم «الشهباء» «واعتدال»، اللتين أصدرهما في حلب، وكتب في عدد من الصحف القاهرية، مثل «الأهرام»، و«المؤيد»، و«المقطم»، كما تناثرت مقالاته في صحف بَيْرُوتية، مثل «المصباح»، ووصلت لبعض الصحف اللندنية.

ما كُتِب عن الكواكبي وأهمُّ المصادر في هذه الدراسة

أما ما كُتب عن الكواكبي وفِكْره من كُتُب ودراسات ومقالات، فلا يمكن حصْره، بل نكتفي بالأبرز والأشهر مما اسْتعنَّا به في كتابة تلك الدراسة عنه هنا:

- عباس محمود العقاد، «الرحالة كاف عبد الرحمن الكواكبي»، المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية، ١٩٥٩م.
- سعد زغلول الكواكبي، «عبد الرحمن الكواكبي السيرة الذاتية»، بيروت، بيسان للنشر والتوزيع، ١٩٩٨م.
- د.محمد عمارة، «عبد الرحمن الكواكبي شهيد الحرية ومجدد الإسلام»، القاهرة، دار الشروق، ط٢، ١٩٨٨م.
- د.ماجدة حمود. «عبد الرحمن الكواكبي فارس النهضة والأدب»، دمشق، اتحاد الكتاب العرب ٢٠٠١م.
- نوربير تابييرو، «الكواكبي المفكر الثائر..إسهام في دراسة الإسلام الحديث»، ترجمة على سلامة، بيروت، دار الآداب، ط٢، ١٩٨١م.
- محمد عمارة، «الشيخ عبد الرحمن الكواكبي..هل كان علمانيًّا؟». القاهرة، دار نهضة مصر.
- محمد قجة، «مشروع الكواكبي اجتماعيًّا وتربويًّا»، دورية ثقافتنا العدد ١٢.
- زكي الميلاد، «ندوة: حركة الإصلاح في العصر الحديث، عبد الرحمن الكواكبي نموذجًا». عمان: ١٥ ـ ١٧ تشرين الأول/ أكتوبر ٢٠٠٢م.

بسم الله الرحمن الرحيم

فاتحة الكتاب

الحمد لله، خالق الكون على نظامٍ مُحكمٍ متين، والصَّلاة والسَّلام على أنبيائه العِظام، هُداة الأمم إلى الحقّ المبين، لاسيَّما منهم على النبيِّ العربيّ الذي أرسله رحمةً للعالمين ليَرْقَى بهم معاشًا ومعادًا على سُلَّم الحِكْمة إلى عِلِّيين.

أقولُ وأنا مسلم عربي مضطر للاكْتِتام[1] شأن الضّعيف الصّادِع بالأمر، المُعْلِن رأيَه تحت سماء الشرق، الرّاجي اكتفاء المطالعين بالقول عمَّنْ قال: وتعْرِف الحقَّ في ذاته لا بالرجال.

إنني في سنة ثماني عشر وثلاثمائة وألف هجرية[2] هجرتُ دياري سَرَحًا في الشّرق، فزرتُ مصر، واتخذتها لي مركزًا أرجع إليه مغْتنِمًا عهْد الحرّيّة فيها على عهد عزيزها[3] حضرة سَمِيِّ[4] عمِّ النّبي (العباس الثاني)[5] النّاشر لِواء الأمْن على أكناف

---

(١) يعني اكتتام اسمه الحقيقي تحت اسم مستعار، وهو (الرحالة ك) كما سيأتي في هذا الكتاب.

(٢) وهي توافق بالتقويم الميلادي عام (١٩٠٠م).

(٣) يعني: مالكها وصاحبها. وكان حاكم مصر قديمًا يُلقَّب بـ : «عزيز مصر».

(٤) يعني أن اسمه يوافق اسم العباس عم النبي صلى الله عليه وسلم.

(٥) يعني به: عباس حلمي بن توفيق بن إسماعيل، حفيد محمد علي، ويُعرف بالخديوي عباس حلمي الثاني (١٢٩١- ١٣٦٣ هـ = ١٨٧٤ - ١٩٤٤ م) أحد من حكموا مصر، من أسرة محمد علي. ولد بالقاهرة، ووليَ (الخديوية) بعد وفاة أبيه (سنة ١٣٠٩ هـ ١٨٩٢م). وكان رجلا ضعيفًا صاحب نزوات! راجع ترجمته في «الأعلام» [٣/ ٢٦٠]. للزركلي.

مُلْكِه، فوجدتُ أفكار سَرَاة القوم[٦] في مصر كما هي في سائر الشّرْق خائضةً عُباب[٧] البحث في المسألة الكبرى.

أعني المسألة الاجتماعية في الشّرق عمومًا وفي المسلمين خصوصًا، إنما هم كسائر الباحثين، كلٌّ يذهب مذهبًا في سبب الانحطاط وفي ما هو الدواء. وحيثُ إني قد تمحَّص عندي أنّ أصل الدّاء هو الاستبداد السّياسي ودواؤه دفْعه بالشّورى الدّستورية.

وقد استقرَّ فكْري على ذلك -كما أنّ لكُلّ نبأ مستقرًّا- بعد بحث ثلاثين عامًا... بحثًا أظنّهُ يكاد يشمل كلّ ما يخطرُ على البال من سبب يتوهّمُ فيه الباحث عند النظرةِ الأولى، أنهُ ظفر بأصل الدّاء أو بأهمّ أصوله، ولكنْ؛ لا يلبث أنْ يكشف له التّدقيق أنّه لم يظفر بشيء، أو أنّ ذلك فرعٌ لا أصل، أو هو نتيجة لا وسيلة .

فالقائلُ مثلًا: إنّ أصْل الدّاء التّهاون في الدّين، لا يلبث أنْ يقف حائرًا عندما يسأل نفسه لماذا تهاون النّاس في الدّين؟ والقائل: إنّ الدّاء اختلاف الآراء، يقف مبهوتًا عند تعليل سبب الاختلاف. فإنْ قال: سببُه الجهل، يَشْكُلُ عليه وجود الاختلاف بين العلماء بصورة أقوى وأشدّ... وهكذا؛ يجد نفسه في حلْقة مُفْرَغة لا مبدأ لها، فيرجع إلى القول: هذا ما يريده الله بخلقه، غير مكُتَرِث[٨] بمنازعة عقله ودينه له بأنّ الله حكيمٌ عادلٌ رحيمٌ...

وإنّي، إراحةً لفكر المطالعين، أُعدّد لهم المباحث التي طالما أتعبتُ نفسي في تحليلها، وخاطرتُ حتّى بحياتي في درْسها وتدقيقها، وبذلك يعلمون أنّي ما وافقتُ

---

(٦) سَرَاة القوم: هم سادتهم وكبراؤهم.

(٧) عُباب الشيء: هو معظمه.

(٨) يعني: مهتم.

على الرّأي القائل بأنّ أصل الدّاء هو الاستبداد السّياسي إلا بعد عناءٍ طويل يرجِّحُ قد أصبتُ الغرض. وأرجو الله أنْ يجعل حُسْنَ نيَّتي شفيع سيئاتي، وهاهي المباحث:

في زيارتي هذه لمصر، نشرْتُ في أشهر جرائدها[9] بعض مقالات سياسية تحت عنوانات الاستبداد: ما هو الاستبداد وما تأثيره على الدّين[10]، على العِلْم، على التّربية على الأخلاق، على المجد، على المال... إلى غير ذلك.

ثم في زيارتي إلى مصر ثانيةً أجبْتُ تكليف بعض الشبِيبة[11]، فوسّعْتُ تلك المباحث خصوصًا في الاجتماعيات كالتربية والأخلاق، وأضفتُ إليها طرائق التخلُّص من الاستبداد، ونشرتُ ذلك في كتاب سمَّيته: (طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد)[12] وجعلتْه هديةً مني للنّاشئة العربية المباركة الأبِيَّة المعقودة آمال الأمة بيُمْنِ نواصيهم. ولا غروَ[13]، فلا شباب إلا بالشباب.

ثمّ في زيارتي هذه، وهي الثالثة، وجدتُ الكتاب قد نفد في بُرْهةٍ قليلة، فأحببتُ أن أعيد النّظر فيه، وأزيده زيدًا مما درستُهُ فضبطتُه، أو ما اقتبستُه وطبَّقْتُه، وقد صرفتُ في هذا السبيل عُمْرًا عزيزًا وعناءً غير قليل...

وأنا لا أقصد في مباحثي ظالمًا بعينه ولا حكومةً وأمَّة مخصصة، وإنما أردتُ بيان طبائع الاستبداد وما يفعل، وتشخيص مصارع الاستعباد وما يقضيه ويمضيه على ذويه...

---

(9) كجريدة: «المؤيد و«العمران» و«المنار» وغيرها.

(10) كذا في المطبوع، ولعل الصّواب: تأثيره في الدّين..

(11) الشبيبة: هم الشبَاب.

(12) وكان ذلك في عام 1319 هـ، الموافق 1901 م.

(13) ولا غَرْوَ: يعني: ولا عَجَبَ.

ولي هناك قصْدٌ آخر؛ وهو التنبيه لَموْرِد الداء الدَّفين، عسى أن يعرف الذين قضوا نحبهم، أنهم هم المتسبِّبُون لِمَا حَلَّ بهم، فلا يعْتِبُون على الأغْيار[14] ولا على الأقدار، إنما يعتبون على الجهل وفَقْدِ الهِمَم والتّواكُل.. وعسى الذين فيهم بقية رمَقٍ من الحياة يستدركون شأنهم قبل المهات...

وقد تخيّرتُ في الإنشاء أسلوب الاقتضاب[15]، وهو الأسلوب السّهْل المفيد الذي يختاره كُتَّاب سائر اللغات، ابتعادًا عن قيود التعقيد وسلاسل التّأصيل والتّفريغ.

هذا وإنّي أخالف أولئك المؤلّفين، فلا أتمنّى العفو عن الزلل؛ إنما أقول:

هذا جهدي، وللناقد الفاضل أن يأتي قومه بخيرٍ منه. فما أنا إلا فاتحُ باب صغير من أسوار الاستبداد. عسى الزمان يوسِّعُه، والله وليُّ المهتدين.

1320هـ - 1902م.

(14) الأغيار: هي صروف الزمان وأحوَاله وأحداثه المتغيرة.
(15) يعني: الإيجاز والاختصار والانتقاء.

مقدّمة

لا خفاء أنّ السّياسة عِلْمٌ واسعٌ جدًّا، يتفرّعُ إلى فنون كثيرة ومباحثَ دقيقة شتّى. وقلّما يوجد إنسان يحيط بهذا العلم، كما أنّه قلّما يوجد إنسان لا يحتكُّ فيه.

وقد وُجِدَ في كلِّ الأمم المترقِّية علماءُ سياسيون، تكلّموا في فنون السّياسة ومباحثها استطرادًا في مُدوَّنات الأديان أو الحقوق أو التاريخ أو الأخلاق أو الأدب.

ولا تُعرف للأقدمين كتبٌ مخصوصة في السّياسة لغير مؤسِّسي الجمهوريات في الرّومان واليونان، وإنّما لبعضهم مُؤلّفات سياسية أخلاقية كـ«كليلة ودِمْنة»[١٦] و«رسائل غوريغوريوس»[١٧]، ومُحرَّرات سياسية دينية كـ«نَهْج البلاغة»[١٨] و«كتاب الخراج»[١٩].

---

(١٦) هو كتاب في إصلاح الأخلاق، وتهذيب النفوس. وضعه: «بيدبا» الفيلسوف الهندي. وجعله على ألسنة البهائم والطيور. وقد ترجمه للعربية الأديب عبد الله بن المقفع. انظر: «كشف الظنون» [٢/ ١٥٠٨].

(١٧) غريغوريوس النّازيانزي (٣٢٩م - ٣٩٠م) هو بطريك القسطنطينية. كان شاعرًا وخطيبًا، وله رسائل شهيرة في السياسة.. انظر مقال: «القديس غريغوريوس النازيانزي الثيئولوغوس / الناطق بالإلهيات» بقلم عزت أندراوس. منشور على الموقع الإلكتروني: «موسوعة تاريخ أقباط مصر/coptic history ».

(١٨) هو كتاب مشهور من كلام علي بن أبي طالب، جمعه الشاعر الأديب الشيعي الشريف الرضيّ. وكله- إلا القليل جدًا- مكذوب على الإمام عليٍّ، ولا يصح نسبة ما فيه إليه بحال. لكنه غاية في الفصاحة والجزالة والبلاغة للمتعلّمين.

(١٩) الخراج: هو باب معروف من أبواب الفقه الإسلامي، وقد صنَّف فيه علماء كثيرون، منهم: القاضي أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم صاحب الإمام أبى حنيفة النعمان، ويحيى بن آدم، وقدامة بن جعفر، وابن رجب الحنبلي، وغيرهم.

وأما في القرون المتوسطة فلا تُؤْثَر أبحاث مُفصَّلة في هذا الفن لغير علماء الإسلام؛ فهم ألّفوا فيه ممزوجًا بالأخلاق كالرّازي[٢٠]، والطّوسي[٢١]، والغزالي[٢٢]، والعلائي[٢٣]، وهي طريقة الفُرْسِ، وممزوجًا بالأدب كالمعرِّي[٢٤]، والمتنبّي[٢٥]، وهي طريقة العرب، وممزوجًا بالتاريخ كابن خلدون[٢٦]، وابن بطوطة[٢٧]، وهي طريقة المغاربة.

---

(٢٠) لعله يقصد: أبا بكر محمد بن زكريا الرازي (٢٥١ - ٣١٣ هـ = ٨٦٥ - ٩٢٥م): فيلسوف، من الأئمة في صناعة الطب. عكف على الطب والفلسفة في كبره، فنبغ واشتهر. انظر ترجمته في «الأعلام» [٨/ ١٣٠] للزركلي.

(٢١) هو محمد بن محمد بن الحسن، أبو جعفر، نصير الدين الطوسي (٥٩٨ - ٦٧٣هـ، ١٢٠١ - ١٢٧٤م) فيلسوف فارسي، له شأن في العلوم العقلية والرّياضيات والفلك. ولد في طوس قرب نيسابور. كَتب بالعربية وله مصنفات كثيرة، منها في الفلسفة وفي المنطق وفي التّصوّف وسواها. انظر: ترجمته في «الأعلام» [٧/ ٣٠] للزركلي.

(٢٢) هو محمد بن محمد بن محمد الغَزَالي الطوسي، أبو حامد (٤٥٠ - ٥٠٥ هـ، ١٠٥٨ - ١١١١م) فيلسوف ومُتكلّم صوفي. لُقّب بحجة الإسلام. من مؤلّفاته: تهافت الفلاسفة، إحياء علوم الدّين، المنقذ من الضّلال.. انظر: ترجمته في «الأعلام» [٧/ ٢٢] للزركلي.

(٢٣) لعله يقصد: عليّ بن الحسين بن عبد العالي الكركي العاملي، أبا الحسن، الملقّب بالمحقق الثاني (٨٦٨ - ٩٤٠ هـ، ١٤٦٣ - ١٥٣٤ م) مجتهد أصولي. فارسي الأصل، وُلد في سورية، وعمل مستشارًا للشاه طهماس بن إسماعيل الصّفوي، له كتب منها « شرح القواعد»، وشروح ورسائل وحواشٍ كثيرة. انظر: ترجمته في «الأعلام» [٤/ ٢٨١] للزركلي.

(٢٤) هو أبو العلاء أحمد بن عبد الله بنِ سليمان، التنوخيُّ المعري (٣٦٣ - ٤٥٠ هـ، ٩٧٣ - ١٠٥٨ م) الشاعر الفليسوف المشهور. . انظر: ترجمته في «الأعلام» [١/ ١٥٧] للزركلي.

(٢٥) هو أبو الطّيب أحمد بن الحسين المتنبي (٣٠٣ - ٣٥٤ هـ، ٩١٥ - ٩٦٥ م) الشاعر الحكيم، وأحد مفاخر الأدب العربيّ. له الأمثال السائرة والحكم البالغة والمعاني المبتكرة. وفي علماء الأدب مَنْ يعدُّه أشعر الإسلاميين. انظر: ترجمته في «الأعلام» [١/ ١١٥] للزركلي.

(٢٦) هو أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن خلدون (٧٣٢ - ٨٠٩ هـ،١٣٣٢ - ١٤٠٦ م) الفيلسوف المؤرخ، العالم الاجتماعي البحاثة، واضع عِلْم الاجتماع ومنهج التأريخ والعمران. انظر: ترجمته في «الأعلام» [٣/ ٣٣٠] للزركلي.

(٢٧) هو محمد بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم اللواتي الطنجي، أبو عبد الله، ابن بطوطة (٧٠٤ - ٧٨٠ هـ، ١٣٠٤ - ١٣٧٨ م) الرَّحّالة المغربي المؤرخ. وُلد في طنجة، وطاف العالم في تسع وعشرين سنة. وهو صاحب الرحلة المشهورة: «تحفة النُظّار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار». وقد قدَّمنا لها وعلّقنا عليها وطبعتْها دار الكتاب العربي في حُلّة قشيبة. انظر: ترجمة ابن بطوطة في «الأعلام» [٦/ ٢٣٥] للزركلي.

أمّا المتأخِّرون من أهل أوروبا، ثمَّ أمريكا، فقد توسَّعوا في هذا العِلْم وألّفوا فيه كثيرًا وأشبعوه تفصيلًا، حتَّى إنّهم أفردوا بعض مباحثه في التّأليف بمجلّدات ضخمة، وقد ميَّزوا مباحثه إلى سياسة عمومية، وسياسة خارجية، وسياسة إدارية، وسياسة اقتصادية، وسياسة حقوقية، إلخ. وقسَّموا كلًا منها إلى أبواب شتَّى وأصول وفروع.

وأمّا المتأخِّرون من الشرقيين، فقد وُجِدَ من التُّرْك كثيرون ألّفوا في أكثر مباحثه تآليف مستقلّة وممزوجة مثل: أحمد جودت باشا[٢٨]، وكمال بك[٢٩]، وسليمان باشا[٣٠]، وحسن فهمي باشا[٣١]، والمؤلّفون من العرب قليلون ومقِلُّون، والذين يستحقّون

---

(٢٨) هو أحمد جودت باشا بن إسماعيل بن علي (١٢٣٨ - ١٣١٣هـ، ١٨٢٢ - ١٨٩٥م) مُؤرِّخ وسياسي عثماني، بلغاري الأصل. ساهم في (التنظيمات) وحرَّر مجلة (إقدام). وترأس لجنة تأليف (مجلة الأحكام العدلية). وهو صاحب (تاريخ جودت) بالتركية اثنا عشر مجلدا. وتوفي بالأستانة. انظر: ترجمته في «الأعلام» [١/ ١٠٨] للزركلي.

(٢٩) كمال محمد نامق (١٢٥٦ - ١٣٠٦ هـ، ١٨٤٠ - ١٨٨٨ م). أديب تركي من الأحرار، كان لأدبه دورٌ بارز في القومية التّركية، وخاصة في روايته (الوطن). اسمه الحقيقي محمد كمال، أما اسم نامق فقد أطلقه عليه بعض الشعراء. قال عنه عبد الوهاب عزام: «أبو الأدب التركي الحديث الذي نزل من أفكار الترك وقلوبهم منزلة لم ينزلها غيره». انظر المزيد عنه: في مقالة عبد الوهاب عزام: « في الأدب الشرقي. نامق كمال». المنشورة في «مجلة الرسالة» العدد ١١ - بتاريخ: (١٥ - ٦ - ١٩٣٣م.).

(٣٠) هو سليمان (باشا) بن عبد الله بن يحيى الباروني الطرابلسي. (١٨٢٧ - ١٣٥٩ هـ، ١٨٧٠ - ١٩٤٠ م). : زعيم سياسي مجاهد، انتقد السياسة العثمانية. من مؤلفاته: «الأزهار الرياضية في أئمة وملوك الإباضية ». انظر: ترجمته في «الأعلام» [٣/ ١٢٩] للزركلي.

(٣١) معدود من المناضلين الأتراك ضدّ السّلطة العثمانية.. وكان من جملة الأحرار -كذا يلقبونهم!- الذين انضموا إلى حزب مدحت باشا التركي، حتى أصبح من الوزراء. والكلام عنه طويل الذيل. انظر عنه: مقالة: «الانقلاب العثماني وتركيا الفتاة» للأستاذ محمد روحي الخالدي المقدسي. المنشور في «مجلة المنار» [١١/ ٦٤٦] بتاريخ: (رمضان - ١٣٢٦هـ - أكتوبر - ١٩٠٨م).

الذِّكْر منهم فيما نعلم: رفاعة بك[٣٢]، وخير الدّين باشا التّونسي[٣٣]، وأحمد فارس[٣٤]، وسليم البستاني[٣٥]، والمبعوث المدني[٣٦].

ولكنْ؛ يظهر لنا أنّ المحرِّرين السّياسيين من العرب قد كثروا، بدليل ما يظهر من منشوراتهم في الجرائد والمجلات في مواضع كثيرة.

---

(٣٢) هو رفاعة رافع بن بدوي بن علي الطهطاوي (١٢١٦ - ١٢٩٠ هـ، ١٨٠١ - ١٨٧٣ م) عالم مصري، معدود من أركان نهضة مصر العلمية في العصر الحديث. أنشأ جريدة (الوقائع المصرية) وألف وترجم عن الفرنسية كتبا كثيرة. من أشهر كتبه: «تخليص الإبريز في تلخيص باريس». انظر: ترجمته في «الأعلام» [٣/ ٢٩] للزركلي.

(٣٣) هو خير الدين (باشا) التونسي: (١٢٣٧ - ١٣٠٨ هـ، ١٨٢١ - ١٨٩٠ م) وزير، مؤرخ، من رجال الإصلاح الإسلامي. شركسيّ الأصل. نشأ رقيقًا، وتعلم بعض اللغات وتقلد مناصب عالية آخرها الوزارة. وكان من دعاة التغريب المعروفين. انظر: ترجمته في «الأعلام» [٢/ ٣٢٧] للزركلي.

(٣٤) هو أحمد فارس بن يوسف بن منصور الشدياق (١٢١٩ - ١٣٠٦ هـ، ١٨٠٤ - ١٨٨٨ م) عالم باللغة والأدب ، أنشأ صحيفة (الجوائب). كان نصرانيا فأسلم . وتوفي بالأستانة، ونقل جثمانه إلى لبنان. انظر: ترجمته في «الأعلام» [١/ ١٩٣] للزركلي.

(٣٥) هو سليم بن بطرس بن بولس بن عبد الله بن كرم البستاني(١٢٥٦ - ١٣٠٢ هـ، ١٨٤٨ - ١٨٨٤ م) باحث، من الكُتّاب. ساعد أباه في إنشاء جريدة (الجنان) ثم (الجنة) وكتب بحوثا كثيرة في (دائرة المعارف - ط) لأبيه، وكان سريع الخاطر، قليل النوم. انظر: ترجمته في «الأعلام» [٣/ ١١٦] للزركلي.

(٣٦) قال عنه الأستاذ محمد جمال طحان في تعليقه على «طبائع الاستبداد» [ص/١٥]: «ربما يكون أحد المشاركين في مؤتمر (أم القرى) الذي تخيَّله الكواكبي في كتابه الذي يحمل الاسم نفسه. وَوَضْعُ الاسم هنا يدلُّ على طرافة الكواكبي ونزعته إلى السخرية التي توضَّحت في أسلوبه الصحفي، كما لاحظنا سابقًا، وقد حرَّف اسم المُحقّق المدني إلى المبعوث. وهذه الملاحظة تُعَزّز القول إنَّ كتاب طبائع الاستبداد جاء بعد كتاب أم القرى».

ولهذا، لاح لهذا العاجز [٣٧] أنْ أُذكّر حضراتهم على لسان بعض الجرائد العربية بموضوع هو أهمّ المباحث السّياسية، وقلَّ مَنْ طرَق بابَه منهم إلى الآن، فأدعوهم إلى ميدان المسابقة في خير خدمة يُنيرون بها أفكار إخوانهم الشرقيين وينبِّهونهم - لاسيما العرب منهم - لما هم عنه غافلون، فيفيدونهم بالبحث والتّعليل وضرْبِ الأمثال والتّحليل (ما هو داء الشّرق وما هو دواؤه؟).

ولمّا كان تعريف علم السّياسة بأنّه هو «إدارة الشّؤون المشتركة بمقتضى الحكمة» يكون بالطّبع أوّل مباحث السّياسة وأهمّها بحْث (الاستبداد)؛ أي التّصرُّف في الشّؤون المشتركة بمقتضى الهوى.

وإنّي أرى أنّ المتكلِّم في الاستبداد عليه أن يلاحظ تعريف وتشخيص ((ما هو الاستبداد؟ ما سببه؟ ما أعراضه؟ ما سَيْرُه؟ ما إنذاره؟ ما دواؤه؟)) وكلُّ موضوع من ذلك يتحمّل تفصيلات كثيرة، وينطوي على مباحث شتّى من أمهاتها: ما هي طبائع الاستبداد؟ لماذا يكون المستبدُّ شديد الخوف؟ لماذا يستولي الجُبْن على رعية المستبدّ؟ ما تأثير الاستبداد على الدّين؟ على العلْم؟ على المجد؟ على المال؟ على الأخلاق؟ على التَّرقِّي؟ على التّربية؟ على العمران؟

مَنْ هم أعوان المستبدّ؟ هل يُتَحمَّل الاستبداد؟ كيف يكون التّخلص من الاستبداد؟ بماذا ينبغي استبدال الاستبداد؟

قبل الخوض في هذه المسائل يمكننا أن نشير إلى النّتائج التي تستقرُّ عندها أفكار الباحثين في هذا الموضوع، وهي نتائج متّحدة المدلول مختلفة التعبير على حسب اختلاف المشارب والأنظار في الباحثين، وهي:

---

(٣٧) يعني نفسه.

يقول المادي [٣٨]: الدّاء: القوة، والدّواء: المقاومة.

ويقول السّياسي: الدّاء: استعباد البَرِيَّة [٣٩]، والدّواء: استرداد الحرّيّة.

ويقول الحكيم: الدّاء: القدرة على الاعتساف، والدّواء: الاقتدار على الاستنصاف.

ويقول الحُقُوقي: الدّاء: تغلُّبُ السّلطة على الشّريعة، والدّواء: تغليب الشّريعة على السُّلطة.

ويقول الرَّبَّاني: الدّاء: مشاركة الله في الجبروت، والدّواء: توحيد الله حقًّا.

وهذه أقوال أهل النظر، و أمّا أهل العزائم[٤٠]:

فيقول الأَبِيُّ: الدّاء: مدُّ الرّقاب للسلاسل، والدّواء: الشّموخ عن الذّل.

ويقول المَتِين: الدّاء: وجود الرّؤساء بلا زِمام [٤١]، والدّواء: ربْطُهم بالقُيود الثِّقال[٤٢].

ويقول الحُرّ: الدّاء: التّعالي على النّاس باطلًا، والدّواء: تذليل المتكبّرين.

ويقول المُفادي[٤٣]: الدّاء: حبُّ الحياة، والدّواء: حبُّ الموت.

---

(٣٨) هو الذي لا يؤمن إلا بالمادة ولا يُحرِّر الأشياء إلا عن طريق المادة.

(٣٩) البرية: هم الناس.

(٤٠) أهل العزائم: هم أهل العمل.

(٤١) بلا زمام: يعني بلا قيود أو مراقبة.

(٤٢) الثقال: يعني الثقيلة. وهي القوانين والدساتير ونحوها.
القيود الثّقال: أي، جعل سلطة الرّؤساء مُقيَّدة بالقوانين.

(٤٣) قال الأستاذ جمال طحان في تعليقه على «طبائع الاستبداد»: «وقد أحسن الكواكبي باختيار كلمة (المفادي) على وزن مجاهد ومقاتل، بدلًا من (الفدائي) التي ينصرف معناها إلى وصف التكتيك القتالي، وصفًا للفعل. أما المفادي فهو الذي يفتدي بنفسه مبادئه أو وطنه».

ما هو الاستبداد

الاستبدادُ لغةً هو: غرور المرء برأيه، والأَنَفَة عن قبول النّصيحة، أو الاستقلال في الرّأي وفي الحقوق المشتركة.

ويُراد بالاستبداد عند إطلاقه استبداد الحكومات خاصّةً؛ لأنّها أعظم مظاهر أضراره التي جعلتْ الإنسان أشقى ذوي الحياة. وأما تحكُّم النّفس على العقل، وتحكُّم الأب والأستاذ والزّوج، ورؤساء بعض الأديان، وبعض الشركات، وبعض الطّبقات؛ فيُوصف بالاستبداد مجازًا أو مع الإضافة.

الاستبداد في اصطلاح السّياسيين هو: تَصَرُّف فرْد أو جَمْع في حقوق قوم بالمشيئة وبلا خوف تَبِعة، وقد تَطرُق[٤٤] مزيدات على هذا المعنى الاصطلاحي فيستعملون في مقام كلمة (استبداد) كلمات: استعباد، واعتساف، وتسلُّط، وتحكُّم. وفي مقابلتها كلمات: مساواة، وحِسٌّ مشترك، وتكافؤ، وسلطة عامة.

ويستعملون في مقام صفة (مستبدّ) كلمات: جبّار، وطاغية، وحاكمٌ بأمْره، وحاكم مُطْلَق. وفي مقابلة(حكومة مستبدّة) كلمات: عادلة، ومسؤولة، ومقيّدة، ودستورية. ويستعملون في مقام وصف الرّعية (المُسْتَبَدُّ عليهم) كلمات: أسْرَى، ومستصغرين، وبؤساء، ومُسْتَنْبَتِين[٤٥]، وفي مقابلتها: أحرار، وأُبَاة، وأحياء، وأعزّاء.

---

(٤٤) بمعنى: تدخل.

(٤٥) مُسْتَنْبَتِين: يعني تدَبُّ الحياة فيهم كالنبات.

هذا تعريف الاستبداد بأسلوب ذِكْر المرادفات والمقابلات، وأمّا تعريفه بالوصف فهو: أنّ الاستبداد صفة للحكومة المطلقة العَنَان فعْلًا أو حكمًا، التي تتصرّف في شؤون الرّعية كما تشاء بلا خشية حساب ولا عقاب محقَّقَين.

وتفسير ذلك هو كون الحكومة إمّا هي غير مُكلّفة بتطبيق تصرُّفها على شّريعة، أو على أمثلة تقليدية، أو على إرادة الأمّة، وهذه حالة الحكومات المُطلقة. أو هي مقيّدة بنوعٍ من ذلك، ولكنّها تملك بنفوذها إبطال قوّة القيْد بما تهوَى، وهذه حالة أكثر الحكومات التي تُسمّي نفسها بالمقيّدة أو بالجمهورية.

وأشكال الحكومة المستبدّة كثيرة ليس هذا البحث محلُّ تفصيلها. ويكفي هنا الإشارة إلى أنّ صفة الاستبداد، كما تشمل حكومة الحاكم الفرد المطلق الذي تولّى الحكم بالغَلَبة[٤٦] أو الوِراثة، تشمل أيضًا الحاكم الفرْد المقيَّد المُنْتَخب متى كان غير مسؤول، وتشمل حكومة الجمْع ولو منتخبًا؛ لأنَّ الاشتراك في الرّأي لا يدفع الاستبداد، وإنَّما قد يعدّله الاختلاف نوعًا، وقد يكون عند الاتّفاق أضرّ من استبداد الفرد. ويشمل أيضًا الحكومة الدّستورية المُفرَّقة فيها بالكُلِّيَّة قوَّة التشريع عن قوَّة التَّنفيذ وعن قوَّة المراقِبة؛ لأنَّ الاستبداد لا يرتفع ما لم يكن هناك ارتباط في المسؤولية، فيكون المُنَفِّذُون مسؤولين لدى المُشَرِّعين، وهؤلاء مسؤولين[٤٧] لدى الأمَّة، تلك الأمَّة التي تعرف أنَّها صاحبة الشّأن كلّه، وتعرف أنْ تُراقِب وأنْ تتقاضى الحساب.

وأشدّ مراتب الاستبداد التي يُتَعوَّذ بها من الشّيطان هي حكومة الفرْد المطْلَق، الوارث للعرش، القائد للجيش، الحائز على سلطة دينية.

---

(٤٦) بالغلبة: يعني بالقوة والقهر.

(٤٧) هي خبر «فيكون» المذكور قبلها بكلمات.

ولنا أنْ نقول كلّما قلَّ وَصْفٌ منْ هذه الأوصاف؛ خفَّ الاستبداد إلى أنْ ينتهي بالحاكم المُنتَخَب المُوقَّتْ المسؤول فعلًا. وكذلك يخفُّ الاستبداد ـ طبعًا ـ كلّما قلَّ عدد نفوس الرَّعية، وقلَّ الارتباط بالأملاك الثّابتة، وقلَّ التّفاوت في الثّروة وكلّما ترقَّى الشّعب في المعارف.

إنَّ الحكومة من أيّ نوع كانت لا تخرج عن وصْف الاستبداد؛ ما لم تكن تحت المراقبة الشَّديدة والاحتساب الّذي لا تسامح فيه، كما جرى في صدر الإسلام في ما نُقِم على عثمان، ثمَّ على عليّ رضي الله عنهما، وكما جرى في عهد هذه الجمهورية الحاضرة[٤٨] في فرنسا في مسائل النّياشين وبناما ودريفوس[٤٩].

ومن الأمور المقرَّرة طبيعةً وتاريخًا أنَّه؛ ما من حكومة عادلة تأمن المسؤولية والمؤاخذة بسبب غفلة الأمّة أو التَّمكُّن من إغفالها إلا وتُسارع إلى التَّلبُّس بصفة الاستبداد، وبعد أنْ تتمكَّن فيه لا تتركه وفي خدمتها إحدى الوسيلتين العظيمتين:

---

(٤٨) قال الأستاذ محمد جمال الطحان في تعليقه على «طبائع الاستبداد»: «والمقصود هو حكومة فرنسا في أواخر القرن التّاسع عشر وأول العشرين، والمسائل هي قضايا استطاع أصحابها – بسبب الحرية السائدة في فرنسا – إثارة الرأي العام، ورفع الظّلم عنهم وتحقيق العدالة. ».

(٤٩) قال الأستاذ محمد جمال الطحان في تعليقه على «طبائع الاستبداد»: «والإشارة – هنا – إلى الأحداث التي رافقت منح امتياز قناة (بنما) الملاحية. وقضية ديرفوس التي بدأت عام (١٨٩٤ م) حينما كُشِف عن برنامج أُرسل على الماجور شفارتزكوبن، الملحق العسكري الألماني بباريس، ومعه قائمة بالوثائق السرية الفرنسية التي وَعَدَ كاتب البرنامج بتقديمها. وأدانت المحكمة العسكرية الكابتن ألفرد دريفوس (١٨٥٩ – ١٩٣٥) وهو ضابط فرنسي يهودي، اتُّهم بالخيانة العظمى، وحُكم عليه بالسجن مدى الحياة عام: (١٨٩٤) بجزيرة الشيطان، ثمَّ أعيدت محاكمته، بضغط من الجماهير عام: (١٨٩٦)، فبُرّئ، ورُدَّ إليه اعتباره عام: (١٩٠٦).. ».

جهالة الأمَّة، والجنود المنظَّمة. وهما أكبر مصائب الأمم وأهمّ معائب الإنسانية، وقد تخلَّصتِ الأمم المُتمدِّنة ـ نوعًا ما ـ من الجهالة، ولكنْ؛ بُلِيَتْ بشدة الجُنْدية الجَبْرية العمومية؛ تلك الشّدة التي جعلتها أشقى حياةً من الأمم الجاهلة، وألصق عارًا بالإنسانية من أقبح أشكال الاستبداد، حتَّى ربَّما يصحّ أن يقال: إنَّ مخترع هذه الجُنْدية إذا كان هو الشّيطان؛ فقد انتقم من آدم في أولاده أعظم ما يمكنه أنْ ينتقم!

نعم؛ إذا ما دامت هذه الجندية التي مضى عليها نحو قرنَيْن إلى قرن آخر أيضًا تنْهك تجلُّد الأمم، وتجعلها تسقط دفعة واحدة. ومن يدري كم يتعجب رجال الاستقبال مِن تَرَقِّي العلوم في هذا العصر ترقِّيًا مقرونًا باشتداد هذه المصيبة التي لا تترك محلًا لاستغراب إطاعة المصريين للفراعنة في بناء الأهرامات سُخْرة[٥٠]؛ لأنَّ تلك لا تتجاوز التّعب وضياع الأوقات، وأمّا الجندية فتُفسد أخلاق الأمّة؛ حيثُ تُعلِّمها الشّراسة والطّاعة العمياء والاتِّكال، وتُميت النّشاط وفكرة الاستقلال، وتُكلِّف الأمّة الإنفاق الذي لا يطاق؛ وكُلُّ ذلك منصرف لتأييد الاستبداد المشؤوم: استبداد الحكومات القائدة لتلك القوَّة من جهة، واستبداد الأمم بعضها على بعض من جهة أخرى.

ولنرجع لأصل البحث فأقول: لا يُعْهَد في تاريخ الحكومات المدنية استمرار حكومة مسؤولة مدَّة أكثر من نصف قرن إلى غاية قرن ونصف، وما شذَّ من ذلك سوى الحكومة الحاضرة في إنكلترا، والسّبب يقظة الإنكليز الذين لا يُسْكِرهم انتصار، ولا يُخْمِلهم انكسار، فلا يغفلون لحظة عن مراقبة ملوكهم، حتَّى أنَّ الوزارة هي تنتخب للملك خَدَمَهُ وحَشَمَهُ فضلًا عن الزّوجة والصّهر، وملوك الإنكليز الذين فقدوا منذ قرون كلَّ شيء ما عدا التّاج، لو تسنَّى الآن لأحدهم

---

(٥٠) أي: سخرية وإذلالا.

الاستبداد لَغَنِمَهُ حالًا، ولكنْ؛ هيهات أنْ يظفر بِغرَّة من قومه يستلم فيها زِمام الجيش.

أمّا الحكومات البدويّة التي تتألَّف رعيتها كلّها أو أكثرها من عشائر يقْطُنون[٥١] البادية، يسهل عليهم الرّحيل والتَّفرّق متى مسَّتْ حكومتُهم حرّيّتهم الشّخصية، وسامتْهم ضَيمًا[٥٢]، ولم يقووا على الاستنصاف؛ فهذه الحكومات قلّما اندفعت إلى الاستبداد.

وأقرب مثال لذلك أهل جزيرة العرب، فإنَّهم لا يكادون يعرفون الاستبداد من قبل عهد ملوك تُبَّع وحِمْيَر وغسَّان[٥٣] إلى الآن إلاّ فترات قليلة.

وأصل الحكمة في أنَّ الحالة البدوية بعيدة بالجملة عن الوقوع تحت نِيرِ[٥٤] الاستبداد، وهو أنَّ نشأة البدويّ نشأة استقلالية؛ بحيث كلُّ فرد يمكنه أنْ يعتمد في معيشته على نفسه فقط، خلافًا لقاعدة الإنسان المدنيّ الطبع، تلك القاعدة التي أصبحت سخرية عند علماء الاجتماع المتأخِّرين، القائلين بأنَّ الإنسان من الحيوانات التي تعيش أسْرابًا في كهوف ومسارح مخصوصة، وأمّا الآن فقد صار من الحيوان الذي متى انتهت حضانته؛ عليه أنْ يعيش مستقلًا بذاته، غير متعلّق بأقاربه وقومه كلّ الارتباط، ولا مرتبط ببيته وبلده كلّ التّعلُّق، كما هي معيشة أكثر الإنكليز والأمريكان الذين يفتكر الفرْد منهم أنَّ تعلُّقه بقومه وحكومته ليس بأكثر من رابطة شريك في شركة اختيارية، خلافًا للأمم التي تتبع حكوماتها حتى فيما تدين.

---

(٥١) يعني: يسكنون.

(٥٢) الضيم: هو الأذى والمكروه.

(٥٣) هذه أسماء ممالك كانت في غابر الأزمان.

(٥٤) النير: بمعنى النار. وهو لغة بعض القبائل في «النار» يقولون عنها: «نير».

النّاظر في أحوال الأمم يرى أنَّ الأُسَراء[٥٥] يعيشون متلاصقين متراكمين، يتحفَّظُ بعضهم ببعض من سطوة الاستبداد، كالغنم تلتفُّ حول بعضها إذا ذَعَرها الذّئبُ، أمّا العشائر والأمم الحُرّة المالك أفرادها الاستقلالَ النّاجز فيعيشون مُتَفرِّقين.

وقد تكلَّم بعض الحكماء ـ لا سيَّما المتأخِّرون منهم ـ في وصْف الاستبداد ودوائه بجُمَل بليغة بديعة تُصوِّر في الأذهان شقاء الإنسان، كأنَّها تقول له هذا عدوُّك فانظر ماذا تصنع، ومن هذه الجُمَل قولهم:

«المستبدّ: يتحكَّم في شؤون النّاس بإرادته لا بإرادتهم، ويحكمهم بهواه لا بشريعتهم، ويعلم من نفسه أنَّه الغاصب المتعدِّي فيضع كعْب رِجْله على أفواه الملايين من النَّاس يسدُّها عن النّطق بالحقّ والتّداعِي لمطالبته».

«المستبدُّ: عدوّ الحقّ، عدوّ الحريَّة وقاتلهما، والحق أبو البشر، والحرّيّة أمّهم، والعوام صِبْيَة أيْتام لا يعلمون شيئًا، والعلماء هم إخوتهم الرّاشدون، إنْ أيقظوهم هبُّوا، وإنْ دعوهم لبُّوا، وإلا فيتَّصل نومهم بالموت».

«المستبدّ: يتجاوز الحدّ ما لم يرَ حاجزًا من حديد، فلو رأى الظّالم على جنْب المظلوم سيفًا لَمَا أقدم على الظّلم، كما يقال: الاستعداد للحرب يمنع الحرب».

«المستبدّ: إنسانٌ مستعدٌّ بالطّبع للشّر وبالإلْجاء للخير، فعلى الرّعية أنْ تعرف ما هو الخير وما هو الشّر فتُلْجِئ حاكمها للخير رغْم طبْعه، وقد يكفي للإلجاء مجرَّد الطَّلب إذا علم الحاكمُ أنَّ وراء القول فعلًا. ومن المعلوم أنَّ مجرد الاستعداد للفعل فعْلٌ يكفي شرَّ الاستبداد».

---

(٥٥) الأُسَراء: جمع أسير.

«المستبدّ: يودُّ أنْ تكون رعيته كالغنَم درًّا [٥٦] وطاعةً، وكالكلاب تذلُّلًا وتملُّقًا، وعلى الرَّعية أنْ تكون كالخيل إنْ خُدِمَت خَدمَتْ، وإنْ ضُرِبَتْ شَرسَتْ، وعليها أن تكون كالصقور لا تُلاعِب ولا يُستَأْثَر عليها بالصّيد كلِّه، خلافًا للكلاب التي لا فرق عندها أَطُعِمت أو حُرِمتْ حتَّى من العِظام.

نعم؛ على الرّعية أن تعرف مقامها: هل خُلِقت خادمة لحاكمها، تطيعه إنْ عدل أو جار، وخُلق هو ليحكمها كيف شاء بعدل أو اعتساف؟ أم هي جاءت به ليخدمها لا يستخدمها؟.. والرَّعية العاقلة تُقَيِّد وحْشَ الاستبداد بزِمام تستميتُ دون بقائه في يدها؛ لتأمن من بطشه، فإن شمَخ هزَّتْ به الزّمام وإنْ صال ربطتْه».

من أقبح أنواع الاستبداد استبداد الجهل على العلم، واستبداد النّفس على العقل، ويُسمَّى استبداد المرء على نفسه، وذلك أنَّ الله -جلّتْ نِعمُه- خَلَقَ الإنسان حرًّا، قائده العقل، فكفَرَ وأبَى إلا أنْ يكون عبدًا قائده الجهل. خَلَقَه وسخَّر له أمَّا وأبًا يقومان بأوَدِه [٥٧] إلى أن يبلغ أشدّه، ثمَّ جعل له الأرض أُمًّا والعمَل أبًا، فكَفَر وما رضي إلا أن تكون أمَّتُه أمَّه وحاكمه أباه.

خَلَقَ له إدراكًا ليهتدي إلى معاشه ويتّقي مُهْلكه، وعيْنَيْن ليبصر، ورجليْن ليسعى، ويَدَيْن ليعمل، ولسانًا ليكون تُرْجُمانًا عن ضميره، فكَفَرَ وما أحبَّ إلا أنْ يكون كالأبْله الأعمى، المُقْعَد، الأشَلّ، الكذوب، ينتظر كُلَّ شيْ من غيره، وقلَّما يُطْبق لسانُه جنانَه.

خَلَقَهُ منفردًا غير متَّصل بغيره ليملك اختياره في حركته وسكونه، فكَفَرَ وما استطاب إلا الارتباط في أرض محدودة سمَّاها الوطن، وتشابك بالنّاس ما استطاع اشتباك تظالُم لا اشتباك تعاون...

---

(٥٦) درًّا: أي تُدِرُّ اللبن وهي طائعة.

(٥٧) يعني: بقوته وتقويته.

خَلَقَه ليشكره على جعله عنصرًا حيًّا بعد أنْ كان ترابًا، وليلجأ إليه عند الفزع تثبيتًا للجَنان، وليستند عليه عند العزم دفعًا للتردُّد، وليثق بمكافأته أو مجازاته على الأعمال، فكَفَرَ وأبى شُكْرَه وخَلَطَ في دين الفطرة الصّحيح بالباطل ليغالط نفسه وغيره.

خَلَقَه يطلب منفعته جاعلًا رائده الوجدان، فكَفَرَ، واستحلَّ المنفعة بأي وجه كان، فلا يتعفّف عن محظور صغير إلا توصُّلًا لمُحرَّم كبير.

خلقه وبذل له مواد الحياة، من نور ونسيم ونبات وحيوان ومعادن وعناصر مكنوزة في خزائن الطّبيعة، بمقادير ناطقة بلسان الحال، بأنَّ واهب الحياة حكيم خبير جعل مواد الحياة أكثر لزومًا في ذاته، أكثر وجودًا وابتذالًا، فكَفَرَ الإنسانُ نعمةَ الله وأبى أن يعتمد كفالة رزقه، فوكَّلهُ ربُّه إلى نفسه، وابتلاه بظلم نفسه وظُلْم جنسه، وهكذا كان الإنسان ظلومًا كفورًا.

الاستبداد: يَدُ الله القويّة الخفيّة [٥٨] يصْفعُ بها رقاب الآبِقِين[٥٩] من جَنَّة عبوديَّته إلى جهنَّم عبودية المستبدِّين الذين يشاركون الله في عظمته ويعاندونه جهارًا، وقد ورد في الخبر: «الظّالم سيف الله ينتقم به، ثمَّ ينتقم منه»[٦٠]، كما جاء في أثرٍ آخر: «مَنْ أعان ظالمًا على ظلمه سَلَّطَه الله عليه»[٦١]، ولا شكَّ في أنَّ إعانة الظّالم تبتدئ من مجرَّد الإقامة على أرضه.

---

(٥٨) لعله يقصد: أن الاستبداد هو شيء قدَّره الله ليصفع به رقاب الآبقين ... إلخ. وإلا فلا يجوز أن يكون الاستبداد من صفات الله أو من آثار صفاته!

(٥٩) الآبقين: يعني الهاربين.

(٦٠) هذا من الأقوال السائرة. فليس حديثًا فيما نعلم. وقد أشار الشيخ الشعرواي في «تفسيره» [٣٩٤٦/٧] إلى هذا فقال: « ولذلك يقال: الظالم سيف الله في الأرض ينتقم به وينتقم منه».

(٦١) [حديث لا يصح] هذا قد ورد حديثًا عن النبي -صلى الله عليه وسلم- لكنه لا يصح عنه قط. كما بيَّنه الإمام الألباني في «السلسلة الضعيفة» [رقم/ ١٩٣٧].

الاستبداد: هو نار غضب الله[٦٢] في الدّنيا، والجحيم هو نار غضبه في الآخرة، وقد خلق الله النّار أقوى المطهِّرات، فَيُطَهِّر بها في الدّنيا دَنَسَ مَنْ خلقهم أحرارًا، وبَسَطَ لهم الأرض واسعة، وبذلَ فيها رزقهم، فكَفَروا بنعمته، ورضخوا للاستعباد والتَّظالم.

الاستبداد: أعظم بلاء، يتعجَّل الله به الانتقام من عباده الخاملين، ولا يرفعه عنهم حتَّى يتوبوا توبة الأنَفَة. نعم؛ الاستبداد أعظم بلاء؛ لأنَّه وباء دائم بالفِتن وجَدْبٌ مستمرٌّ بتعطيل الأعمال، وحريقٌ متواصلٌ بالسَّلْب والغصْب، وسيْلٌ جارفٌ للعمران، وخوفٌ يقطع القلوب، وظلامٌ يعمي الأبصار، وألَمٌ لا يفْتر، وصائلٌ لا يرْحم، وقصة سوء لا تنتهي.

وإذا سأل سائلٌ: لماذا يبتلي الله عبادَه بالمستبدِّين؟ فأبْلَغُ جواب مُسْكِت هو: إنَّ الله عادلٌ مطلقٌ لا يظلم أحدًا، فلا يُولِّي المستبدّ إلا على المستبدِّين. ولو نظر السّائل نظرة الحكيم المدقِّق لوجد كُلَّ فرد من أُسَراء الاستبداد مُستبدًّا في نفسه، لو قدر لجعل زوجته وعائلته وعشيرته وقومه والبشر كُلَّهم، حتَّى وربَّه الذي خلقَهُ تابعين لرأيه وأمره.

فالمستبِدُّون يتولاهم مستبدّ، والأحرار يتولاهم الأحرار، وهذا صريح معنى: «كما تكونوا يُوَلَّى عليكم»[٦٣].

ما أليقَ بالأسير في أرضٍ أن يتحوَّل عنها إلى حيثُ يملك حرّيّته، فإنَّ الكلب الطّليق خيرُ حياةً من الأسد المربوط.

---

(٦٢) لعله يقصد: أن الاستبداد هو شيء قدَّره الله في الأرض يتقاسمه الظالمون فيما بينهم، وإلا فلا يجوز أن يكون الاستبداد من صفات الله أو من آثار صفاته!

(٦٣) [حديث لا يصح] هذا حديث لا يصح عن النبي -صلى الله عليه وسلم- وقد ورد من طرق ضعيفة. كما بيَّنه الإمام الألباني في «السلسلة الضعيفة» [رقم/ ٣٢٠].

الاستبداد والدّين

تضافرتْ آراء أكثر العلماء النّاظرين في التّاريخ الطّبيعي للأديان، على أنَّ الاستبداد السّياسي مُتَوَلِّد من الاستبداد الدِّيني، والبعض يقول: إنْ لم يكنْ هناك توليد فهما أخوان؛ أبوهما التَّغلُّب وأمّهما الرّياسة، أو هما صِنْوان قويّان؛ بينهما رابطة الحاجة على التّعاون لتذليل الإنسان، والمشاكلة بينهما أنَّهما حاكمان؛ أحدهما في مملكة الأجسام والآخر في عالم القلوب.

والفريقان مصيبان بحكمهما بالنّظر إلى مَغْزَى أساطير الأوّلين، والقِسْم التّاريخي من التّوراة، والرّسائل المضافة إلى الإنجيل. ومخطئون في حقّ الأقسام التّعليمية الأخلاقية فيهما، كما هم مخطئون إذا نظروا إلى أنَّ القرآن جاء مؤيّدًا للاستبداد السّياسي.

وليس من العُذْر شيءٌ أنْ يقولوا: نحن لا ندرك دقائق القرآن نظرًا لخفائها علينا في طَيِّ بلاغته، ووراء العلم بأسباب نزول آياته؛ وإنَّما نبْني نتيجتنا على مقدِّمات ما نشاهد عليه المسلمين منذ قرون إلى الآن من استعانة مُستبدِّيهم بالدِّين.

يقول هؤلاء المُحرِّرون: إنَّ التَّعاليم الدّينية، ومنها الكتب السَّماويّة تدعو البشر إلى خشية قوّة عظيمة لا تُدرك العقول كُنْهَها، قوّة تتهدَّد الإنسان بكلّ مصيبة في الحياة فقط، كما عند البوذية واليهودية، أو في الحياة وبعد الممات، كما عند النّصارى والإسلام، تهديدًا ترتعد منه الفرائص فتخور القُوَى، وتنذهل منه العقول فتستسلم للخبَل والخمول، ثمَّ تفتح هذه التَّعاليم أبوابًا للنّجاة من تلك المخاوف نجاةً وراءها نعيمٌ مقيم، ولكنْ على تلك الأبواب حُجَّاب من البراهمة والكَهَنة

والقُسُوس[٦٤] وأمثالهم الذين لا يأذنون للنّاس بالدّخول ما لم يعظّموهم مع التّذلّلِ والصَّغَار[٦٥]، ويرزقوهم باسم نذْر أو ثمن غفران، حتَّى إنَّ أولئك الحُجَّاب في بعض الأديان يحجزون فيما يزعمون لقاء الأرواح ربِّها ما لم يأخذوا عنها مُكُوس[٦٦] المرور إلى القبور وفدْية الخلاص من مطهر الأعراف.

وهؤلاء المهيمنون على الأديان كم يرهِّبون النّاس من غضب الله وينذرونهم بحُلُول مصائبه وعذابه عليهم، ثمَّ يرشدونهم إلى أنْ لا خلاص ولا مناص لهم إلا بالالتجاء إلى سُكَّان القبور الذين لهم دالة[٦٧]، بل سطوة على الله فيحمونهم من غضبه.

ويقولون: إنَّ السّياسيين يبْنون كذلك استبدادهم على أساسٍ من هذا القبيل، فهم يسترهبون النّاس بالتّعالي الشّخصي والتّشامخ الحِسِّي، ويُذلِّلونهم بالقهر والقوّة وسلْبِ الأموال حتَّى يجعلونهم خاضعين لهم، عاملين لأجلهم، يتمتَّعون بهم كأنَّهم نوع من الأنعام التي يشربون ألبانها، ويأكلون لحومها، ويركبون ظهورها، وبها يتفاخرون.

ويرون أنَّ هذا التَّشاكل في بناء ونتائج الاستبدادَيْن؛ الدِّيني والسّياسي، جعلهما في مِثْل فرنسا خارج باريس مشتركَيْن في العمل، كأنَّهما يدان متعاونتان، وجعلهما في مثل روسيا مشتبكَيْنِ في الوظيفة، كأنَّهما اللوح والقلم يُسجِّلان الشقاء على الأمم.

ويُقرِّرون أنَّ هذا التَّشاكل بين القوّتَيْن ينجرُّ بعوام البشر- وهم السواد الأعظم - إلى نقطة أنْ يلتبس عليهم الفرْق بين الإله المعبود بحقّ وبين المستبدّ المُطاع بالقهر، فيختلطان في مضايق أذهانهم من حيث التَّشابه في استحقاق مزيد التَّعظيم، والرِّفعة

---

(٦٤) القُسُوس: جمع القَسِّ. وجَمْع القِسِّيس: قِسِّيسُونَ. انظر: «تاج العروس» مادة: «ق س س».

(٦٥) الصَّغَار: هو الهَوَان ونحوه.

(٦٦) المُكُوس: هي كالضرائب الآن.

(٦٧) دالة: من الإدلال. انظر: «لسان العرب» [١١/ ٤٨٣].

عن السّؤال وعدم المؤاخذة على الأفعال؛ بناءً عليه؛ لا يرون لأنفسهم حقًّا في مراقبة المستبدّ لانتفاء النّسبة بين عظمته ودناءتهم.

وبعبارة أخرى: يجد العوام معبودهم وجبَّارهم مشتركَيْنِ في كثيرٍ من الحالات والأسماء والصِّفات، وهم ليس من شأنهم أنْ يُفرِّقوا مثلًا بين (الفعَّال المُطْلَق)، والحاكم بأمره، وبين (لا يُسأل عمّا يفعل) وغير مسؤول، وبين (المُنْعِم) ووليّ النِّعَم، وبين (جلَّ شأنه) وجليل الشَّأن.

بناءً عليه؛ يُعظِّمون الجبابرة تعظيمهم لله، ويزيدون تعظيمهم على التَّعظيم لله؛ لأنَّه حليمٌ كريم، ولأنَّ عذابه آجِلٌ غائبٌ، وأمَّا انتقام الجبَّار فعاجلٌ حاضر. والعوام ـ كما يقال ـ عقولهم في عيونهم، يكاد لا يتجاوز فِعلُهم المحسوس المُشاهَد، حتَّى يصحّ أنْ يُقال فيهم: لولا رجاؤهم بالله، وخوفهم منه فيما يتعلَّق بحياتهم الدّنيا، لَمَا صلّوا ولا صاموا، ولولا أمَلُهم العاجل، لَمَا رجَّحوا قراءة الدّلائل والأوراد على قراءة القرآن، ولا رجَّحوا اليمين بالأولياء ـ المُقرَّبين كما يعتقدون ـ على اليمين بالله.

وهذه الحال هي التي سهَّلت في الأمم الغابرة المنحطَّة دعوى بعض المستبدِّين الألوهية على مراتب مختلفة، حسب استعداد أذهان الرَّعية، حتَّى يُقال: إنَّه ما من مستبدٍّ سياسيّ إلى الآن إلا ويتَّخذ له صفة قدسيّة يشارك بها الله، أو تعطيه مقامَ ذي علاقة مع الله.

ولا أقلَّ من أنْ يتَّخذ بِطانة من خَدَمَةِ الدِّين يعينونه على ظلم النَّاس باسم الله، وأقلُّ ما يعينون به الاستبداد، تفريق الأمم إلى مذاهب وشيع متعادية تقاوم بعضها بعضًا، فتتهاتر قوَّة الأمّة ويذهب ريحها، فيخلو الجوّ للاستبداد لِيَبِيضَ ويُفرِّخ، وهذه سياسة الإنكليز في المستعمرات، لا يُؤيِّدها شيء مثل انقسام الأهالي على أنفسهم، وإفنائهم بأسْهم بينهم بسبب اختلافهم في الأديان والمذاهب.

ويُعَلِّلُون أنَّ قيام المستبدِّين من أمثال (أبناء داود) [٦٨] و(قسطنطين)[٦٩] في نشر الدِّين بين رعاياهم، وانتصار مثل (فيليب الثّاني) الأسباني و(هنري الثّامن) الإنكليزي للدِّين، حتَّى بتشكيل مجالس (إنكيزيسيون)[٧٠] وقيام الحاكم الفاطميّ[٧١] والسَّلاطين الأعاجم في الإسلام بالانتصار لغلاة الصُّوفيّة، وبنائهم لهم التَّكايَا، لم يكنْ إلا بقصْد الاستعانة بممسوخ الدِّين وببعض أهله المغفَّلين على ظلْم المساكين، وأعظم ما يُلائم مصلحة المستبدّ، ويُؤيّدها أنَّ النّاس يتلقّون قواعده وأحكامه بإذعان بدون بحث وجدال، فيودّون تأليف الأمّة على تلقّي أوامرهم بمثل ذلك، ولهذا القصد عيْنه، كثيرًا ما يحاولون بناء أوامرهم أو تفريعها على شيءٍ من قواعد الدِّين.

ويحكمون بأنَّ بين الاستبدادَيْن: السّياسيّ والدّينيّ مقارنة لا تنفكُّ متى وُجِدَ أحدهما في أمّة جرَّ الآخر إليه، أو متى زال، زال رفيقه، وإنْ صلح، أي ضعف الأوّل، صلح، أي ضعف الثّاني.

ويقولون: إنَّ شواهد ذلك كثيرةٌ جدًّا لا يخلو منها زمانٌ ولا مكان. ويُبَرْهِنون على أنَّ الدّين أقوى تأثيرًا من السّياسة إصلاحًا وإفسادًا، ويُمثّلون بالسّكسون؛ أي الإنكليز والهولنديين والأميركان والألمان الذين قبِلُوا البُروتُسْتَنْتيّة، فأثَّر التّحرّر

---

(٦٨) هو داود النبي عليه السلام. وأبناؤه: هم الذين خلفوه في حكم الدّولة.

(٦٩) هو اسم عدد من أباطرة الرومان.

(٧٠) مجالس (إنكيزيسيون): هي- كما قال الأستاذ محمد جمال الطحان في تعليقه على «طبائع الاستبداد»-: «محاكم لمعاقبة المتّهمين بالزّندقة أو مخالفة بعض أحكام الدّين، وفيها أنواع العذاب (محاكم التفتيش)».

(٧١) هو منصور بن نزار (الحاكم بأمر الله) (٩٨٥ - ١٠٢١) سادس الخلفاء الفاطميين في مصر. كان متألّهًا، غريب الأطوار، مشتغلا بعلوم الفلسفة والنظر في النجوم. انظر ترجمته في: «الإعلام» [٧/٣٠٥] للزركلي.

الدّيني في الإصلاح السّياسي والأخلاق أكثر من تأثير الحرّيّة المطلقة السّياسيّة في جمهور اللاتين؛ أي الفرنسيين والطَّلْيان والاسبانيول والبرتغال.

وقد أجمع الكتّاب السّياسيون المُدقِّقون، بالاستناد على التّاريخ والاستقراء، من أنَّ ما من أمّة أو عائلة أو شخص تَنَطَّعَ في الدّين أي تشدَّد فيه إلا واختلَّ نِظَام دنياه وخسر أولاده[٧٢] وعُقْباه.

والحاصل أنَّ كل المدقِّقين السّياسيين يرون أنَّ السّياسة والدّين يمشيان متكاتفَيْن، ويعتبرون أنَّ إصلاح الدّين هو أسهل وأقوى وأقرب طريق للإصلاح السّياسي.

وربما كان أوّل من سلك هذا المسلك؛ أي استخدم الدِّين في الإصلاح السّياسي؛ هم حكماء اليونان، حيث تحيَّلوا على ملوكهم المستبدِّين في حملهم على قبول الاشتراك في السّياسة بإحيائهم عقيدة الاشتراك في الألوهية، أخذوها عن الآشُوريين، ومزَجوها بأساطير المصريين بصورة تخصيص العدالة بإله، والحرب بإله، والأمطار بإله، إلى غير ذلك من التّوزيع، وجعلوا لإله الآلهة حقّ النّظارة عليهم، وحقّ التّرجيح عند وقوع الاختلاف بينهم.

ثمَّ بعد تمكُّن هذه العقيدة في الأذهان بما أُلبِسَتْ من جلالة المظاهر وسِحْر البيان سَهُلَ على أولئك الحكماء دفعهم النّاس إلى مطالبة جبابرتِهم بالنّزول من مقام الانفراد، وبأنْ تكون إدارة الأرض كإدارة السّماء، فانصاع ملوكهم إلى ذلك مُكْرهين. وهذه هي الوسيلة العظمى التي مكَّنتْ اليونان أخيرًا من إقامة جمهوريات أثينا وإسبارطة، وكذلك فعَل الرّومان. وهذا الأصل لم يزل المِثال القديم لأصول توزيع الإدارة في الحكومات الملكية والجمهوريات على أنواعها إلى هذا العهد.

---

(٧٢) كذا في المطبوع! ولعل الصواب: «أوْلَاه».

إنَّما هذه الوسيلة؛ أي التَّشريك، فضلًا عن كونها باطلة في ذاتها، نَتَجَ عنها ردُّ فعلٍ أضرَّ كثيرًا، وذلك أنَّها فتحتْ للمشعوذين من سائر طبقات النّاس بابًا واسعًا لدعوى شيء من خصائص الألوهية، كالصّفات القُدسيّة والتّصرُّفات الرُّوحيّة، وكان قبل ذلك لا يتهجّم على مثلها غير أفراد من الجبابرة، كنمرود وإبراهيم وفرعون وموسى، ثمَّ صار يدَّعيها البرْهميّ والبادريّ والصُّوفيّ.

ولملائمة هذه المفسدة لطباع البشر من وجوه كثيرة ـ ليس بحثنا هذا محلّها ـ انتشرت وعمّتْ وجنَّدتْ جيشًا عَرَمَرَمًا[٧٣] يخدم المستبدِّين.

وقد جاءت التّوراة بالنَّشاط، فخلَّصتهم من خمول الاتِّكال بعد أن بلغ فيهم أنْ يُكلِّفوا الله ونبيّه يقاتلان عنهم، وجاءتهم بالنّظام بعد فوضى الأحلام، ورُفِعتْ عقيدة التّشريك، مُستبدلةً ـ مثلًا ـ أسماء الآلهة المتعدِّدة بالملائكة، ولكنْ لم يرضَ ملوك آل «كوهين» بالتَّوحيد فأفسدوه.

ثمَّ جاء الإنجيل بسلسبيل الدَّعَة والحِلْم، فصادف أفئدةً محروقةً بِنار القساوة والاستبداد، وكان أيضًا مؤيّدًا لناموس التّوحيد، ولكنْ لم يقْوَ دُعاته الأوَّلون على تفهيم تلك الأقوام المنحطَّة، الذين بادروا لقبول النَّصرانيّة قبل الأمم المترقِّية، أنَّ الأُبُوَّة والبُنُوّة صفتان مجازيَّتان يُعبَّر بهما عن معنى لا يقبله العقل إلا تسليمًا؛ كمسألة «القدَر» التي ورثت الإسلامية التّفلسف فيها عن أديان اليهود وأوهام اليونان.

ولهذا تلقَّت تلك الأمم الأُبُوَّة والبُنُوّة بمعنى توالُد حقيقيّ؛ لأنّه أقرب إلى مداركهم البسيطة التي يصعب عليها تناول ما فوق المحسوسات، ولأنّهم كانوا قد ألِفوا الاعتقاد في بعض جبابرتهم الأوّلين أنَّهم أبناء الله، فكَبُرَ عليهم أنْ يعتقدوا في موسى عليه السّلام صفة هي دون مقام أولئك الملوك. ثمَّ لمّا انتشرت النّصرانية

---

(٧٣) يعني: ضخمًا.

ودخلها أقوام مختلفون، تلبَّست ثوبًا غير ثوبها، كما سائر الأديان التي سلفتها، فتوسَّعت برسائل بولس ونحوها، فامتزجت بأزياء وشعائر وثنية للرُّومان والمصريين مُضافة على شعائر الإسرائيليين وأشياء من الأساطير وغيرها، وأشياء من مظاهر الملوك ونحوها.

وهكذا صارت النّصرانية تُعظِّم رجال الكهنوت إلى درجة اعتقاد النّيابة عن الله والعصمة عن الخطأ وقوَّة التَّشريع، ونحو ذلك ممّا رفضه أخيرًا البروتستان؛ أي الرّاجعون في الأحكام لأصل الإنجيل.

ثمَّ جاء الإسلام مُهذِّبًا لليهوديّة والنّصرانيّة، مُؤسَّسًا على الحكمة والعزْم، هادمًا للتّشريك بالكُلِّية، ومُحكِمًا لقواعد الحرّيّة السّياسية المتوسّطة بين الدِّيموقراطية والأرستقراطية، فأسَّس التّوحيد، ونزَعَ كلَّ سلطة دينية أو تغلُّبيّة تتحكَّم في النّفوس أو في الأجسام، ووضع شريعة حكمة إجمالية صالحة لكلِّ زمان وقوم ومكان، وأوجد مدنيّة فطريّة سامية، وأظهر للوجود حكومة كحكومة الخلفاء الرّاشدين التي لم يسمح الزّمان بمثال لها بين البشر حتَّى ولم يخلفهم فيها بين المسلمين أنفسهم خلَف؛ إلا بعض شواذ؛ كعمر بن عبد العزيز والمهتدي العبّاسيّ[٧٤] ونور الدّين الشّهيد[٧٥].

---

(٧٤) هو محمد بن هارون الواثق بن محمد المُعْتَصِم بن هارون الرشيد، أبو عبد الله، المهتدي بالله، العباسي (٢٢٢ - ٢٥٦ هـ = ٨٣٧ - ٨٧٠ م) كان حميد السيرة، فيه شجاعة، يأخذ مذهب عمر بن عبد العزيز في الصلاح. مدة خلافته أحد عشر شهرا وأيام. مات مقتولا. انظر: «الأعلام» [٧/ ١٢٨] للزركلي.

(٧٥) هو محمود بن زنكي (عماد الدين) ابن أقسنقر، أبو القاسم، نور الدين، الملقب بالملك العادل (٥١١ - ٥٧٠ هـ، ١١١٧- ١١٧٤م) ملك الشام وديار الجزيرة ومصر. وهو أعدل ملوك زمانه وأجلّهم وأفضلهم. كان معتنيا بمصالح رعيته، مداوما للجهاد، يباشر القتال بنفسه، موفّقًا في حروبه مع الصليبيين، أيام زحفهم على بلاد الشام. انظر: «الأعلام» [٧/ ١٧٠] للزركلي.

فإنَّ هؤلاء الخلفاء الرّاشدين فهموا معنى ومغزى القرآن النّازل بلغتهم، وعملوا به واتّخذوه إمامًا، فأنشأوا حكومة قضَتْ بالتّساوي حتّى بينهم أنفسهم وبين فقراء الأمّة في نعيم الحياة وشظفها، وأحدثوا في المسلمين عواطف أخوة وروابط هيئة اجتماعية اشتراكية لا تكاد توجد بين أشقاء يعيشون بإعالة أبٍ واحد وفي حضانة أمٍّ واحدة، لكُلٍّ منهم وظيفة شخصية، ووظيفة عائلية، ووظيفة قومية.

على أنَّ هذا الطّراز السّامي من الرّياسة هو الطِّراز النّبوي المُحمَّدي الذي لم يخلفه فيه حقًّا غير أبي بكر وعمر، ثمَّ أخذ بالتّناقص، وصارت الأمّة تطلبه وتبكيه من عهد عثمان إلى الآن، وسيدوم بكاؤها إلى يوم الدِّين إذا لم تنتبه لاستعواضه بطراز سياسيّ شُوريّ؛ ذلك الطّراز الذي اهتدتْ إليه بعض أمم الغرب؛ تلك الأمم التي، لربّما يصحُّ أنْ نقول، قد استفادت من الإسلام أكثر ممّا استفاده المسلمون.

وهذا القرآن الكريم مشحونٌ بتعاليم إماتة الاستبداد وإحياء العدل والتّساوي حتّى في القصص منه؛ ومن جملتها قول بلقيس ملكة سبأ من عرب تُبَّع تخاطبُ أشراف قومها: ﴿قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ۞ قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ۞ قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾(٧٦).

فهذه القصة تُعلِّم كيف ينبغي أن يستشير الملوك الملأ؛ أي أشراف الرَّعية، وأن لا يقطعوا أمرًا إلا برأيهم، وتشير إلى لزوم أن تُحفظ القوّة والبأس في يد الرّعية، وأن يخصص الملوك بالتّنفيذ فقط، وأن يكرموا بنسبة الأمر إليهم توقيرًا، وتقبّح شأن الملوك المستبدين.

---

(٧٦) النّمل: ٣٢ - ٣٤.

ومن هذا الباب أيضًا ما ورد في قصة موسى عليه السلام مع فرعون في قوله تعالى: ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ * يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴾[٧٧]؛ أي قال الأشراف بعضهم لبعض: ماذا رأيكم؟ (قالوا) خطابًا لفرعون وهو قرارهم: ﴿أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ * يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴾[٧٨][٧٩]؛ ثمّ وصف مُذاكراتهم بقوله تعالى: ﴿ فَتَنَٰزَعُوٓاْ أَمْرَهُم ﴾[٨٠]؛ أي رأيهم ﴿بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجْوَىٰ ﴾[٨١]؛ أي أفْضتْ مذاكراتهم العلنية إلى النّزاع فأجروا مذاكرة سِرِّية طِبْقَ ما يجري إلى الآن في مجالس الشورى العمومية.

بناءً على ما تقدّم؛ لا مجال لرمي الإسلامية بتأييد الاستبداد مع تأسيسها على مئات الآيات البيِّنات التي منها قوله تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾[٨٢]؛ أي في الشأن، ومن قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ﴾[٨٣]؛ أي أصحاب الرأي والشأن منكم، وهم العلماء والرؤساء على ما اتّفق عليه أكثر المفسِّرين، وهم الأشراف في اصطلاح السياسيين. ومما يؤيِّد هذا المعنى أيضًا قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ ﴾[٨٤]؛ أي ما شأنه، وحديث «أميري من الملائكة جبريل»[٨٥]؛ أي مُشاوري.

---

(٧٧) الأعراف ١٠٩ - ١١٠.

(٧٨) الساحر: هو الداهية المقتدر على التمويه والخداع. (ك).

(٧٩) الأعراف ١١١ - ١١٢.

(٨٠) طه: ٦٢.

(٨١) طه: ٦٢.

(٨٢) آل عمران: ١٥٩.

(٨٣) النّساء: ٥٩.

(٨٤) هود: ٩٧.

(٨٥) [حديث ضعيف] أخرجه الخطابي في «غريب الحديث» [١/ ١٢٢] بإسناد منقطع عن عمر بن الخطاب به ...

وليس بالأمر الغريب ضياع معنى ﴿وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ﴾ على كثير من الأفهام بتضليل علماء الاستبداد الذي يحرِّفون الكَلِمَ عن مواضعه، وقد أغفلوا معنى قيْد ﴿مِنكُمْ﴾؛ أي المؤمنين منعًا لتطرُّق أفكار المسلمين إلى التفكير بأنّ الظالمين لا يحكمونهم بما أنزل الله، ثمَّ التدرُّج إلى معنى آية ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ﴾[٨٦]، أي بالتساوي؛ ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ﴾ [٨٧]، أي التساوي؛ ثمّ ينتقل إلى معنى آية: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [٨٨]. ثمَّ يستنتج عدم وجوب طاعة الظالمين وإن قال بوجوبها بعض الفقهاء المُمالِئين[٨٩] دفعًا للفتنة التي تحصد أمثالهم حصدًا. والأغرب من هذا جسارتهم[٩٠] على تضليل الأفهام في معنى (أمر) في آية:

---

(٨٦) النّحل: ٩٠.

(٨٧) النساء: ٥٨.

(٨٨) المائدة: ٤٤.

(٨٩) هذا عدوان لا يضر إلا المؤلف نفسه! والذين أوجبوا طاعة وليِّ الأمر وإنْ كان ظالمًا هم أكثر الصحابة والسلف الصالح وأئمة الهُدَى، ومعهم أحاديث صحيحة ثابتة يستندون إليها لا محالة، منها حديث حذيفة بن اليمان قال: «قلت يا رسول الله إنا كنا بشر فجاء الله بخير فنحن فيه فهل من وراء هذا الخير شر؟ قال (نعم) قلت هل من وراء ذلك الشر خير؟ قال (نعم) قلت فهل من وراء ذلك الخير شر؟ قال (نعم) قلت كيف؟ قال (يكون بعدي أئمة لا يهتدون بهداي ولا يستنون بسنتي وسيقوم فيهم رجال قلوبهم قلوب الشياطين في جثمان إنس) قال قلت كيف أصنع؟ يا رسول الله إن أدركت ذلك؟ قال (تسمع وتطيع للأمير وإن ضرب ظهرك وأخذ مالك فاسمع وأطع».
أخرجه مسلم [رقم/ ١٨٤٧]. وسنده عنده منقطع، لكن للفقرة الأخيرة من الحديث طرق أخرى بعضها ثابت. وهناك أحاديث أخرى صحيحة في الصبر على الحكام الظلمة، والسمع لهم والطاعة في المعروف. وعدم الخروج عليهم ما أقاموا الصلاة.

(90)إنما تكون الجسارة ممن يتكلم في فقهاء الأمة بالجسارة! فضلا عن سوء فهمه لكلامهم! ومن أين للمؤلف أن يفهم جسارة الفقهاء مِنْ نِسْبَتهم الأمر في الآية إلى الله؟ ومرادهم بالأمر هنا: هو الأمر الأزَلِي القدَري الذي كتبه الله في لوحه المحفوظ قبل أن يخلق الوجود. =

﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴾[٩١]؛ فإنهم لم يبالوا أن ينسبوا إلى الله الأمر بالفسق.[٩٢].. تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا.

والحقيقة في معنى (أمرنا) هنا أنَّه بمعنى أمرِنا - بكسر الميم أو تشديدها-؛ أي جعلنا أمراءها مترفيها ففسقوا فيها (أي ظلموا أهلها) فحقّ عليهم العذاب؛ أي (نزل بهم العذاب).

والأغرب من هذا وذاك؛ أنَّهم جعلوا للفظة العدل معنىً عُرفيًا؛ وهو الحكم بمقتضى ما قاله الفقهاء؛ حتى أصبحت لفظة العدل لا تدلُّ على غير هذا المعنى، مع أنّ العدل لغةً للتسوية؛ فالعدل بين النّاس هو التسوية بينهم، وهذا هو المراد في آية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ﴾[٩٣]، وكذلك القصاص في آية: ﴿ وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾[٩٤]،

= قال العلامة ابن كثير في «تفسيره» [٣/ ٤٨]: «اختلف المفسرون في معناها- أي في الآية المشار إليها- فقيل : معناها أمرنا مترفيها ففسقوا فيها أمرًا قدريًّا كقوله تعالى: { أتاها أمرنا ليلا أو نهارا } فإن الله لا يأمر بالفحشاء قالوا : معناه أنه سخرهم إلى فعل الفواحش فاستحقوا العذاب وقيل: معناه أمرناهم بالطاعات ففعلوا الفواحش فاستحقوا العقوبة».

قلت: فاتضح بذلك معنى كلام بعض المفسرين الذين يتهمهم المؤلف - جسارة منه - بالجسارة! على أن للمفسرين أقوالا أخرى في معنى الأمر الوارد في الآية. فانظره في كتب التفاسير عند تفسير الآية المذكورة.

(٩١) الإسراء: ١٦.

(٩٢) لا يلزم ذلك من كلامهم لو أمعنتَ النظر فيه أيها اللائم العاذل؟ ونحن نقول بأن الله: «خالق الخير والشر» ولا يلزم هذا أن يكون الله آمرًا بالشر! والفسق من جملة الشر. فالأمر المذكور في الآية: هو الأمر الأزلي القَدَري الذي سجَّله الله في لوحه المحفوظ أزلًا قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة. ولكن أين للمؤلف أن يفقه هذا وهو مضطر مدفوع إلى الغضِّ من الفقهاء أبدًا!

وقد كان لديه مندوحة في التنظير لاستبداد بعض الفقهاء بغير ما ذكره البتة.

(٩٣) النحل: ٩٠.

(٩٤) البقرة: ١٧٩.

المتواردة مطلقًا، لا المعاقبة بالمثل فقط على ما يتبادر إلى أذهان الأُسَراء، الذين لا يعرفون للتّساوي موقعًا في الدِّين غير الوقوف بين يدي القضاة.

وقد عدّد الفقهاء من لا تُقبَل شهادتهم لسقوط عدالتهم، فذكروا حتّى من يأكل ماشيًا في الأسواق؛ ولكنّ شيطان الاستبداد أنساهم أن يُفسِّقوا الأمراء الظالمين فيردّوا شهادتهم[٩٥].

ولعلّ الفقهاء يُعذَرون بسكوتهم هنا مع تشنيعهم على الظالمين في مواقع أخرى؛ ولكن، ما عذرهم في تحويل معنى الآية: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾[٩٦]، إلى أنّ هذا الفرض هو فرض كفاية لا فرض عين؟ [٩٧] والمراد منه سيطرة أفراد المسلمين بعضهم على بعض؛ لا إقامة فئة تسيطر على حُكّامهم كما اهتدت إلى ذلك الأمم الموفقة للخير؛ فخصّصتْ منها جماعات باسم مجالس نُوَّاب، وظيفتها السيطرة والاحتساب على الإدارة العمومية: السياسية والمالية والتشريعية، فتخلّصوا بذلك من شآمة الاستبداد. أليست هذه السيطرة وهذا الاحتساب بأهم من السيطرة على الأفراد؟ ومَنْ يدري من أين جاء

---

(٩٥) ما زال المؤلف يعجبه هذا المسلك الوعِر في تجريح الفقهاء بما لم يُحِطْ بعلمه خُبْرًا؟ والفقهاء عندما ردوا شهادة الفُسَّاق لم يستثنوا منهم أحدًا أصلا! ولا ريب أن الأمراء الظالمين داخلون في جملة الفساق عندهم، فلا حاجة بعد ذلك في أن ينص الفقهاء على هذا صراحة.

(٩٦) آل عمران: ١٠٤.

(٩٧) عذرهم موجود في الآية نفسها لولا أن المؤلف لا يُحْسِن الاهتداء إليه؟ فقوله تعالى: {وَلْتَكُن مِّنكُمْ} فظاهر قوله ((منكم)) أنها للتبعيض . وعلى قول من يجعلها زائدة أى بمعنى: ((لتكونوا)) فإن ذلك متحقق أيضًا بوجود طائفة تأمر وتنهى فهو كالجهاد. فهذا – مع غيره- هو مأخذ بعض الفقهاء -وليس كلهم- في كون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فرض كفاية كالجهاد. فلْيَسْكُن من المؤلف جأشُه.

فقهاء الاستبداد[٩٨] بتقديس الحُكّام عن المسؤولية حتى أوجبوا لهم الحمد إذا عدلوا، وأوجبوا الصّبر عليهم إذا ظلموا، وعدّوا كلّ معارضة لهم بَغْيًا يبيح دماء المعارضين؟!

اللهم إنّ المستبدِّين وشركاءهم قد جعلوا دينك غير الدِّين الذي أنزلتَ، فلا حول ولا قوّة إلا بك!

كذلك ما عُذْر الصوفية الذين جعلتهم الإنعامات على زاوياتهم[٩٩] أن يقولوا: لا يكون الأمير الأعظم إلا وليًّا من أولياء الله، ولا يأتي أمرًا إلا بإلهام من الله، وإنه يتصرَّف في الأمور ظاهرًا، ويتصرَّف قُطْبُ الغَوْث باطنًا! ألَا سبحان الله ما أحْلَمَه!

نعم؛ لولا حلْم الله لخسف الأرض بالعرب؛ حيثُ أرسل لهم رسولًا من أنفسهم أسّس لهم أفضل حكومة أُسِّسَتْ في النّاس، جعل قاعدتها قوله: «كلُّكم راعٍ وكلُّكم مسؤولٌ عن رعيّته»[١٠٠]؛ أي كلٌّ منكم سلطانٌ عام ومسؤول عن الأمة.

وهذه الجملة التي هي أسمى وأبلغ ما قاله مُشرِّع سياسي من الأولين والآخرين، فجاء من المنافقين من حرَّف المعنى عن ظاهره وعموميته؛ إلى أنَّ المسلم

---

(٩٨) ما زال المؤلف يتطاول على الفقهاء بالخوض فيما لا يُحْسِن؟ وقولُ كثير من الفقهاء بعدم الخروج على الحكام الظلمة أو الفسقة لعدة اعتبارات شرعية لا يُسوِّغ هذا للمؤلف أن يرميهم بالاستبداد لولا أن لفظ الاستبداد قد غلب عليه فصار يرمي به كل أحد! وهذا هو الاستبداد بعينه!

ولا ريب أن الفقهاء هم أعلم الناس بالله وبأحكامه، وأنهم لا يَصْدُرون في فتاويهم إلا عن حجة من الله والرسول، وقد سبق وذكرنا بعض أدلتهم على قولهم بالصبر على الحُكّام الظلَمة وعدم الخروج عليهم بالسيف. على أن هذا ليس قول جميعهم، بل فيهم من يرى جواز الخروج على الحاكم الظالم مطلقا. ويبدو أن المؤلف لا علم عنده بهذا الاختلاف بين الفقهاء، فضلا عن أصول مآخذهم في ذلك. سامحه الله وغفر له هذا الاستبداد!

(٩٩) زاوياتهم: جمع زاوية. وهي الأماكن التي يقومون فيها بطقوس شعائرهم التي ما أنزل الله ببعضها من سلطان.

(١٠٠) [صحيح] أخرجه البخاري [رقم/ ٢٤١٩] ومسلم [رقم/ ١٨٢٩]. من حديث ابن عمر.

راعٍ على عائلته ومسؤول عنها فقط. كما حرَّفوا معنى الآية: ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ﴾[١٠١]، على ولاية الشهادة دون الولاية العامة. وهكذا غيّروا مفهوم اللغة، وبدَّلوا الدِّين، وطمسوا على العقول حتى جعلوا النّاس ينسون لغة الاستقلال، وعزّة الحريّة؛ بل جعلوهم لا يعقلون كيف تحكم أمّةٌ نفسها بنفسها دون سلطانٍ قاهر.

وكأنّ المسلمين لم يسمعوا بقول النّبي عليه السلام: «النّاس سواسية كأسنان المشط، لا فضل لعربيٍّ على أعجمي إلا بالتّقوى»[١٠٢]. وهذا الحديث أصحُّ الأحاديث[١٠٣] لمطابقته للحكمة ومجيئه مفسِّرًا الآية ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾[١٠٤]، فإنَّ الله جلَّ شأنه ساوى بين عباده مؤمنين وكافرين في المكرمة بقوله: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ﴾[١٠٥]، ثمَّ جعل الأفضلية في الكرامة للمتَّقين فقط.

ومعنى التَّقوى لغةً ليس كثرة العبادة، كما صار إلى ذلك حقيقة عُرْفِية غرسها علماء الاستبداد[١٠٦] القائلين في تفسير (عند الله)؛ أي في الآخرة دون الدنيا؛ بل

---

(١٠١) التوبة: ٧١.

(١٠٢) هما حديثان. الأول: « النّاس سواسية كأسنان المُشط» فهذا حديث ضعيف لا يصح عن النبي – صلى الله عليه وسلم- كما بينه الإمام الألباني في «السلسلة الضعيفة» [رقم/ ٥٩٦]. والثاني قوله: « لا فضل لعربيٍّ على أعجمي إلا بالتّقوى» فهذا حديث قد حسنَّه الإمام الألباني في «غاية المرام» [رقم/ ٣٠٨].

(١٠٣) لعله يقصد من حيث المعنى. وإلا فشطر الحديث الأول لا يصح البتة!

(١٠٤) الحجرات: ١٣.

(١٠٥) الإسراء: ٧٠.

(١٠٦) يبدو أن علة «الاستبداد» أصابت المؤلف فما صار يُحسنُ أن يضعها في موضعها؟ فتراه يرمي مخالفه بالاستبداد لمجرد المخالفة! وهذا هو الاستبداد بعينه وفمِه ورأسه؟ على أن أكثر العلماء والمفسرين على أن العندية في قوله تعالى: «إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ» هي في الدنيا والآخرة. والذين خصوا العندية بالآخرة فقط قصدوا الأجر والجزاء. لكن المؤلف لا يحسن أن يفهم هذا! فتراه يتهور ويرمي العلماء بالاستبداد فيما لا يستطيع إثبات البرهان عليه حتى يستقيمَ نَنَبُ الضبِّ!

التَّقوى لغةً هي الاتِّقاء؛ أي الابتعاد عن رذائل الأعمال احترازًا من عقوبة الله. فقوله: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ كقوله: إنَّ أفضل النّاس أكثرهم ابتعادًا عن الآثام وسوء عواقبها.

وقد ظهر مما تقدَّم أنَّ الإسلامية مؤسسة على أصول الحرّية برفْعها كلّ سيطرة وتحكُّم، بأمرها بالعدل والمساواة والقسط والإخاء، وبحضِّها على الإحسان والتحابُب. وقد جعلت أصول حكومتها: الشّورى الأريستوقراطية؛ أي شورى أهل الحلِّ والعقد في الأمة بعقولهم لا بسيوفهم. وجعل أصول إدارة الأمة: التشريع الديمقراطي؛ أي الاشتراكي حسبما يأتي فيما بعد.

وقد مضى عهد النبي (عليه السلام) وعهد الخلفاء الراشدين على هذه الأصول بأتمّ وأكمل صورها. ومن المعلوم أنّه لا يوجد في الإسلامية نفوذ ديني مطلقًا في غير مسائل إقامة شعائر الدين، ومنها القواعد العامة التشريعية التي لا تبلغ مائة قاعدة وحُكْم، كلُّها من أجَلّ وأحسن ما اهتدى إليه المشرِّعون من قبل ومن بعد. ولكن واأسفاه على هذا الدين الحرّ، الحكيم، السهل، السمح، الظاهر فيه آثار الرقي على غيره من سوابقه.

الدينُ الذي رفع الإصر والأغلال، وأباد الميزة[١٠٧] والاستبداد. الدينُ الذي ظلمه الجاهلون، فهجروا حكمة القرآن ودفنوها في قبور الهوان.

الدّينُ الذي فقَد الأنصار الأبرار والحكماء الأخيار، فسطَا عليه المستبدون والمترشِّحون للاستبداد، واتَّخذوا وسيلة لتفريق الكلمة وتقسيم الأمة شيَعًا، وجعلوه آلهة لأهوائهم السياسية، فضيّعوا مزاياه، وحيّروا أهله بالتقريع والتوسيع، والتشديد والتشويش، وإدخال ما ليس منه فيه كما فعل قبلهم أصحاب الأديان

---

(١٠٧) أي: التمايز.

السائرة، حتى جعلوه دينًا حرجًا يتوهّم الناس فيه أنَّ كلَّ ما دوَنَّه المتفنِّون بين دفَّتي كتاب يُنسَب لاسم إسلامي هو من الدين، وبمقتضاها أن لا يقوى على القيام بواجباته وآدابه ومزيداته، إلا من لا علاقة له بالحياة الدنيا؛ بل أصبحت بمقتضاها حياة الإنسان الطويل العمر، العاطل عن كلِّ عمل، لا تفي بتعلُّم ما هي الإسلامية عجزًا عن تمييز الصحيح من الباطل من تلك الآراء المتشعبة التي أطال أهلها فيها الجدال والمناظرة؛ وما افترقوا إلا وكلٌّ منهم في موقفه الأول يظهر أنه ألزم خصمه الحجّة وأسكته بالبرهان؛ والحقيقة إنَّ كلًا منهم قد سكت تعبًا وكَلالًا من المشاغبة.

وبهذا التّشديد الذي أدخله على الدّين منافسو المجوس[١٠٨]؛ انفتح على الأمّة باب التلوُّم على النفس فضلًا عن محاسبة الحكام المنوط بهم قيام العدل والنِّظام. وهذا الإهمال للمراقبة، هو إهمال الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر، وقد أوسع لأمراء الإسلام مجال الاستبداد وتجاوزَ الحدود.

وبهذا وذاك ظهر حُكم حديث: «لتأمرنّ بالمعروف ولتنهونّ عن المنكر أو ليستعملنّ الله عليكم شراركم فليسومونكم سوء العذاب»[١٠٩]، وإذا تتبعنا سيرة أبي بكر وعمر رضي الله عنهما مع الأمّة، نجد أنّهما مع كونهما مفطورَيْن خير فطرة، ونائليْن التربية النبوية، لم تترك الأمة معهما المراقبة والمحاسبة، ولم تطعهما طاعةً عمياء.

وقد جمع بعضهم جملة مما اقتبسه وأخذه المسلمون عن غيرهم، وليس هو من دينهم بالنّظر إلى القرآن والمتواترات من الحديث وإجماع السلف الأول فقال:[١١٠]

---

(١٠٨) هذه عبارة شديدة! وليت المؤلف تنزَّه عن أمثاله في حق مَنْ يعلم؟

(١٠٩) [حديث ضعيف] ورد عن جماعة من الصحابة، ولا يصح منها شيء. وقد تكلم على بعضها: الإمام الألباني في «السلسلة الضعيفة» [رقم/ ٤٢٩٨].

(١١٠) قال الأستاذ محمد جمال الطحان في تعليقه على «طبائع الاستبداد»: «الإشارة – هنا – إلى ما ورد على لسان (المُحَقّق المدني) في الاجتماع الثّاني من (أم القرى)، إذ نلاحظ تشابهًا كبيرًا في وصف المقتبسات بين ما ورد هنا، وما ورد في (أم القرى)، وهذا دليلٌ آخرعلى أن (طبائع الاستبداد) كُتب بعد (أم القرى)..... ».

(اقتبسوا) من النصرانية مقام البابوية باسم الغوثية، و(ضاهوا) في الأوصاف والأعداد أوصاف وأعداد البطارقة، والكردينالية والشهداء والأساقفة، و(حاكوا) مظاهر القديسين وعجائبهم، والدعاة المبشّرين وصبرهم، والرّهبنات ورؤسائها، وحالة الأديرة وبادريتها. والرهبنات ورسومها والحميَّة وتوقيتها، و(قلّدوا) الوثنيين الرومانيين في الرّقص على أنغام الناي، والتغالي في تطييب الموتى والاحتفال الزائد في الجنائز وتسريح الذبائح معها، وتكليلها وتكليل القبور بالزهور.

و(شاكلوا) مراسم الكنائس وزينتها، والبِيَع واحتفالاتها، والترنُّحات ووزنها، والترنُّمات وأصولها، وإقامة الكنائس على القبور، وشدّ الرِّحال لزيارتها، والإسراج عليها، والخضوع لديها، وتعليق الآمال بسكانها. و(أخذوا) التبرّك بالآثار: كالقدح والحربة والدستار، من احترام الذخيرة وقدسية العكاز، وكذلك إمرار اليد على الصّدر عند ذكر الصالحين، من إمرارها على الصدر لإشارة الصليب.

و(انتزعوا) الحقيقة من السرّ، ووحْدة الوجود من الحلول، والخلافة من الرَّسْم، والسُّقيا من تناول القُرْبان، والمولد من الميلاد، وحفْلته من الأعياد، ورفْع الأعلام من حمل الصلبان، وتعليق ألواح الأسماء المُصدَّرة بالنّداء على الجدران من تعليق الصّور والتماثيل، والاستفاضة والمراقبة من التوجّه بالقلوب انحناءً أمام الأصنام.

و(منعوا) الاستهداء من نصوص الكتاب والسُنَّة كحظر الكاثوليك التفهّم من الإنجيل، وامتناع أحبار اليهود عن إقامة الدّليل من التوراة في الأحكام. و(جاءوا) من المجوسية باستطلاع الغيب من الفلك، وبخشية أوضاع الكواكب وباتّخاذ أشكالها شعارًا للمُلْك، وباحترام النار ومواقدها.

و(قلّدوا) البُوذِيين حرفًا بحرف في الطريق والرياضة وتعذيب الجسم بالنار والسلاح، واللعب بالحيّات والعقارب وشرب السموم، ودقّ الطبول والصُّنُوج

وجعل رواتب من الأدعية والأناشيد والأحزاب، واعتقاد تأثير العزائم ونداء الأسماء وحمل التمائم، إلى غير ذلك مما هو مُشاهد في بوذيي الهند ومجوس فارس والسّند إلى يومنا هذا.

وقد قيل إنّه نقله إلى الإسلامية: جون وست، وسلطان عليّ منلا، والبغدادي، وحاشية فلان الشيخ وفلان الفارسي، على أنّ إسناد ذلك إلى أشخاص معينين يحتاج إلى تثبيت. و(لفَّقوا) من الأساطير والإسرائيليات أنواعًا من القُرُبات، وعلومًا سمّوها لَدُنِّيات.

كذلك يُقال عن مُبْتدعي النصارى، من أنّ أكثر ما اعتبره المتأخرون منهم من الشعائر الدينية- حتى مشكلة التثليث- لا أصل له فيما ورد عن نفس المسيح عليه السلام؛ إنما هو مَزِيدات وترتيبات قليلها مُبتدَع وكثيرها مُتَّبَعٌ.

وقد اكتشف العلماء الآثاريُّون من الصفائح الحفْرية الهندية والآشورية ومن الصّحف التي وُجدَتْ في نواويس المصريين الأقدمين(١١١)، على مآخذ أكثرها. وكذلك وجدوا لمزيدات التلمود، وبِدَع الأحبار أصولًا في الأساطير والآثار والألواح الآشورية، وترقّوا في التطبيق والتدقيق إلى أن وجدوا معظم الخرافات المضافة إلى أصول عامة الأديان في الشرق الأدنى مقتبسة من الوضعيات المنسوبة لنحل الشرق الأقصى، وقد كشفت الآثار أنّ الاستبداد أخفى تاريخ الأديان وجعل أخبار منشئها في ظلام مُطْبِق، حتّى إنَّ أعداء الأديان المتأخرين أمكنهم أن ينكروا أساسًا وجود موسى وعيسى عليهما السلام، كما شوَّش الاستبداد في المسلمين تاريخ آل البيت عليهم الرضوان؛ الأمر الذي تولَّد عنه ظهور الفِرَق التي تشيَّعت لهم كالإمامية والإسماعيلية والزِّيدية والحاكمية وغيرهم.

---

(١١١) يعني: الأهرامات.

والخلاصة أنّ البِدَع التي شوَّشت الإيمان وشوَّهت الأديان تكاد كُلُّها تتسلسل بعضها من بعض، وتتولّد جميعها من غرض واحد هو المراد، ألا وهو الاستعباد.

والنّاظر المدقِّق في تاريخ الإسلام يجد للمستبدّين من الخلفاء والملوك الأولين، وبعض العلماء الأعاجم، وبعض مقلّديهم من العرب المتأخرين أقوالًا افتروها على الله ورسوله تضليلًا للأمة عن سبيل الحكمة، يريدون بها إطفاء نور العلم وإطفاء نور الله، ولكن أبى الله إلا أن يتمّ نوره، فحفَظ للمسلمين كتابه الكريم الذي هو شمس العلوم وكنْز الحكم من أن تمسّه يد التحريف؛ وهي إحدى معجزاته لأنّه قال فيها: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾[112]، فما مسّه المنافقون إلا بالتأويل، وهذا أيضًا من معجزاته، لأنه أخبر عن ذلك في قوله: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ﴾[113].

وإني أُمثِّل للمطالِعين ما فعله الاستبداد في الإسلام، بما حجَر على العلماء الحكماء من أن يفسِّروا قسمَيْ الآلاء والأخلاق تفسيرًا مدقّقًا، لأنهم كانوا يخافون مخالفة رأي بعض الغُفَّل السالفين أو بعض المنافقين المقرَّبين المعاصرين، فيُكفَّرون فيُقتَلون.

وهذه مسألة إعجاز القرآن، وهي أهم مسألة في الدِّين لم يقدروا أن يُوفوها حقّها من البحث، واقتصروا على ما قاله فيها بعض السّلف قولًا مجملًا من أنّها قصور الطاقة عن الإتيان بمثله في فصاحته وبلاغته، وأنّه أخبر عن أنّ الرُّوم بعد غلَبهم سيُغْلَبون. مع أنه لو فُتحَ للعلماء ميدان التدقيق وحرية الرأي والتأليف، كما أُطْلق عنان التخريف لأهل التأويل والحُكْم، لأظهروا في ألوف من آيات القرآن

---

(١١٢) الحجر: ٩.

(١١٣) آل عمران: ٧.

ألوف آيات الإعجاز، ولرأوا فيه كلّ يوم آية تتجدد مع الزمان والحدثان تبرهن إعجازه بصدق قوله: ﴿وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾[114]، ولجعلوا الأمة تؤمن بإعجازه عن برهان وعيان لا مجرد تسليم وإذعان.

ومثال ذلك: أنَّ العلم كشف في هذه القرون الأخيرة حقائق وطبائع كثيرة تُعْزَى لكاشفيها ومخترعيها من علماء أوربا وأمريكا؛ والمدقق في القرآن يجد أكثرها ورد به التّصريح أو التلميح في القرآن منذ ثلاثة عشر قرنًا؛ وما بقيت مستورة تحت غشاء من الخفاء إلا لتكون عند ظهورها معجزة للقرآن شاهدة بأنّه كلام ربٍّ لا يعلم الغيب سواه؛ ومن ذلك أنّهم قد كشفوا أنّ مادة الكون هي الأثير، وقد وصف القرآن بدء التكوين فقال: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ﴾[115]، وكشفوا أنّ الكائنات في حركة دائمة دائبة والقرآن يقول: ﴿وَآيَةٌ لَّهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا﴾[116]، إلى أن يقول: ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾[117].

وحققوا أنَّ الأرض مُنْفتقةً في النظام الشمسي، والقرآن يقول: ﴿أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا﴾[118].

وحققوا أنَّ القمر منشقٌّ من الأرض، والقرآن يقول: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾[119]. ويقول: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ﴾[120].

---

(١١٤) الأنعام: ٥٩.
(١١٥) فصلت: ١١.
(١١٦) يس: ٣٣.
(١١٧) يس: ٤٠.
(١١٨) الأنبياء: ٣٠.
(١١٩) الأنبياء: ٤٤.
(١٢٠) القمر: ١.

وحققوا أنَّ طبقات الأرض سبع، والقرآن يقول: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾[١٢١].

وحققوا أنّه لولا الجبال لاقتضى الثِّقَل النوْعي أن تميدَ الأرض؛ أي ترتجّ في دوْرتها، والقرآن يقول: ﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾[١٢٢].

وكشفوا أنَّ سر التركيب الكيماوي- بل والمعنوي- هو تخالُف نسبة المقادير وضبْطها، والقرآن يقول: ﴿وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾[١٢٣].

وكشفوا أنَّ للجمادات حياة قائمة بماء التبْلُور والقرآن يقول: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾[١٢٤].

وحققوا أنّ العالم العضوي، ومنه الإنسان، ترقّى من الجماد، والقرآن يقول: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ﴾[١٢٥].

وكشفوا ناموس اللقاح العام في النبات، والقرآن يقول: ﴿خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ﴾[١٢٦] ويقول: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ﴾[١٢٧]، ويقول: ﴿ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾[١٢٨]. ويقول: ﴿وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾[١٢٩].

---

(١٢١) الطلاق: ١٢.
(١٢٢) النحل: ١٥.
(١٢٣) الرعد: ٨.
(١٢٤) الأنبياء: ٣٠.
(١٢٥) المؤمنون: ١٢.
(١٢٦) يس: ٣٦.
(١٢٧) طه: ٥٣.
(١٢٨) الحج: ٥.
(١٢٩) الرعد: ٣.

وكشفوا طريقة إمساك الظِّل؛ أي التصوير الشمسي، والقرآن يقول: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴾(١٣٠).

وكشفوا تسْيير السّفن والمركبات بالبخار والكهرباء والقرآن يقول، بعد ذكْره الدواب والجواري بالريح: ﴿ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ ﴾(١٣١).

وكشفوا وجود الميكروب، وتأثيره وغيره من الأمراض، والقرآن يقول: ﴿ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴾(١٣٢)؛ أي متتابعة متجمعة ﴿ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴾(١٣٣)؛ أي من طين المستنقعات اليابس. إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة المحققة لبعض مكتشفات علم الهيئة والنواميس الطبيعية. وبالقياس على ما تقدَّم ذكره؛ يقتضي أنَّ كثيرًا من آياته سينكشف سرُّها في المستقبل في وقتها المرهون، تجديدًا لإعجازه عمّا في الغيب ما دام الزمان وما كرَّ الجديدان؛ فلا بُدَّ أن يأتي يوم يكشف العلم فيه أنَّ الجمادات أيضًا تنمو باللقاح كما تشير إلى ذلك آية ﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ ﴾(١٣٤).

---

(١٣٠) الفرقان: ٤٥.

(١٣١) يس: ٤٢.

(١٣٢) الفيل: ٣.

(١٣٣) الفيل: ٤.

(١٣٤) الذّاريات: ٤٩.

الاستبداد والعلم

ما أشبه المستبدَّ في نسْبته إلى رعيته بالوصيّ الخائن القوي، يتصرّف في أموال الأيتام وأنفسهم كما يهوى ما داموا ضعافًا قاصرين؛ فكما أنّه ليس من صالح الوصيّ أن يبلغ الأيتام رُشْدهم، كذلك ليس من غرض المستبدّ أن تتنوَّر الرعية بالعِلْم.

لا يخفى على المستبدّ، مهما كان غبيًا، أنْ لا استعباد ولا اعتساف إلا ما دامت الرّعية حمقاء تخبُط في ظلامة جهل وتِيه عمْاء، فلو كان المستبدُّ طيرًا لكان خفّاشًا يصطاد هوام العوام في ظلام الجهل، ولو كان وحشًا لكان ابن آوى [١٣٥] يتلقّف دواجن الحواضر في غشاء الليل، ولكنّه هو الإنسان يصيد عالِمَه جاهلُهُ.

العلم قبْسةٌ من نور الله، وقد خلق الله النّور كشّافًا مُبْصرًا، يُولِّد في النفوس حرارةً وفي الرؤوس شهامةً، العلم نور والظلم ظلام، ومن طبيعة النّور تبديد الظّلام، والمتأمل في حالة كلِّ رئيس ومرؤوس يرى كلَّ سلطة الرئاسة تقْوَى وتضعف بنسبة نقصان علْم المرؤوس وزيادته.

المستبدُّ لا يخشى علوم اللغة، تلك العلوم التي بعضها يُقوِّم اللسان وأكثرها هزْلٌ وهذيان يضيع به الزمان، نعم؛ لا يخاف علم اللغة إذا لم يكن وراء اللسان حكمة حماس تَعْقِد الألْوية [١٣٦]، أو سحْر بيان يحلُّ عَقْد الجيوش؛ لأنه يعرف أنّ

---

(١٣٥) ابْن آوى: حَيَوَان من الفصيلة الْكَلْبِيَّة، وَهُوَ أصغَر حجما من الذِّئْب. انظر: «المعجم الوسيط» [١/ ٣٤].

(١٣٦) الألْوية: جمع لواء.

الزمان ضنينٌ بأن تلد الأمهات كثيرًا من أمثال: الكُمَيْت [١٣٧] وحسان [١٣٨] أو مونتيسكيو [١٣٩] وشيللار [١٤٠].

وكذلك لا يخاف المستبدُّ من العلوم الدينية المتعلِّقة بالمعاد، المختصة ما بين الإنسان وربه، لاعتقاده أنّها لا ترفع غباوةً ولا تزيل غشاوة، إنما يتلهَّى بها المتهوِّسون للعلم، حتى إذا ضاع فيها عمرهم، وامتلأتها أدمغتهم، وأخذ منهم الغرور، فصاروا لا يرون علمًا غير علمهم، فحينئذٍ يأمن المستبدُّ منهم كما يُؤمن شرُّ

---

(١٣٧) هو الكميت بن زيد بن خنس الأسدي، أبو المستهلّ (٦٠ - ١٢٦ هـ = ٦٨٠ - ٧٤٤ م) شاعر الهاشميين. من أهل الكوفة. اشتهر في العصر الأموي. وكان عالما بآداب العرب ولغاتها وأخبارها وأنسابها، ثقة في علمه، منحازا إلى بني هاشم، كثير المدح لهم. انظر: «الإعلام» [٥/ ٢٣٣] للزركلي.

(١٣٨) هو حسان بن ثابت بن المنذر الخزرجي الأنصاري، أبو الوليد (٠٠٠ - ٥٤ هـ = ٠٠٠ - ٦٧٤ م) الصحابي، شاعر النبي صلى الله عليه وسلم وأحد المخضرمين الذين أدركوا الجاهلية والإسلام. عاش ستين سنة في الجاهلية، ومثلها في الإسلام. وكان من سكان المدينة. قال أبو عبيدة: فضل حسان الشعراء بثلاثة: كان شاعر الأنصار في الجاهلية، وشاعر النبيّ في النبوّة، وشاعر اليمانيين في الإسلام. انظر: «الإعلام» [٢/ ١٧٥] للزركلي.

(١٣٩) هو شارل لوي دي سيكوندا المعروف باسم مونتيسكيو (١٨ يناير ١٦٨٩م - ١٠ فبراير ١٧٥٥م.)، فيلسوف فرنسي صاحب نظرية فصل السلطات الذي تعتمده غالبية الأنظمة حاليا. عام ١٧٢١ نشر كتابه الساخر "رسائل فارسية" وفيه انتقد المجتمع وأنظمة الحكم في أوروبا في ذلك الحين. جلب له الكتاب شهرة واسعة وكان سببا في قبوله للأكاديمية الفرنسية للعلوم. له ترجمة حسنة على الموقع العالمي (Wikipedia, the free encyclopedia) تحت عنوان: (Montesquieu).

(١٤٠) هو يوهان كريستوف فريدريك فون شيلر (١٠ نوفمبر ١٧٥٩ في- ٩ مايو ١٨٠٥م) شاعر ومسرحي كلاسيكي و فيلسوف و مؤرخ ألماني. يعتبر هو وجوته مؤسسي الحركة الكلاسيكية في الأدب الألماني, ويعتبر من الشخصيات الرئيسية في التاريخ الأدبى الألماني. له ترجمة حسنة على الموقع العالمي (Wikipedia, the free encyclopedia) تحت عنوان: (Friedrich Schiller).

السّكران إذا خمر. على أنّه إذا نبغ منهم البعض ونالوا حرمة بين العوام لا يعدم المستبدّ وسيلة لاستخدامها في تأييد أمره ومجاراة هواه في مقابلة أنّه يضحك عليهم بشيء من التعظيم، ويسدُّ أفواههم بلقيماتٍ من مائدة الاستبداد؛ وكذلك لا يخاف من العلوم الصناعية محضًا؛ لأنّ أهلها يكونون مسالمين صغار النّفوس، صغار الهمم، يشتريها المستبدُّ بقليل من المال والإعزاز، ولا يخاف من الماديين، لأنّ أكثرهم مُبْتلون بإيثار النّفس، ولا من الرياضيين؛ لأنّ غالبهم قصار النظر.

ترتعد فرائص المستبدُّ من علوم الحياة مثل الحكمة النظرية، والفلسفة العقلية، وحقوق الأمم وطبائع الاجتماع، والسياسة المدنية، والتاريخ المفصّل، والخطابة الأدبية، ونحو ذلك من العلوم التي تُكبِّر النفوس، وتوسِّع العقول، وتعرّف الإنسان ما هي حقوقه وكم هو مغبون فيها، وكيف الطلب، وكيف النّوال، وكيف الحفظ.

وأخوف ما يخاف المستبدُّ من أصحاب هذه العلوم، المندفعين منهم لتعليم النّاس الخطابة أو الكتابة وهم المعبَّر عنهم في القرآن بالصالحين والمصلحين في نحو قوله تعالى: ﴿أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾[141]، وفي قوله: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾[142]، وإنْ كان علماء الاستبداد يفسِّرون مادة الصلاح والإصلاح بكثرة التعبُّد كما حوّلوا معنى مادة الفساد والإفساد: من تخريب نظام الله إلى التشويش على المستبدين.

والخلاصة: أنَّ المستبدّ يخاف من هؤلاء العاملين الراشدين المرشدين، لا من العلماء المنافقين أو الذين حفر رؤوسهم محفوظاتٌ كثيرة كأنّها مكتبات مقفلة!

---

(١٤١) الأنبياء: ١٠٥.

(١٤٢) هود: ١١٧،

كما يبغض المستبدُّ العلمَ ونتائجه؛ يبغضه أيضًا لذاته، لأن للعلم سلطانًا أقوى من كلِّ سلطان، فلا بدَّ للمستبدِّ من أن يستحقر نفسه كلما وقعت عينه على من هو أرقى منه علمًا. ولذلك لا يحبُّ المستبدُّ أن يرى وجه عالمٍ عاقل يفوق عليه فكرًا، فإذا اضطر لمثل الطبيب والمهندس يختار الغبي المتصاغر المتملِّق.

وعلى هذه القاعدة بنى ابن خلدون قوله: (فاز المُتملِّقُون)، وهذه طبيعة كلِّ المتكبرين، بل في غالب الناس، وعليها مبنى ثنائهم على كلِّ من يكون مسكينًا خاملًا لا يُرجى لخيرٍ ولا لشرٍّ.

وينتج مما تقدَّم أنَّ بين الاستبداد والعلم حربًا دائمةً وطرادًا مستمرًا: يسعى العلماء في تنوير العقول، ويجتهد المستبدُّ في إطفاء نورها، والطرفان يتجاذبان العوام. ومن هم العوام؟ هم أولئك الذين إذا جهلوا خافوا، وإذا خافوا استسلموا، كما أنَّهم هم الذين متى علموا قالوا، ومتى قالوا فعلوا.

العوام هم قوة المستبدُّ وقُوْتُهُ. بهم عليهم يصول ويطول؛ يأسرهم فيتهللون لشوكته؛ ويغصب أموالهم فيحمدونه على إبقائه حياتهم؛ ويهينهم فيثنون على رفعته؛ ويُغْرِي بعضهم على بعض فيفتخرُون بسياسته؛ وإذا أسرف في أموالهم يقولون كريمًا؛ وإذا قتل منهم لم يمثِّل يعتبرونه رحيمًا؛ ويسوقهم إلى خطر الموت، فيطيعونه حذر التوبيخ؛ وإن نقم عليه منهم بعض الأباة قاتلهم كأنهم بُغاة.

والحاصل أنَّ العوام يذبحون أنفسهم بأيديهم بسبب الخوف الناشئ عن الجهل والغباوة، فإذا ارتفع الجهل وتنوَّر العقل زال الخوف، وأصبح الناس لا ينقادون طبعًا لغير منافعهم، كما قيل: العاقل لا يخدم غير نفسه، وعند ذلك لا بدَّ للمستبدِّ من الاعتزال أو الاعتدال.

وكم أجبرت الأمم بترقّيها المستبدَّ اللئيم على الترقّي معها والانقلاب -رغم طبعه- إلى وكيلٍ أمين يهاب الحساب، ورئيسٍ عادل يخشى الانتقام، وأبٍ حليمٍ يتلذذ بالتحابب. وحينئذٍ تنال الأمة حياةً رضيّة هنية، حياة رخاء ونماء، حياة عزّ وسعادة، ويكون حظّ الرئيس من ذلك رأس الحظوظ، بعد أن كان في دور الاستبداد أشقى العباد؛ لأنه على الدوام ملحوظًا بالبغضاء، محاطًا بالأخطار، غير أمين على رياسته، بل وعلى حياته طرفة عين؛ ولأنه لا يرى قطّ أمامه من يسترشده فيما يجهل؛ لأنَّ الواقف بين يديه مهما كان عاقلًا متينًا، لا بدَّ أن يهابه، فيضطرب باله، فيتشوش فكره، ويختلّ رأيه، فلا يهتدي على الصواب، وإن اهتدى فلا يجسر على التصريح به قبل استطلاع رأي المستبدّ، فإن رآه متصلّبًا فيما يراه فلا يسعه إلا تأييده راشدًا كان أو غيًّا، وكلُّ مستشار غيره يدَّعي أنَّه غير هيّاب فهو كذَّاب؛ والقول الحقُّ: إنَّ الصدق لا يدخل قصور الملوك؛ بناءً عليه؛ لا يستفيد المستبدُّ قطُّ من رأي غيره، بل يعيش في ضلال وترددٍ وعذابٍ وخوف، وكفى بذلك انتقامًا منه على استعباده النّاس وقد خلقهم ربهم أحرارًا.

إنَّ خوف المستبدّ من نقمة رعيته أكثر من خوفهم من بأسه؛ لأنَّ خوفه ينشأ عن علمه بما يستحقُّه منهم، وخوفهم ناشئ عن جهل؛ وخوفه عن عجزٍ حقيقي فيه، وخوفهم عن توهّم التخاذل فقط؛ وخوفه على فقد حياته وسلطانه، وخوفهم على لُقيْمات من النّبات وعلى وطنٍ يألفون غيره في أيام؛ وخوفه على كلِّ شيء تحت سماء ملكه، وخوفهم على حياةٍ تعيسة فقط.

كلما زاد المستبدُّ ظلمًا واعتسافًا زاد خوفه من رعيّته وحتّى من حاشيته، وحتى ومن هواجسه وخيالاته. وأكثر ما تُختم حياة المستبدِّ بالجنون التّام. قلت: (التام) لأنّ المستبدَّ لا يخلو من الحمق قطّ، لنفوره من البحث عن الحقائق، وإذا صادف وجود مستبدٍّ غير أحمق فيسارعه الموت قهرًا إذا لم يسارعه الجنون أو العته؛ وقلتُ:

إنه يخاف من حاشيته؛ لأنَّ أكثر ما يبطش بالمستبدين حواشيهم؛ لأنَّ هؤلاء أشقى خلق الله حياةً، يرتكبون كلَّ جريمةٍ وفظيعة لحساب المستبدِّ الذي يجعلهم يمسون ويصبحون مخبولين مصروعين، يُجهدون الفكر في استطلاع ما يريد منهم فعله بدون أن يطلب أو يصرِّح. فكم ينقم عليهم ويهينهم لمجرَّد أنهم لا يعلمون الغيب. ومن ذا الذي يعلم الغيب، الأنبياء والأولياء؟ وما هؤلاء إلا أشقياء؛ أستغفرك اللهم! لا يعلم غيبك نبيٌّ ولا وليٌّ، ولا يدّعي ذلك إلاّ دجّال، ولا يظنُّ صدقه إلاّ مغفَّل، فإنَّك اللهم قلت وقولك الحقّ: ﴿فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا﴾[143]، وأفضل أنبيائك يقول: «لو علمتُ الخير لاستكثرت منه»[144].

من قواعد المؤرِّخين المدققين: أنَّ أحدهم إذا أراد الموازنة بين مستبدَّين كنيرون[145] وتيمور[146] مثلًا، يكتفي أن يوازن درجة

---

(١٤٣) الجن: ٢٦.

(١٤٤) هذا ليس بحديث. قال الأستاذ محمد جمال الطحان في تعليقه على «طبائع الاستبداد»: «لعلَّ الأمر التبس على الكواكبي في معنى الآية /١٨٨/ من سورة الأعراف على لسان النبي ﷺ: { وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ }.

(١٤٥) نيرون (٣٧م-٦٨م). هو إمبراطور روماني، حكم روما من عام ٥٤م حتى وفاته بعد ذلك بأربعة عشر عامًا. تشتهر فترة حكمه بالحريق الذي دمَّر كثيرًا من روما عام ٦٤م. بنى نيرون البيت الذهبي، وقصرًا ضخمًا وسط المنطقة المحترقة. وكانت هناك إشاعات تقول: إن نيرون بدأ الحريق ليستطيع بناء القصر. اتهم النصارى، الذين كانوا أقلية آنذاك في روما وقام بإعدامهم. انظر: «الموسوعة العربية العالمية».

(١٤٦) هو تيمور لنك الطاغية (٧٢٨ - ٨٠٧هـ- ١٣٢٨ - ١٤٠٥م)، ويقال له أيضا: «تَمُرلَنْك»، وهو أحد القادة العسكريين، اشتهر بالعنف والتخريب، ولد سنة ١٣٣٦م بالقرب من سمرقند، ومات فيها سنة ١٤٠٥م بينما كان ينوي غزو الصين. كان قائدًا مغوليا من سلالة جنكيز خان. انظر: «هامش تاريخ الدولة العلية» [ص/٩٠]. و«البدر الطالع» [١/ ١٦٤].

ما كانا عليه من التحذُّر والتحفُّظ. وإذا أراد المفاضلة بين عادلين كـ: أنُوشُرْوَان[١٤٧] وعمر الفاروق، يوازن بين مرتبتيْ أمْنِهما في قوميهما.

لَمَّا كانت أكثر الديانات مؤسَّسة على مبدأي الخير والشر كالنور والظلام، والشمس وزُحَل، والعقْل والشيطان، رأت بعض الأمم الغابرة أنَّ أضرَّ شيء على الإنسان هو الجهل، وأضرّ آثار الجهل هو الخوف، فعملت هيكلًا مُخَصَّصًا للخوف يُعبَد اتقاءً لشرِّه.

قال أحد المحررين السياسيين: إني أرى قصر المستبدِّ في كلِّ زمان هو هيكل الخوف عينه: فالملك الجبار هو المعبود، وأعوانه هم الكهنة، ومكتبته هي المذبح المقدَّس، والأقلام هي السكاكين، وعبارات التعظيم هي الصلوات، والناس هم الأسْرَى الذين يُقدَّمون قرابِين الخوف، وهو أهم النواميس[١٤٨] الطبيعية في الإنسان، والإنسان يقرب من الكمال في نسبة ابتعاده عن الخوف، ولا وسيلة لتخفيف الخوف أو نفيه غير العلم بحقيقة المخيف منه، وهكذا إذا زاد علم أفراد الرعية بأنّ المستبدَّ امرؤٌ عاجز مثلهم، زال خوفهم منه وتقاضوه حقوقهم.

ويقول أهل النظر: إنَّ خير ما يستبدل به على درجة استبداد الحكومات؛ هو تغاليها في شنآن الملوك، وفخامة القصور، وعظمة الحفلات، ومراسيم التشريفات، وعلائم الأبَّهة، ونحو ذلك من التمويهات التي يسترهب بها الملوك رعاياهم عوضًا

---

(١٤٧) هو كسرى أنوشروان: (م٥٣١-٥٧٩م) من أشهر ملوك فارس. كان حازما عاقلا وَوُلد نبينا صلى الله عليه وسلم في زمانه، ثم مات أنوشروان وقت موت عبد المطلب، وكان رجلاً شديداً، له فتوحات وانتصارات. دام ملكه ٤٧ عامًا. انظر: «المعارف» [ص/٦٦٤] لابن قتيبة. و«البدء والتريخ» [١٦٨/٣].

(١٤٨) النواميس: جمع ناموس. ومن معانيه القانون أو الشَّرِيعَة. كما في «المعجم الوسيط» [٢/ ٩٥٤].

عن العقل والمفاداة، وهذه التمويهات يلجأ إليها المستبدُّ كما يلجأ قليل العزِّ للتكبُّر، وقليل العلم للتصوُّف، وقليل الصِّدق لليمين، وقليل المال لزينة اللباس.

ويقولون: إنَّه كذلك يُستدلُّ على عراقة الأمة في الاستعباد أو الحرية باستنطاق لغتها؛ هل هي قليلة ألفاظ التعظيم كالعربية مثلًا؟ أم هي غنية في عبارات الخضوع كالفارسية، وكتلك اللغة التي ليس فيها بين المتخاطبين أنا وأنت، بل سيدي وعبدكم؟!

والخلاصة أنَّ الاستبداد والعلم ضِدَّان متغالبان؛ فكلُّ إدارة مستبدة تسعى جهدَها في إطفاء نور العلم، وحصر الرعية في حالك الجهل. والعلماء الحكماء الذين ينبتون أحيانًا في مضايق صخور الاستبداد يسعون جهدهم في تنوير أفكار النّاس، والغالب أنَّ رجال الاستبداد يُطاردون رجال العلم وينكلون بهم، فالسعيد منهم من يتمكّن من مهاجرة دياره، وهذا سبب أنَّ كلَّ الأنبياء العظام - عليهم الصلاة والسلام وأكثر العلماء الأعلام والأدباء والنبلاء- تقلَّبوا في البلاد وماتوا غرباء.

إنَّ الإسلامية أولَّ دين حضَّ على العلم، وكفى شاهدًا أنَّ أول كلمة أُنزِلتْ من القرآن هي الأمر بالقراءة أمرًا مكررًا، وأوَّل مِنَّةٍ أجلَّها الله وامتنَّ بها على الإنسان هي أنَّه علَّمه بالقلم. علَّمه به ما لم يعلم.

وقد فهم السَّلف الأول من مغْزَى هذا الأمر وهذا الامتنان وجوب تعلُّم القراءة والكتابة على كلِّ مسلم، وبذلك عمَّت القراءة والكتابة في المسلمين أو كادت تعمُّ، وبذلك صار العلم في الأمة حرًا مباحًا للكلِّ لا يختصُّ به رجال الدّين أو الأشراف كما كان في الأمم السابقة، وبذلك انتشر العلم في سائر الأمم أخذًا على المسلمين! ولكنْ؛ قاتل الله الاستبداد الذي استهان بالعلم حتى جعله كالسلْعة يُعطى ويُمنح للأميين، ولا يجرؤ أحد على الاعتراض، أجل؛ قاتل الله الاستبداد الذي رجع بالأمة إلى الأمية، فالتقى آخرها بأولها، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

قال المدققون: إنَّ أخوف ما يخافه المستبدون الغربِيُّون من العلم أن يعرف الناس حقيقة أنَّ الحرية أفضل من الحياة، وأن يعرفوا النفس وعزَّها، والشّرف وعظمته، والحقوق وكيف تُحفظ، والظلم وكيف يُرفع، والإنسانية وما هي وظائفها، والرّحمة وما هي لذّاتها.

أما المستبدون الشرقيون فأفئدتهم هواء ترتجف من صولة العلم، كأنّ العلم نار وأجسامهم من بارود. المستبدون يخافون من العلم حتى من علم الناس معنى كلمة (لا إله إلا الله)، ولماذا كانت أفضل الذكر، ولماذا بُنيَ عليها الإسلام. بُني الإسلام، بل وكافة الأديان على (لا إله إلا الله)، ومعنى ذلك أنّه لا يُعبَد حقًا سوى الصانع الأعظم، ومعنى العبادة الخضوع ومنها لفظة العبد، فيكون معنى لا إله إلا الله: لا يستحق الخضوع شيءٌ غير الله.

وما أفضل تكرار هذا المعنى على الذاكرة آناء الليل وأطراف النهار تحذُّرًا من الوقوع في ورطة شيء من الخضوع لغير الله وحده. فهل -والحالة هذه- يناسب غرض المستبدين أن يعلم عبيدهم أنْ لا سيادة ولا عبودية في الإسلام ولا ولاية فيه ولا خضوع، إنما المؤمنون بعضهم أولياء بعض؟ كلا؛ لا يلائم ذلك غرضهم، وربما عدّوا كلمة (لا إله إلا الله) شتمًا لهم! ولهذا؛ كان المستبدون -ولا زالوا- من أنصار الشِّرك وأعداء العلم.

إنَّ العلم لا يناسب صغار المستبدين أيضًا كخَدَمَة الأديان المتكبِّرين وكالآباء الجُهَلاء، والأزواج الحمْقَى، وكرؤساء كلِّ الجمعيات الضعيفة. والحاصل: أنَّه ما انتشر نور العلم في أمةٍ قطّ إلا وتكسَّرت فيها قيود الأسْر، وساء مصير المستبدّين من رؤساء سياسة أو رؤساء دين.

الاستبداد والمجد

من الحِكَم البالغة للمتأخرين قولهم: «الاستبداد أصلٌ لكلِّ داء»، ومبْنَى ذلك أنَّ الباحث المدقق في أحوال البشر وطبائع الاجتماع كشف أنَّ للاستبداد أثرًا سيئًا في كلِّ واد، وقد سبق أنَّ الاستبداد يضغط على العقل فيفسده، وإني الآن أبحث في أنَّه كيف يُغالب الاستبداد المجد فيفسده، ويقيم مقامه التمجُّد.

المجد: هو إحراز المرء مقامَ حبٍّ واحترام في القلوب، وهو مطلب طبيعي شريف لكلِّ إنسان، لا يترفَّع عنه نبيٌّ أو زاهد، ولا ينحطُّ عنه دنيٌّ أو خامل.

للمجد لذَّةٌ روحية تقارب لذَّة العبادة عند الفانين في الله تعالى، وتعادل لذَّة العلم عند الحكماء، وتربو على لذَّة امتلاك الأرض مع قمرها عند الأمراء، وتزيد على لذَّة مفاجأة الإثراء عند الفقراء. ولذا يزاحم المجد في النفوس منزلة الحياة.

وقد أشكَلَ على بعض الباحثين أيُّ الحرصين أقوى؟ حِرْص الحياة أم حرص المجد؟ والحقيقة التي عوَّل عليها المتأخِّرون وميَّزوا بها تخليط ابن خلدون هي التفضيل؛ وذلك أنَّ المجد مُفضَّل على الحياة عند الملوك والقُوَّاد وظيفةً، وعند النُّجباء والأحرار حميّةً، وحبُّ الحياة ممتاز على المجد عند الأُسَراء والأذِّلاء طبيعةً، وعند الجبناء والنساء ضرورةً. وعلى هذه القاعدة يكون أئمة آل البيت -عليهم السلام- معذورين في إلقاء أنفسهم في تلك المهالك؛ لأنَّهم لمّا كانوا نُجباء أحرارًا، فحميّتهم جعلتهم يفضِّلون الموت كِرامًا على حياة ذلٍّ مثل حياة ابن خلدون الذي خطّأ أمجاد البشر في إقدامهم على الخطر إذا هدَّد مجدهم[١٤٩]، ذاهِلًا على أنَّ بعض

---

(١٤٩) إشارة إلى ما نقله ابن خلدون في «مُقدمته» [ص/ ٢١٧/طبعة دار القلم] عن أبي بكر ابن العربي حيث لامَ الحسينَ بن علي بن أبي طالب على خروجه إلى حرب يزيد بن معاوية. وقد أخطأ من نسب هذا اللوم إلى ابن خلدون نفسه!

أنواع الحيوان، ومنها البلبل، وُجِدتْ فيها طبيعة اختيار الانتحار أحيانًا تخلُّصًا من قيود الذُّلِّ، وأنَّ أكثر سباع الطير والوحوش إذا أُسِرَتْ كبيرة تأبى الغذاء حتى تموت، وأنَّ الحُرَّة تموت ولا تأكل بعِرضِها، والماجدة تموت ولا تأكل بثدييْها [١٥٠]!

المجد لا يُنال إلا بنوعٍ من البذل في سبيل الجماعة، وبتعبير الشرقيين في سبيل الله أو سبيل الدّين، وبتعبير الغربيين في سبيل المدَنِية أو سبيل الإنسانية. والمولى تعالى – المستحقُّ التّعظيم لذاته- ما طالب عبيده بتمجيده إلا وقرن الطلب بذكر نَعْمائه عليهم.

وهذا البذْل إما بذل مال للنفع العام ويسمى مجد الكرم؛ وهو أضعف المجد، أو بذل العلم النّافع المفيد للجماعة؛ ويسمّى مجد الفضيلة، أو بذل النّفس بالتعرُّض للمشاقّ والأخطار في سبيل نُصْرة الحقِّ وحفْظ النِّظام؛ ويُسمى مجد النَّبالة، وهذا أعلى المجد؛ وهو المراد عند الإطلاق، وهو المجد الذي تتوق إليه النفوس الكبيرة، وتحِنُّ إليه أعناق النبلاء.

وكم له من عُشاق تلِذُّ لهم في حبه المصاعب والمخاطرات، وأكثرهم يكون من مواليد بيوت نادرة حمتْها الصّدَف من عيون الظالمين المذلّين، أو يكون من نُجباء بيوت ما انقطعت فيها سلسلة المجاهدين وما انقطعت عجائزها عن بكائهم. ومن أمثلة المجد قولهم: خلق الله للمجْد رجالًا يستعذبون الموت في سبيله، ولا سبيل إليه إلا بعظيم الهمّة والإقدام والثّبات، تلك الخصال الثّلاث التي بها تُقدَّر قِيَم الرجال.

وهذا (نيرون) الظالم سأل (أغربين) [١٥١] الشاعر وهو تحت النِّطْع[١٥٢]: من أشقى

---

(١٥٠) وفي أمثال العرب السائرة: « تَجُوعُ الحُرَّةُ وَلا تَأْكُلُ بِثَدْيَيْها».

(١٥١) المعروف أن « أغريبينا». هي أم الطاغية نيرون، وكانت إمبراطورة رومانيا، وتعد من أشهر النساء دكتاتورية على مَرِّ التاريخ.

(١٥٢) النِّطْع: بِسَاطٌ من الْجِلْد كثيرًا مَا كَانَ يقتل فَوْقه الْمَحْكُوم عَلَيْهِ بِالْقَتْلِ. انظر: «المعجم الوسيط» [٢/ ٩٣٠].

الناس؟ فأجابه معرِّضًا به: من إذا ذكر الناس الاستبداد كان مثالًا له في الخيال. وكان (ترايان)[١٥٣] العادل إذا قلَّد سيفًا لقائد يقول له: «هذا سيف الأمة أرجو أن لا أتعدّى القانون فيكون له نصيبٌ في عنقي».

وخرج قيس من مجلس الوليد[١٥٤] مغضَبًا يقول: "أتريد أن تكون جبارًا؟ والله؛ إنَّ نعال الصعاليك لأطول من سيفك!. وقيل لأحد الأُبَاة: «ما فائدة سعيك غير جلب الشقاء على نفسك؟». فقال: «ما أحلَى الشقاء في سبيل تنغيص الظالمين!». وقال آخر: «عليَّ أن أفِي بوظيفتي وما عليَّ ضمان القضاء».

وقيل لأحد النبلاء: «لماذا لا تبني لك دارًا؟» فقال: «ما أصنع فيها وأنا المقيم على ظهر الجواد أو في السجن أو في القبر»، وهذه ذات النِّطاقيْن[١٥٥] (أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها) وهي امرأة عجوز تودِّع ابنها بقولها: «إن كنت على الحقّ فاذهب وقاتل الحجاج حتى تموتَ»[١٥٦].

---

(١٥٣) لعله يقصد: «ترايان» وهو ترايانوس ماركوس أولبيوس (٥٣ م- ١١٧ م) كان إمبراطورًا رومانيًّا وقائدًا عسكريًّا مهمًّا، وسّع الإمبراطورية بالفتوح ونفذ برامج بنائية واسعة. ويعدُّ أحد أشهر الأباطرة الرومان وأول امبراطور من خارج إيطالية. انظر: «الموسوعة العربية العالمية».

(١٥٤) هو الوليد بن عبد الملك بن مروان، أبو العباس (٤٨ - ٩٦ هـ = ٦٦٨ - ٧١٥م) من ملوك الدولة الأموية في الشام.

(155) النِّطاق: هو حِزَام يشد بِهِ الْوسط. أو هو إِزَار تلبسه الْمَرْأَة تشده على وَسطهَا للمهنة. انظر: «المعجم الوسيط» [٢/ ٩٣١]

(١٥٦) أسماء بنت أبي بكر الصدّيق (ت ٧٣ هـ = ٦٩٢ م) أخت عائشة لأبيها، وأمّ عبد الله بن الزّبير (١ - ٧٣ هـ = ٦٢٢ - ٦٩٢ م) لقبها (ذات النّطاقَيْن) والحادثة التي يذكرها الكواكبي جرت بين الحَجَّاج وابنها عبد الله.

وهذا مكماهون [١٥٧] رئيس جمهورية فرنسا استبدَّ في أمر فدخل عليه صديقه غامبتا[١٥٨] وهو يقول: «الأمر للأمة لا إليك، فاعتدل، أو اعتزل، وإلا فأنت المخذول المهان الميت»!!

والحاصل أنَّ المجد هو المجدُ محبَّبٌ للنفوس، لا تفْتأ تسعى وراءه وترقى مراقيه، وهو ميسَّرٌ في عهد العدل لكلِّ إنسان على حسب استعداده وهمَّته، وينحصر تحصيله في زمن الاستبداد بمقاومة الظّلم على حسب الإمكان.

يقابل المجد، من حيث مُبْتناه، التمجُّد. وما هو التمجّد؟ وماذا يكون التمجّد؟ التمجُّد لفظٌ هائل المعنى، ولهذا أراني أتعثَّر بالكلام وأتلعثم في الخطاب، ولا سيما من حيث أخشى مساس إحساس بعض المطالعين. إن لم يكن من جهة أنفسهم فمن جهة أجدادهم الأولين، فأناشدهم الوجْدان والحقّ المهان، أن يتجرَّدوا دقيقتين من النّفس وهواها، ثمَّ هم مثلي ومثل سائر الجانين على الإنسانية لا يعدمون تأويلًا. وإنني أُعلِّل النّفس بقبولهم تهويني هذا، فأنطلق وأقول:

التمجّد خاص بالإدارات المستبدَّة، وهو القُرْبى من المستبدِّ بالفعل كالأعوان والعمال، أو بالقوة كالملقَّبين بنحو دوق وبارون، والمخاطبين بنحو ربِّ العزة وربّ الصولة، أو الموسومين بالنياشين، أو المطوَّقين بالحمائل، وبتعريفٍ آخر، التمجُّد هو أن ينال المرء جذوة نار من جهنم كبرياء المستبدِّ ليحرق بها شرف المساواة في الإنسانية.

وبوصْفٍ أجلى: هو أن يتقلّد الرّجل سيفًا من قِبَل الجبَّارين يبرهن به على أنَّه جلَّاد في دولة الاستبداد، أو يعلِّق على صدره وسامًا مشعرًا بما وراءه من الوجدان

---

(١٥٧) هو مارشال فرنسا مكماهون إدم باتريس (١٨٠٨ ــ ١٨٩٣م).

(١٥٨) هو ليون غامبيتا (١٨٣٨ ــ ١٨٨٢م)، سياسي فرنسي، برز في أعقاب الحرب الفرنسية البروسية.

المستبيح للعدوان، أو يتزين بسيور مزركشة تنبئ بأنّه صار مخنّثًا أقرب إلى النساء منه إلى الرجال، وبعبارة أوضح وأخصر، هو أن يصير الإنسان مستبدًا صغيرًا في كنف المستبدِّ الأعظم.

قلتُ: إنَّ التمجُّد خاصٌّ بالإدارات الاستبدادية، وذلك لأنَّ الحكومة الحرة التي تمثِّل عواطف الأمة تأبى كلَّ الإباء إخلال التساوي بين الأفراد إلا لفضلٍ حقيقي، فلا ترفع قدر أحد منها إلا رفعًا صوريًا أثناء قيامه في خدمتها؛ أي الخدمة العمومية، وذلك تشويقًا له على التفاني في الخدمة، كما أنَّها لا تميّز أحدًا منها بوسام أو تشرِّفه بلقبٍ إلا ما كان علميًا أو ذكرى لخدمة مهمة وفَّقه الله إليها. وبمثل هذا يرفع اللهُ الناس بعضهم فوق بعضٍ درجات في القلوب لا في الحقوق.

وهذا لقَب اللوردية مثلًا عند الإنكليز هو من بقايا عهد الاستبداد، ومع ذلك لا يناله عندهم غالبًا إلا من يخدم أمَّته خدمة عظيمة، ويكون من حيث أخلاقه وثروته أهلًا لأن يخدمها خدمات مهمة غيرها، ومن المقرر أن لا اعتبار للورد في نظر الأمة إلا إذا كان مؤسسًا أو وارثًا، أو كانت الأمة تقرأ في جبهته سطرًا محررًا بقلم الوطنية وبمداد الشهامة مَمْضيٍّ بدمه يقسم فيه بشرفه أنه ضمين بثروته وحياته ناموس الأمة؛ أي قانونها الأساسي، حفيظ على روحها؛ أي حريتها.

التمجُّد لا يكاد يوجد له أثر في الأمم القديمة إلا في دعوى الألوهية وما معناها من نفع الناس بالأنفاس، أو في دعوى النّجابة بالنسب التي يُهوِّل بها الأُصَلاء نسْل الملوك والأمراء، وإنما نشأ التمجّد بالألقاب والشّارات في القرون الوسطى، وراج سوقه في القرون الأخيرة، ثمَّ قامت فتاة الحرية تتغنّى بالمساواة وتغسل أدْرانه[١٥٩] على حسب قوتها وطاقتها، ولم تبلغ غايتها إلى الآن في غير أمريكا.

---

(١٥٩)أدرانه: يعني أوساخه.

المتمجِّدون يريدون أن يخدعوا العامة، وما يخدعون غير نسائهم اللاتي يتفَحْفَحْن[١٦٠] بين عجائز الحي بأنهم كبار العقول؛ كبار النفوس؛ أحرار في شؤونهم لا يُزاح لهم نِقاب، ولا تُصْفَع منهم رقاب، فيحوجهم هذا المظهر الكاذب لتحمُّل الإساءات والإهانات التي تقع عليهم من قِبَل المستبدّ، بل تحوجهم للحرص على كتمها، بل على إظهار عكسها، بل على مقاومة من يدّعي خلافها، بل على تغليط أفكار النّاس في حقِّ المستبدِّ وإبعادهم عن اعتقاد أنَّ من شأنه الظلم.

وهكذا يكون المتمجِّدين أعداء للعدل أنصارًا للجَوْر، لا دين ولا وجْدان ولا شرف ولا رحمة، وهذا ما يقصده المستبدُّ من إيجادهم والإكثار منهم ليتمكَّن بواسطتهم من أن يُغرِّر الأمة على إضرار نفسها تحت اسم منفعتها، فيسوقها مثلًا لحرب اقتضاها محض التجبُّر والعدوان على الجيران، فيوهمها أنَّه يريد نصرة الدين، أو يُسرف بالملايين من أموال الأمة في ملذاته وتأييد استبداده باسم حفظ شرف الأمة وأبهة المملكة، أو يستخدم الأمة في التنكيل بأعداء ظلمه باسم أنهم أعداء لها، أو يتصرَّف في حقوق المملكة والأمة كما يشاؤه هواه باسم أنَّ ذلك من مقتضى الحكمة والسياسة.

والخلاصة: أنَّ المستبد يتّخذ المتمجّدين سماسرة لتغرير الأمة باسم خدمة الدين، أو حبّ الوطن، أو توسيع المملكة، أو تحصيل منافع عامة، أو مسؤولية الدولة، أو الدفاع عن الاستقلال، والحقيقة أنَّ كلّ هذه الدواعي الفخيمة العنوان في الأسماع والأذهان ما هي إلا تخييل وإيهام يقصد بها رجال الحكومة تهييج الأمة وتضليلها، حتى إنَّه لا يُستثنى منها الدّفاع عن الاستقلال؛ لأنّه ما الفرق على أمةٍ

---

(١٦٠) **الفَحْفَحَةُ: هي تَرَدُّدُ الصَّوْت فِي الْحَلْق شَبيه بالبُحَّة. كما في «تاج العروس» [١١/ ١١]. ومراد المؤلف بفحفحة النساء: يعني افتخارهن في كلامهن مع عجائز الحي.**

مأسورة لزيد أن يأسرها عمرو؟ وما مثلها إلا الدّابة التي لا يرحمها راكب مطمئن، مالكًا كان أو غاصبًا.

المستبدُّ لا يستغني عن أن يستمجد بعض أفراد من ضعاف القلوب الذين هم كبَقَر الجنة لا ينْطحون ولا يرْمَحون، يتّخذهم كأنموذج البائع الغشَّاش، على أنّه لا يستعملهم في شيء من مهامه، فيكونون لديه كمصحف في خمَّارة أو سُبْحة في يد زنديق، وربما لا يستخدم أحيانًا بعضهم في بعض الشؤون تغليطًا لأذهان العامة في أنَّه لا يعتمد استخدام الأراذل والأسافل فقط، ولهذا يُقال: دولة الاستبداد دولة بُلْهٍ وأوغاد.

المستبدُّ يجرِّب أحيانًا في المناصب والمراتب بعض العقلاء الأذكياء أيضًا اغترارًا منه بأنّه يقوى على تلْيين طِينتهم وتشكيلهم بالشّكْل الذي يريد، فيكونوا له أعوانًا خبثاء ينفعونه بدهائهم، ثمَّ هو بعد التجربة إذا خاب ويئس من إفسادهم يتبادر إبعادهم أو يُنكّل بهم. ولهذا لا يستقرّ عنه المستبدّ إلا الجاهل العاجز الذي يعبده من دون الله، أو الخبيث الخائن الذي يرضيه ويغضب الله.

وهنا أُنبِّه فكر المطالعين إلى أنَّ هذه الفئة من العقلاء الأمناء بالجملة، الذين يذوقون عُسَيْلَة[١٦١] مجْد الحكومة وينشطون لخدمة ونيل مجد النَّبالة، ثمَّ يضرب على يدهم لمجرَّد أنَّ بين أضلعهم قبْسة من الإيمان وفي أعينهم بارقة من الإنسانية، هي الفئة التي تتكهْرَب بعداوة الاستبداد وينادي أفرادها بالإصلاح. وهذا الانقلاب قد أعيا المستبدين؛ لأنهم لا يستغنون عن التجربة ولا يأمنون هذه المَغبَّة.

ومن هنا نشأ اعتمادهم غالبًا على العريقين في خدمة الاستبداد، الوارثين من آبائهم وأجدادهم الأخلاق المرضية للمستبدّين، ومن هنا ابتدأت في الأمم نغمة

---

(١٦١) عسيلة: يعني لذة.

التمجّد بالأصالة والأنساب، والمستبدّون المحنَّكُون يطيلون أمد التجربة بالمناصب الصغيرة فيستعملون قاعدة الترقّي مع التراخي، ويسمّون ذلك برعاية قاعدة القدم، ثمّ يختمون التجريب بإعطاء المتمرّن خدمة يكون فيها رئيسًا مطلقًا ولو في قرية، فإن أظهر مهارة في الاستبداد، وذلك ما يسمونه حكمة الحكومة فبها نعمت، وإلا قالوا عنه: هذا حيوان، يا ضيعة الأمل فيه.

إنَّ للأصالة مشاكلة قوية للمجد والتمجّد فلا بدَّ أن نبحث فيها قليلًا، ثمَّ نعود لموضوع المستبدّ وأعوانه المتمجّدين فأقول:

الأصالة صفة قد يكون لها بعض المزايا من حيث الأميال التي يرثها الأبناء من الآباء، ومن حيث التربية التي تكون مستحكمة في البيت ولو رياءً، ومن حيث إنَّ الأصالة تكون مقرونة غالبًا بشيء من الثروة المعينة على مظاهر الشّهامة والرحمة، ومن حيث تقويتها العلاقة بالأمة والوطن خوف مذلّة الاغتراب، ومن حيث إنَّ أهلها يكونون منظورين دائمًا فيتحاشون المعائب والنقائص بعض التحاشي.

وبيوت الأصالة تنقسم إلى ثلاثة أنواع: بيوت علم وفضيلة، وبيوت مال وكرم، وبيوت ظلم وإمارة. وهذا الأخير هو القسم الأكثر عددًا والأهمّ موقعًا، وهم -كما سبقت الإشارة إليه- مطمح نظر المستبدّ في الاستعانة وموضع ثقته، وهم الجند الذي تجتمع تحت لوائه بسهولة، وربما يكفيه أنْ يضحك في وجههم ضحكة. فلننظر ما هو نصيب أهل هذا القسم من تلك المزايا الموروثة:

هل يرث الابن عن جده المؤسس لمجْده أميالَه في العدالة ولم توجد؟ أم يدبُّ ويشبُّ على غير الترّف المصغِّر للعقول، المميت للهمم؟ أم يتربّى على غير الوقار المضحك للباطل، السّائد فيما بين العائلة في بيتهم؟ أم يستخدم الثروة في غير الملاذ الجسمية الدنيئة البهيمية وتلك الأُبَّهة الطاووسية الباطلة؟ أم يتمثَّل بغير أقران السوء المتملقين المنافقين؟ أم لا يستحقر قومه لجهلهم قدر النُّطفة الملعونة التي

خُلق منها جنابه؟ أم لا يبغض العلماء الذين لا يقدِّرونه قدره حسبما هو قائم في مُخيِّلة خُيلائه؟ أم يرى لجنابه مقرًّا يليق به غير مقعد التحكُّم ومستراح التآمر؟ أم يستحي من النّاس؟ ومن هم النّاس؟ وما النّاس عند حضرته غير أشباح عندها أرواح خُلقتْ لخدمته!

وهذه حالة الأكثرين من الأُصَلاء، على أننا لا نبْخس حقَّ من نال منهم حظًا من العلم وأوتي الحكمة وأراد الله به خيرًا فأصابه بنصيب من القهر انخفض به شامُوخ [١٦٢] أنفه، فإنَّ هؤلاء – وقليل ما هم – ينجبون نجابة عظيمة، فيصدق عليهم أنَّهم قد ورثوه قوّة القلب يستعملونها في الخير لا في الشّر، واستفادوا من أنفة الكبرياء كالجسارة على العظماء، وهكذا تتحول فيهم ميزة الشرِّ على فائض خير وحَسَبٍ شامخ من نحو الحنين إلى الوطن وأهله، والأنين لمصابه، والإقدام على العظائم في سبيل القوم.

وأمثال هؤلاء النوابغ النُجَباء إذا كثروا في أمة يوشك أن يترقّى منهم آحاد إلى درجة الخوارق فيقودوا أممهم إلى درجة النجاح والفلاح، ولا غرْو [١٦٣] فإنَّ اجتماع نفوذ النسب وقوة الحسب يفعلان ولا عجب شَبَهَ فعْل المستبدِّ العادل الذي ينشده الشرقيون، وخصوصًا المسلمون؛ وإن كان العقل لا يجوز أن يتَّصف بالاستبداد مع العدل غير الله وحده، ألا قاتل الله الهمّة السّاقطة التي قد تتسفَّل بالإنسان إلى عدم إتعاب الفكر فيما يطلب هل هو ممكن أم هو محال؟!

الأُصَلاء، باعتبار أكثريتهم، هم جرثومة البلاء في كلِّ قبيلة ومن كلِّ قبيل. لأنَّ بني آدم داموا إخوانًا متساوين إلى أنْ ميَّزت الصُّدفة بعض أفرادهم بكثرة النّسل،

---

(١٦٢) شاموخ: على وزن فاعول مِنْ شمخ يشمخ. إذا ارتفع بأنفه كِبْرًا واستعلاءً.
(١٦٣) لَا غرو: لَا عجب.

فنشأت منها القوات العصبية، ونشأ من تنازعها تميُّز أفراد على أفراد، وحِفْظُ هذه الميزة أوجد الأُصَلاء.

فالأصلاء في عشيرة أو أمة إذا كانوا متقاربي القوات استبدوا على باقي الناس وأسسوا حكومة أشراف، ومتى وُجد بيت من الأصلاء يتميز كثيرًا في القوة على باقي البيوت يستبدُّ وحده ويؤسس الحكومة الفردية المقيدة إذا لباقي البيوت بقية بأس، أو المطلقة إذا لم يبقَ أمامه من يتَّقيه.

بناءً عليه، إذا لم يوجد في أمّة أصلاء بالكلية، أو وجد، ولكن؛ كان لسواد الناس صوتٌ غالب، أقامت تلك لنفسها حكومة انتخابية لا وراثة فيها ابتداءً؛ ولكن، لا يتوالى بعض متولين إلا ويصير أنسالهم أصلاء يتناظرون، كلُّ فريق منهم يسعى لاجتذاب طرف من الأمة استعدادًا للمغالبة وإعادة التاريخ الأول.

ومن أكبر مضارّ الأُصَلاء أنهم ينهمكون أثناء المغالبة على إظهار الأُبَّهة والعظمة، سترهبون أعين الناس ويسحرون عقولهم ويتكبّرون عليهم. ثمَّ إذا غلب غالبهم واستبدَّ بالأمر لا يتركها الباقون لألفتهم لذتها ولمضاهاة المستبدِّ في نظر الناس. والمستبدُّ نفسه لا يحملهم على تركها، بل يَدُرُّ عليهم المال ويعينهم عليها، ويعطيهم الألقاب والرُّتَب وشيئًا من النّفوذ والتسلُّط على الناس ليتلهّوا بذلك عن مقاومة استبداده، ولأجل أن يألفوها مديدًا، فتفسد أخلاقهم، فينفر منهم الناس، ولا يبقى لهم ملجأ غير بابه، فيصيرون أعوانًا له بعد أن كانوا أضدادًا.

ويستعمل المستبدُّ أيضًا مع الأصَلاء سياسة الشدّ والرّخاء، والمنْع والإعطاء، والالتفات والإغضاء كي لا يبطروا، وسياسة إلقاء الفساد وإثارة الشحناء فيما بينهم كي لا يتفقوا عليه، وتارة يعاقب عقابًا شديدًا باسم العدالة إرضاءً للعوام، وأخرى يقرنهم بأفراد كانوا يقبِّلون أذيالهم استكبارًا فيجعلهم سادة عليهم يفركون آذانهم استحقارًا، يقصد بذلك كسر شوكتهم أمام إمام الناس وعصر أنوفهم أمام عظمتهم.

والحاصل أنَّ المستبدّ يذلل الأُصَلاء بكلِّ وسيلة حتى يجعلهم مترامين بين رجليْه كي يتَّخذهم لجامًا لتذليل الرعية، ويستعمل عين هذه السياسة مع العلماء ورؤساء الأديان الذين متى شمَّ من أحدهم رائحة الغرور بعقله أو علمه ينكل به أو يستبدله بالأحمق الجاهل إيقاظًا له ولأمثاله من كلِّ ظانٍّ من أن إدارة الظلم محتاجة إلى شيء من العقل أو الاقتدار فوق مشيئة المستبدِّ. وبهذه السياسة ونحوها يخلو الجوّ فيعصف وينْسف ويتصرَّف في الرعية كريشٍ يقلبه الصَّرْصَر[١٦٤] في جوٍّ مُحْرِق.

المستبدُّ في لحظة جلوسه على عرشه ووضْع تاجه الموروث على رأسه يرى نفسه كان إنسانًا فصار إلهًا. ثم يُرجِع النظر فيرى نفسه في نفس الأمر أعجز من كلِّ عاجز وأنَّه ما نال ما نال إلا بواسطة من حوله من العوان، فيرفع نظره إليهم فيسمع لسان حالهم يقول له: ما العرش؟ وما التاج؟ وما الصولجان؟ ما هذه إلا أوهام في أوهام. هل يجعلك هذا الريش في رأسك طاووسًا وأنت غراب؟ أم تظن الأحجار البرَّاقة في تاجك نجومًا ورأسك سماء؟ أم تتوهم أنَّ زينة صدرك ومنكبيك أخرجتْك عن كونك قطعة طينٍ من هذه الأرض؟ والله ما مكَّنك في هذا المقام وسلَّطك على رقاب الأنام إلا شعوذتنا وسحرنا وامتهاننا لديننا ووجداننا وخيانتنا لوطننا وإخواننا، فانظر أيها الصغير المكبَّر الحقير الموقّر كيف تعيش معنا!

ثمَّ يلتفت إلى جماهير الرّعية المتفرِّجين، منهم الطائشون المهللون المسبِّحون بحمْده، ومنهم المسحورون المبْهوتون كأنهم أموات من حين، ولكن؛ يتجلّى في فكْره أنَّ خلال الساكتين بعض أفراد عقلاء أمجاد يخاطبونه بالعيون؛ بأنَّ لنا معاشر الأمَّة شؤونًا عمومية وكَّلناك في قضائها على ما نريد ونبغي، لا على ما تريد فتبغي. فإنْ وفَّيت حقَّ الوكالة حُقَّ لك الاحترام، وإن مرتْ مكَرْنا وحاقت بك العاقبة، ألا إنَّ مكر الله عظيم.

---

(١٦٤) الصَّرْصَر: هي الريح الشديدة العاتية.

وعندئذٍ يرجع المستبدُّ إلى نفسه قائلًا: الأعوان الأعوان، الحَمَلَة السَّدَنة أسْلَمهم القِياد وأردفهم بجيشٍ من الأوغاد أُحارب بهم هؤلاء العبيد العقلاء، وبغير هذا الحزم لا يدوم لي مُلْكٌ كيفما أكون، بل أبقى أسيرًا للعدل معرِّضًا للمناقشة منغِّصًا في نعيم الملك، ومن العار أن يرضى بذلك من يمكنه أن يكون سلطانًا جبارًا متفرِّدًا قهّارًا.

الحكومة المستبدّة تكون طبعًا مستبدّة في كل فروعها من المستبدّ الأعظم إلى الشرطي، إلى الفرّاش، إلى كنائس الشوارع، ولا يكون كلُّ صِنْفٍ إلا من أسفل أهل طبقته أخلاقًا، لأن الأسافل لا يهمهم طبعًا الكرامة وحسن السمْعة، إنما غاية مسعاهم أن يبرهنوا لمخدوميهم بأنهم على شاكلته، وأنصار لدولته، وشرهون لأكل السقطات من أيٍّ كان ولو بشرًا أم خنازير، آبائهم أم أعدائهم، وبهذا يأمنهم المستبدُّ ويأمنونه فيشاركهم ويشاركونه.

وهذه الفئة المستخدمة يكثر عددها ويقلُّ حسب شدة الاستبداد وخفّته، فكلما كان المستبدُّ حريصًا على العسْف احتاج إلى زيادة جيش المتمجّدين العاملين له المحافظين عليه، واحتاج إلى مزيد الدقّة في اتِّخاذهم من أسفل المجرمين الذين لا أثر عندهم لدينٍ أو ذمّة، واحتاج لحفظ النسبة بينهم في المراتب بالطريقة المعكوسة؛ وهي أن يكون أسفلهم طباعًا وخصالًا أعلاهم وظيفةً وقربًا، ولهذا، لا بدَّ أن يكون الوزير الأعظم للمستبدّ هو اللئيم الأعظم في الأمة، ثم من دونه لُؤْمًا، وهكذا تكون مراتب الوزراء والأعوان في لؤمهم حسب مراتبهم في التشريفات والقربى منه.

وربما يغترُّ المطالع كما اغترَّ كثير من المؤرِّخين البسطاء بأن بعض وزراء المستبدّ يتأوَّهون من المستبدّ ويتشكّون من أعماله ويجهرون بملامه، ويظهرون لو أنّه ساعدهم الإمكان لعملوا وفعلوا وافتدوا الأمة بأموالهم، بل وحياتهم، فكيف – والحالة هذه–

يكون هؤلاء لُؤَماء؟ بل كيف ذلك وقد وُجِد منهم الذين خاطروا بأنفسهم والذين أقدموا فعلًا على مقاومة الاستبداد فنالوا المراد أو بعضه أو هلكوا دونه؟

فجواب ذلك أنّ المستبدَّ لا يخرج قطّ عن أنّه خائنٌ خائفٌ محتاجٌ لعصابة تعينه وتحميه، فهو ووزراؤه كزمرة لصوص: رئيس وأعوان. فهل يجوِّز العقل أن يُنتخب رفاق من غير أهل الوفاق، وهو هو الذي لا يستوزر إلا بعد تجربة واختبار عمرًا طويلًا؟!

هل يمكن أن يكون الوزير متخلِّقًا بالخير حقيقة، وبالشَّرِّ ظاهرًا فيخدع المستبدّ بأعماله، ولا يخاف من أنَّه كما نصبه وأعزَّه بكلمة يعزله ويذلّه؟!

بناءً عليه، فالمستبدّ وهو من لا يجهل أنَّ الناس أعداؤه لظلمه، لا يأمن على بابه إلا من يثق به أنَّه أظلم منه للناس، وأبعد منه على أعدائه، وأما تلوُّم بعض الوزراء على لوم المستبدّ فهو إن لم يكن خداعًا للأمة فهو حنقٌ على المستبدّ؛ لأنه بخس ذلك المتلوّم حقه، فقدَّم عليه من هو دونه في خدمته بتضحية دينه ووجدانه.

وكذلك لا يكون الوزير أمينًا من صولة المستبدّ في صحبته ما لم يسبق بينهما وفاق واتِّفاق على خيرة الشيطان؛ لأن الوزير محسودٌ بالطبع، يتوقّع له المزاحمون كلَّ شرّ، ويبغضه الناس ولو تبعًا لظالمهم، وهو هدفٌ في كلِّ ساعةٍ للشكايات والوشايات. كيف يكون عند الوزير شيءٌ من التقوى أو الحياء أو العدل أو الحكمة أو المروءة أو الشّفقة على الأمة، وهو العالم بأنَّ الأمة تبغضه وتمقته وتتوقّع له كلَّ سوء، وتشمت بمصائبه، فلا ترضى عنه ما لم يتّفق معها على المستبدّ، وما هو بفاعلٍ ذلك أبدًا إلا إذا يئس من إقباله عنده، وإن يئس وفعل فلا يقصد نفْع الأمة قطّ، إنما يريد فتح بابٍ لمستجدٍّ جديد عساه يستوزره فيؤازره على وزره.

والنتيجة أنَّ وزير المستبدّ هو وزير المستبدّ، لا وزير الأمّة كما في الحكومات الدستورية. كذلك القائد يحمل سيف المستبدّ ليغمده في الرقاب بأمر المستبدّ لا بأمر

الأمة، بل هو يستعيذ أن تكون الأمة صاحبة أمر، لما يعلم من نفسه أنَّ الأمّة لا تقلِّد القيادة لمثله.

بناءً عليه؛ لا يغترُّ العقلاء بما يتشدَّق به الوزراء والقُوَّاد من الإنكار على الاستبداد والتفلسف بالإصلاح وإن تلهَّفوا وإن تأففوا، ولا ينخدعون لمظاهر غيرتهم وإن ناحوا وإن بكوا، ولا يثقون بهم ولا بوجدانهم مهما صلّوا وسبّحوا، لأنَّ ذلك كلّه ينافي سيرهم وسيرتهم، ولا دليل على أنّهم أصبحوا يخالفون ما شبّوا وشابوا عليه، هم أقرب أن لا يقصدوا بتلك المظاهر غير إقلاق المستبدِّ وتهديد سلطته ليشاركهم في استدرار دماء الرّعية؛ أي أموالها.

نعم، كيف يجوز تصديق الوزير والعامل الكبير الذي قد أَلِف عمرًا كبيرًا لذّة البذَخ وعزّة الجبروت في أنَّه يرضى بالدخول تحت حكم الأمّة، ويخاطر بعرض سيفه عليها فتحلّه أو تكسره تحت أرجلها. أليس هو عضوًا ظاهر الفساد في جسم تلك الأمة التي قتل الاستبداد فيها كلَّ الأميال الشريفة العالية فأبعدها عن الأنس والإنسانية، حتّى صار الفلاح التعيس منها يؤخذ للجندية وهو يبكي، فلا يكاد يلبس كمَّ السترة العسكرية إلا ويتلبَّس بشرِّ الأخلاق، فيتنمّر على أمه وأبيه، ويتمرّد على أهل قريته وذويه، ويكظُّ أسنانه عطشًا للدماء لا يميّز بين أخٍ وعدو؟!

إنَّ أكابر رجال عهد الاستبداد لا أخلاق لهم ولا ذمّة، فكلُّ ما يتظاهرون به أحيانًا من التذمُّر والتألّم يقصدون به غشَّ الأمة المسكينة التي يطمعهم في انخداعها وانقيادها لهم علمهم بأنَّ الاستبداد القائم بهم والمستعمر بهمَّتهم قد أعمى أبصارها وبصائرها، وخدَّر أعصابها، فجعلها كالمصاب بِبُحْرَان (١٦٥) العَمَى، فهي لا ترى غير هوْل وظلام وشدة وآلام، فتئنُّ من البلاء ولا تدري ما هو تداويه، ولا من أين

(١٦٥) البُحْرَانُ: بِالضَمِّ لفظةٌ يونانيةٌ، وَهُوَ عبارةٌ عَن الانتقالِ من حالةٍ إِلى أُخرَى. وَهُوَ عِنْد الأَطِبَّاءِ التَغَيُّرُ الّذي يحَدُثُ للعَلِيلِ دَفْعَة فِي الأَمراضِ الحادَّةِ.
والمراد به هنا: داء العَمَى. انظر: «تاج العروس» [١٠/ ١٢١].

جاءها لتصدَّه، فتواسيها فئة من أولئك المتعاظمين باسم الدين يقولون: يا بؤساء؛ هذا قضاءٌ من السماء لا مردَّ له، فالواجب تلقّيه بالصبر والرضاء والالتجاء إلى الدعاء، فاربطوا ألسنتكم عن اللغْو والفُضول، واربطوا قلوبكم بأهل السكينة والخمول، وإياكم والتدبير فإن الله غيور، وليكن وِرْدُكم: اللهم انصر سلطاننا، وآمِنّا في أوطاننا، واكشف عنا البلاء، أنت حسبنا ونعم الوكيل. ويُغرِّر الأمة آخرون من المتكبرين بأنهم الأطباء الرحماء المهتمون بمداواة المرض، إنَّما هم يترقَّبون سُنُوح الفُرَص، وكلا الفريقين -والله- إما أدْنِياء جُبناء، أو هم خائنون مخادعون، يريدون التثبيط والتلْبيد والامتنان على الظالمين.

من دلائل أن أولئك الأكابر مغرِّرون مخادعون يظهرون ما لا يُبطنون، أنَّهم لا يستصنعون إلا الأسافل الأراذل من الناس، ولا يميلون لغير المُتملِّقين المنافقين من أهل الدين، كما هو شأن صاحبهم المستبدّ الأكبر، ومنها أنَّه قد يوجد فيهم من لا يتنزَّل لقليل الرشوة أو السرقة، ولكنْ؛ ليس فيهم العفيف عن الكثير، وكفى بما يتمتعون من الثروات الطائلة التي لا منْبت لها غير المستبيح الفاخر بمشاركة المستبدَّ في امتصاصه دم الأمة، وذلك بأخذهم العطايا الكبيرة، والرواتب الباهظة، التي تعادل أضعاف ما تسمح به الإدارة العادلة لأمثالهم؛ لأنها إدارة راشدة لا تدفع أجورًا زائدة. ومنها أنهم لا يصرفون شيئًا ولو سِرًّا من هذا السُّحْت[١٦٦] الكثير في سبيل مقاومة الاستبداد الذي يزعمون أنهم أعداؤه، إنما يصرف بعضهم منه شيئًا في الصدقات الطفيفة وبناء المعابد سمعةً ورياءً، وكأنهم يريدون أن يسرقوا أيضًا قلوب الناس بعد سلْب أموالهم أو أنهم يرشون الله، ألا ساء ما يتوهمون.

ومنها أنَّ أكثرهم مُسرفون مبذِّرون، فلا تكفي أحدهم الرواتب المعتدلة التي يمكن أن ينالها أجرة خدمة لا ثمن ذمة. ومنها أنه قد يكون أحدهم شحيحًا مقتِّرًا

---

(١٦٦) السُّحت: هو الحرام.

في نفقاته؛ بحيث يخلُّ في شرف مقامه، فلا يصرف نصف أو ربع راتبه مع أنَّه يقبضه زائدًا على أجر مثله لأجل حفظ شرف المقام، العائد لشرف الأمة، وبهذا الشُّحّ يكون خائنًا ومهينًا.

والحاصل أنَّ الأكابر حريصون على أن يبقى الاستبداد مطلقًا لتبقى أيديهم مطلقة في الأموال.

هذا ولا ينكر التاريخ أن الزمان أوجد نادرًا بعض وزراء وازَرُوا الاستبداد عمرًا طويلًا، ثمَّ ندموا على ما فرَّطوا فتابوا وأنابوا، ورجعوا نصف الأمة واستعدوا بأموالهم وأنفسهم لإنقاذها من داء الاستبداد. ولهذا؛ لا يجوز اليأس من وجود بعض أفراد من الوزراء والقواد عريقين في الشهامة، فيظهر فيهم سرّ الوراثة ولو بعد بطون أو بعد الأربعين وربما السبعين من أعمارهم ظهورًا بيّنًا تلألأ في مُحيَّا صاحبه ثُريَّا صِدْق النَّجابة. ولا ينبغي لأمةٍ أن تتَّكِل على أن يظهر فيها أمثال هؤلاء، لأنَّ وجودهم من الصُّدَف التي لا تُبنى عليها آمال ولا أحلام.

والنتيجة أنَّ المستبد فرْدٌ عاجز لا حول له ولا وقوة إلا بالمتمجدين، والأمة؛ أي أمة كانت، ليس لها من يَحُكُّ جلدها غير ظفْرها، ولا يقودها إلا العقلاء بالتنوير والإهداء والثبات، حتى إذا ما اكفهرَّتْ سماء عقول بينها قيَّض الله لها من جمعهم الكبير أفرادًا كبار النفوس قادة أبرار يشترون لها السعادة بشقائهم والحياة بموتهم؛ حيث يكون الله جعل في ذلك لذَّتهم، ولِمِثْل تلك الشهادة الشريفة خلَقهم، كما خلق رجال عهد الاستبداد فسّاقًا فُجّارًا مهالكهم الشهوات والمثالِب. فسبحان الذي يختار من يشاء لما يشاء، وهو الخَلاّق العظيم.

الاستبداد والمال

الاستبداد لو كان رجلًا وأراد أن يحتسب وينتسب لقال: «أنا الشرُّ، وأبِي الظلم، وأمّي الإساءة، وأخي الغدر، وأختي المسْكَنة، وعمِّي الضُّرّ، وخالي الذُّلّ، وابني الفقر، وبنتي البطالة، وعشيرتي الجهالة، ووطني الخراب، أما ديني وشرفي فالمال المال المال».

المال يصحُّ في وصْفه أن يُقال: القوة مال، والوقت مال، والعقل مال، والعلم مال، والدِّين مال، والثّبات مال، والجاه مال، والجمال مال، والترتيب مال، والاقتصاد مال، والشُّهرة مال، والحاصل كلُّ ما يُنتَفَع به في الحياة هو مال.

وكلُّ ذلك يُباع ويُشترى؛ أي يستبدل بعضه ببعض، وموازين المعادلة هي: الحاجة والعزّة والوقت والتعب، ومحافظة اليد والفضة والذهب والذمة، وسوقه المجتمعات، وشيخ السوق السلطان... فانظر في سوق يتحكّم فيه مستبدٌّ؛ يأمر زيْدًا بالبيع، وينهى عَمْرًا عن الشراء، ويغْصب بَكْرًا ماله، ويحابِي خالِدًا من مال الناس.

المال تعْتوِرُه[١٦٧] الأحكام، فمنه الحلال ومنه الحرام وهما بيِّنان، ولَنِعْمَ الحاكم فيها الوجْدان، فالحلال الطيب ما كان عوض أعيان، أو أجرة أعمال، أو بدل وقت، أو مقابل ضمان. والمال الخبيث الحرام هو ثمن الشّرف، ثمَّ المغصوب، ثمَّ المسروق، ثمَّ المأخوذ إلجاءً[١٦٨] ثمَّ المحتال فيه.

---

(١٦٧) **تعْتوِرُه: يعني تصيبه.**

(١٦٨) **الإلجاء التَّلْجِئَةُ: أن يَجْعَل مالَه لِبَعضِ وَرَثتِه دون بعضٍ كأنَّه يتصدَّق به عليه وهو وارِثُه. انظر: «تاج العروس» مادة: «لجأ».**

إنَّ النظـام الطبيعـي في كـلِّ الحيوانـات حتـى في الـسّمك والهـوَام، إلا أنثـى العنكبوت، إنَّ النوع الواحد منها لا يأكل بعضه بعضًا، والإنسان يأكل الإنسان.

ومن غريزة سائر الحيوان أن يلتمس الرِّزق من الله؛ أي مـن مـوْرده الطبيعـي، وهذا الإنسان الظّالم نفسه حريصٌ على اختطافه من يد أخيه، بل مـن فيـه، بـل كـم أكل الإنسانُ الإنسان!

الاستبداد والإنسان

عاش الإنسان دهرًا طويلًا يتلذَّذ بلحم الإنسان ويتلمَّظ بدمائه، إلى أن تمكَّن الحكماء في الصّين، ثمَّ الهند من إبطال أكل اللحم كليًّا، سَدًّا للباب، كما هو دأبهم إلى الآن. ثمَّ جاءت الشرائع الدينية الأُولى في غربي آسيا بتخصيص ما يؤكل من الإنسان بأسير الحرب، ثمَّ بالقُربان يُنذَر للمعبود، ويُذبَح على يد الكهان. ثمَّ أُبطِل أكلُ لحم القربان، وجُعِل طُعْمة للنيران.

وهكذا تدرَّج الإنسان إلى نسيان لذَّة لحْم إخوانه، وما كان لينسى عبادة إهراق الدِّماء لولا إبراهيم شيخ الأنبياء استبدل قربان البَشر بالحيوان، واتَّبعه موسى عليهما السلام، وبه جاء الإسلام. وهكذا بطل هذا العدوان بهذا الشكل إلا في أواسط أفريقيا عند (النامنام) (١٦٩).

الاستبداد المشؤوم لم يرضَ أن يقتل الإنسان الإنسان ذبْحًا ليأكل لحمه أكلًا كما كان يفعل الهمَج الأوَّلون، بل تفنَّن في الظلم، فالمستبدّون يأسرون جماعتهم، ويذبحونهم فصدًا بِمِبْضَع الظلم، ويمتصون دماء حياتهم بغصْب أموالهم، ويقصرون أعمارهم باستخدامهم سُخْرة في أعمالهم، أو بغصب ثمرات أتعابهم. وهكذا لا فرق بين الأولين والآخرين في نهب الأعمار وإزهاق الأرواح إلا في الشكل.

---

(١٦٩) النامنام: هي بعض قبائل إفريقية يُقال إنَّها من أكَلَة لحوم البشر. وما زال أكْلُ لحم الإنسان منتشرا في بعض الشعوب البدائية في وسط أفريقيا، أو في بعض الجزر النائية في شرق آسيا، بل هي لا تزال تظهر بعض الحالات الفردية في البلاد المتحضرة من جرائم القتل ما يتبعها تقطيع المقتول، وأكْل كبده، أو قلبه، أو حتى أجزاء من جسمه، كله أو جزئه. وقد قرأنا ذلك وشاهدناه بِعَينيْ رأسنا!

إنَّ بحث الاستبداد والمال بحثٌ قويُّ العلاقة بالظُّلم القائم في فطرة الإنسان، ولهذا؛ رأيت أن لا بأس في الاستطراد لمقدِّمات تتعلَّق نتائجها بالاستبداد السياسي، فمن ذلك:

إنَّ البشر المقدَّر مجموعهم بألف وخمسمائة مليون[١٧٠] نصفهم كَلٌّ[١٧١] على النّصْف الآخر، ويشكِّل أكثرية هذا النصف الكَلّ نساء المدن. ومن النّساء؟ النّساء هنَّ النّوع الذي عرف مقامه في الطبيعة بأنَّه هو الحافظ لبقاء الجنس، وأنَّه يكفي للألف منه ملقح واحد، وإنَّ باقي الذكور حظهم أن يُساقُوا للمخاطر والمشاقّ، أو هم يستحقّون ما يستحقُّه ذَكَر النحْل[١٧٢].

وبهذا النظر اقتسمت النساء مع الذكور أعمال الحياة قسمةً ضِيزَى[١٧٣]، وتحكَّمْن بسَنِّ قانونٍ عام؛ به جعلن نصيبهنَّ هيِّن الأشغال بدعوى الضّعف، وجعلن نوعهنَّ مطلوبًا عزيزًا بإيهام العفّة، وجعلْن الشجاعة والكرم سيئتيْن فيهنَّ محمدتين في الرجال، وجعلن نوعهنَّ يُهين ولا يُهان، ويظلم أو يُظلَم فيُعان؛ وعلى هذا القانون يربِّين البنات والبنين، ويتلاعبن بعقول الرِّجال كما يشأن حتى أنهن جعلن الذكور يتوهمون أنَّهن أجمل منهم صورةً.

والحاصل أنَّه قد أصاب من سمَّاهنَّ بالنصف المضرِّ! ومن المشاهد أنَّ ضرر النساء بالرجال يترقّى مع الحضارة والمدنية على نسبة التَّرقي المضاعف. فالبدوية تشارك الرجل مناصفةً في الأعمال والثمرات، فتعيش كما يعيش، والحضرية تسْلُب الرّجل لأجل معيشتها وزينتها اثنين من ثلاث. وتُعينه في أعمال البيت. والمدنية

---

(١٧٠) هذا التقدير يعود إلى أواخر القرن التّاسع عشر.

(١٧١) كَلٌّ: يعني عالة.

(١٧٢) وهو أن الإناث تقتله بعد التلقيح.

(١٧٣) ضِيزَى: يعني ظالمة جائرة.

تسلب ثلاثة من أربعة، وتودُّ أن لا تخرج من الفراش، وهكذا تترقَّى بنات العواصم في أسر الرِّجال. وما أصدق بالمدنية الحاضرة في أوروبا؛ أن تسمّى المدنية النسائية، لأنَّ الرِّجال فيها صاروا أنعامًا للنِّساء.

ثمَّ إنَّ الرِّجال تقاسموا مشاقَّ الحياة قسمةً ظالمةً أيضًا، فإنَّ أهل السياسة والأديان ومن يلتحق بهم – وعددهم لا يبلغ الخمسة في المائة – يتمتعون بنصف ما يتجمَّد في دم البشر أو زيادة، يُنفقون ذلك في الرَّفَه والإسراف، مثال ذلك: أنَّهم يزيِّنون الشوارع بملايين من المصابيح لمرورهم فيها أحيانًا متراوحين بين الملاهي والمواخير ولا يفكِّرون في ملايين من الفقراء يعيشون في بيوتهم في ظلام.

ثمَّ أهل الصنائع النفيسة والكمالية، والتجار الشَّرِهون المحتكرون وأمثال هذه الطبقة –ويقدَّرون كذلك بخمسة في المائة– يعيش أحدهم بمثل ما يعيش به العشرات أو المئات أو الألوف من الصُّنّاع والزُّرّاع.

وجرثومة هذه القسمة المتفاوتة المتباعدة الظّالمة هي الاستبداد لا غيره. وهناك أصناف من النّاس لا يعملون إلا قليلًا، إنما يعيشون بالحيلة كالسماسرة والمشعوذين باسم الأدب أو الدين، وهؤلاء يُقدَّرون بخمسة عشر في المائة، أو يزيدون على أولئك.

نعم؛ لا يقتضي أن يتساوى العالم الذي صرف زهْوة حياته في تحصيل العلم النافع أو الصنعة المفيدة بذاك الجاهل النائم في ظلِّ الحائط، ولا ذاك التاجر المجتهد المخاطر بالكسول الخامل، ولكن العدالة تقتضي غير ذلك التفاوت، بل تقتضي الإنسانية أن يأخذ الراقي بيد السّافل، فيقرِّبه من منزلته، ويقاربه من منزلته، ويُقاربه في معيشته، ويعينه على الاستقلال في حياته.

لا! لا! لا يطلب الفقير معاونة الغني، إنما يرجوه أن لا يظلمه، ولا يلتمس منه الرّحمة، إنما يلتمس العدالة، لا يؤمِّل منه الإنصاف، إنما يسأله أن لا يُميته في ميدان مزاحمة الحياة.

بَسَطَ المولى -جلّتْ حكمته- سلطان الإنسان على الأكوان، فطغى، وبغى، ونسي ربَّه وعبد المال والجمال، وجعلهما منيته ومبتغاه، كأنَّه خُلق خادمًا لبطنه وعضوه فقط، لا شأن له غير الغذاء والتّحاك. وبالنظر إلى أنَّ المال هو الوسيلة الموصلة للجمال كاد ينحصر أكبر همٍّ للإنسان في جمع المال، ولهذا يُكنَّى عنه بمعبود الأمم وبسرِّ الوجود، وروى كريسكوا المؤرِّخ الروسي: إنَّ كاترينا[١٧٤] شكِتْ كسل رعيّتها، فأرشدها شيطانُها إلى حمْل النِّساء على الخلاعة، ففعلتْ وأحدثت كسْوة[١٧٥] المراقِص، فهبَّ الشبّان للعمل وكسْب المال لصرْفه على ربَّات الجمال، وفي ظرف خمس سنين؛ تضاعف دخل خزينتها، فاتَّسع لها مجال الإسراف. وهكذا المستبدّون لا تهمهم الأخلاق، إنَّما يهمهم المال.

المال عند الاقتصاديين: ما ينتفع به الإنسان، وعند الحقوقيين: ما يجري فيه المنع والبذل؛ وعند السياسيين: ما تُستعاض به القوة؛ وعند الأخلاقيين: ما تُحفظ به الحياة الشريفة. المال يستمدُّ من الفيض الذي أودعه الله تعالى في الطبيعة ونواميسها، ولا يملك؛ أي لا يتخصص بإنسان، إلا بعمل فيه أو في مقابله.

والمقصود من المال هو أحد اثنين لا ثالث لهما وهما: تحصيل لذّة أو دفْع ألم، وفيهما تنحصر كلُّ مقاصد الإنسان، وعليهما مبنى أحكام الشرائع كلها، والحاكم

---

(١٧٤) قال الأستاذ محمد جمال الطحان في تعليقه على «طبائع الاستبداد»: «في الغالب، الكواكبي يخْلِط بين اثنتين:

كاترينا الثانية (١٧٢٩ - ١٧٩٦ م) المعروفة بكاترينا الكبيرة. إمبراطورة روسيا (١٧٦٢ - ١٧٩٦ م) خلعت زوجها بطرس الثالث واستولت على الحكم، واشتهرت بانتصاراتها على الأتراك وبحمايتها الفلاسفة والعلماء.

وكاترينا مديتشي (١٥١٩ - ١٥٨٩ م) ملكة فرنسا التي أتقنت السياسة ومارستها دون رادع أخلاقي، فكانت سببًا في اضطرام الحروب الدينية، وفي المذابح التي رافقتْها».

(١٧٥) كذا في المطبوع، ولعلها: «كثرة».

المعتدل في طيّب المال وخبيثه؛ هو الوجْدان الذي خلقه الله صبغةً للنّفس، وعبَّر عنه القرآن بإلهامها فجورها وتقواها[١٧٦]، فالوجْدان خيَّر بين المال الحلال والمال الحرام.

ثمَّ إنَّ أعمال البشر في تحصيل المال ترجع إلى ثلاثة أصول:

١- استحضاره المواد الأصلية.

٢- تهيئته المواد للانتفاع.

٣- توزيعها على الناس.

وهي الأصول التي تسمّى بالزراعة والصناعة والتجارة، وكلُّ وسيلة خارجة عن هذه الأصول وفروعها الأولية، فهي وسائل ظالمة لا خير فيها.

التموُّل؛ أي ادِّخار المال، طبيعة في بعض أنواع الحيوانات الدنيئة كالنمل والنحل، ولا أثر له في الحيوانات المرتقية غير الإنسان.

الإنسان تطبَّع على التموُّل لدواعي الحاجة المحقَّقة أو الموهومة، ولا تحقُّق للحاجة إلا عند سكان الأراضي الضيّقة الثمرات على أهلها، أو الأراضي المعرَّضة للقحط في بعض السنين، ويلتحق بالحاجة المحقَّقة حاجة العاجزين جسمًا عن الارتزاق في البلاد المبتلاة بجَوْر الطبيعة أو جور الاستبداد، وربما يلتحق بها أيضًا الصرْف على المضطرين وعلى المصارف العمومية في البلاد التي ينقصها الانتظام العام.

والمراد بالانتظام العام، معيشة الاشتراك العمومي التي أسسها الإنجيل بتخصيصه عشر الأموال للمساكين، ولكن؛ لم يكد يخرج ذلك من القوة إلى الفعل، ثمَّ أحدث الإسلام سُنَّة الاشتراك على أتمِّ نظام، ولكن لم تدم أيضًا أكثر من قرْنٍ

---

(١٧٦) إشارة إلى الآية الكريم: ﴿ فألهمها فجورها وتقواها ﴾: سورة الشمس آية ٨.

واحد كان فيه المسلمون لا يجدون من يدفعون لهم الصدقات والكفّارات، وذلك أنَّ الإسلامية – كما سبق بيانه- أسست حكومة أرستقراطية المبنى، ديمقراطية الإدارة، فوضعتْ للبشر قانونًا مؤسسًا على قاعدة: إنَّ المال هو قيمة الأعمال، ولا يجتمع في يد الأغنياء إلا بأنواع من الغَلَبة والخداع.

فالعدالة المطلقة تقتضي أن يُؤخذ قسمٌ من مال ويُردّ على الفقراء؛ بحيث يحصل التعديل ولا يموت النشاط للعمل. وهذه القاعدة يتمنّى ما هو من نوعها أغلب العالم المتمدن الإفرنجي، وتسعى وراءها الآن جمعيات منهم منتظمة مكوَّنة من ملايين كثيرة.

وهذه الجمعيات تقصد حصول التساوي أو التقارب في الحقوق المعاشية بين البشر، وتسعى ضدَّ الاستبداد المالي، فتطلب أنْ تكون الأراضي والأملاك الثابتة وآلات المعامل الصناعية الكبيرة مشتركة الشيوع بين عامة الأمة، وأنَّ الأعمال والثمرات تكون موزَّعة بوجوهٍ متقاربة بين الجميع، وأنَّ الحكومة تضع قوانين لكافة الشؤون حتى الجزئيات، وتقوم بتنفيذها.

وهذه الأصول مع بعض التعديل قررتها الإسلامية دينًا، وذلك أنها قررت:

أولًا- أنواع العشور والزكاة وتقسيمها على أنواع المصارف العامة وأنواع المحتاجين حتى المدينين. ولا يخفى على المدققين أنَّ جزءًا من أربعين من رؤوس الأموال يقارب نصف الأرباح المعتدلة باعتبار أنها خمسة بالمائة سنويًا، وبهذا النظر يكون الأغنياء مضاربين للجماعة مناصفةً. وهكذا يلحق فقراء الأمة بأغنيائها، ويمنع تراكم الثروات المُفْرطة المولِّدة للاستبداد، والمضرَّة بأخلاق الأفراد.

ثانيًا- قررتْ أحكامُ محكمةٍ تمنع محذور التواكل في الارتزاق، وتُلزِم كلَّ فرد من الأمة متى اشتدَّ ساعده، أو ملك قوت يومه، أو النَّصّاب على الأكثر؛ أن يسعى

لرزقه بنفسه، أو يموت الفرد جوعًا؛ إذا لم تكن حكومته مستبدّة تضرب على يده وسعيه ونشاطه بمدافع استبدادها، وقد قيل: يبدأ الانقياد للعمل عند نهاية الخوف من الحكومة ونهاية الاتّكال على الغير.

ثالثًا- قررت الإسلامية ترك الأراضي الزراعية ملكًا لعامة الأمة، يستنبتْها ويستمتع بخيراتها العاملون فيها بأنفسهم فقط، وليس عليهم غير العُشْر أو الخراج الذي لا يجوز أن يتجاوز الخُمْس لبيت المال.

رابعًا- جاءت الإسلامية بقواعد شرعية كليّة تصلح للإحاطة بأحكام كافة الشؤون حتى الجزئية الشخصية، وأناطت تنفيذها بالحكومة، كما تطلبه أغلب جمعيات الاشتراكيين. على أنَّ هذا النظام الذي جاء به الإسلام، صعب الإجراء جدًا، لأنَّه منوط بسيطرة الكلّ ورضاء النفوس، ولأنَّ القانون الكثير الفروع يتعذَّر حفظه بسيطًا، ويكون معرَّضًا للتأويل حسب الأغراض، وللاختلاف في تطبيقه حسب الأهواء، كما وقع فعلًا في المسلمين، فلم يمكنهم إجراء شريعتهم ببساطة وأمان إلا عهدًا قليلًا، ثمَّ تشعَّبت معهم الأمور بطبيعة اتِّساع الملك واختلاف طبائع الأمم، وفَقدُ الرجال الذين يمكنهم أن يسوقوا مئات ملايين من أجناس الناس: الأبيض والأصفر، والحضَري والبدوي، بعصا واحدة قرونًا عديدة.

ولا غَرْوَ إذا كانت المعيشة الاشتراكية من أبدع ما يتصوَّره العقل، ولكن؛ مع الأسف لم يبلغ البشر بعد الترقّي ما يكفي لتوسيعهم نظام التعاون والتضامن في المعيشة العائلية إلى إدارة الأمم الكبيرة.

وكم جرَّبت الأمم ذلك فلم تنجح فيها إلا الأمم الصغيرة مدة قليلة. والسبب كما تقدَّم هو مجرّد صعوبة التحليل والتركيب بين الصوالح والمصالح الكثيرة المختلفة. والمتأمِّل في عدم انتظام حالة العائلات الكبيرة، يقنع حالًا بأنَّ التكافل

والتضامن غير ميسورين في الأمم الكبيرة؛ ولهذا يكون خير حلٍّ مقدور للمسألة الاجتماعية هو ما يأتي:

١- يكون الإنسان حرًّا مستقلًا في شؤونه، كأنه خُلِق وحده.

٢- تكون العائلة مستقلة، كأنها أمة وحدها.

٣- تكون القرية أو المدينة مستقلة كأنها قارّة واحدة لا علاقة لها بغيرها.

٤- تكون القبائل في الشعب أو الأقاليم في المملكة كأنها أفلاك؛ كلٌّ منها مستقلٌّ في ذاته، لا يربطها بمركز نظامها الاجتماعي؛ وهو الجنس أو الدين أو الملك غير محض التجاذب المانع من الوقوع في نظام آخر لا يلائم طبائع حياتها.

ثمَّ إنَّ التموُّل لأجل الحاجات السالفة الذِّكر وبقدرها فقط محمودة بثلاثة شروط، وإلاّ كان التموّل من أقبح الخصال:

الشرط الأول: أن يكون المال بوجه مشروع حلال؛ أي بإحرازه من بذل الطبيعة، أو بالمعاوضة، أي في مقابل عمل، أو في مقابل ضمان على ما تقوم بتفصيله الشرائع المدنية.

والشرط الثاني: أن لا يكون في التموّل تضييق على حاجيات الغير كاحتكار الضروريات، أو مزاحمة الصنّاع والعُمال الضعفاء، أو التغلُّب على المباحات؛ مثل امتلاك الأراضي التي جعلها خالقها ممرحًا لكافة مخلوقاته، وهي أمهم ترضعهم لبن جهازاتها، وتغذّيهم بثمراتها، وتأويهم في حضْن أجزائها، فجاء المستبدّون الظالمون الأولون ووضعوا أصولًا لحمايتها من أبنائها وحالوا بينهما. فهذه إيرلندة - مثلًا- قد حماها ألف مستبدّ مالي من الإنكليز، ليتمتعوا بثلثي أو ثلاثة أرباع ثمرات أتعاب عشرة ملايين من البشر الذين خُلِقوا من تربة إيرلندة.

وهذه مصر وغيرها تقرب من ذلك حالًا وستفوقها مالًا، وكم من البشر في أوربا المتمدنة، وخصوصًا في لندرة وباريس، لا يجد أحدهم أرضًا ينام عليها متمددًا، بل ينامون في الطبقة السفلى من البيوت؛ حيث لا ينام البقر، وهم قاعدون صفوفًا يعتمدون بصدورهم على حبالٍ من مسد منصوبة أفقية يتلوون عليها يمنةً ويسرة.

وحكومة الصين المختلّة النظام في نظر المتمدنين، لا تجيز قوانينها أن يمتلك الشّخص الواحد أكثر من مقدار معين من الأرض لا يتجاوز العشرين كيلومترًا مربعًا؛ أي نحو خمسة أفدن مصرية أو ثلاثة عشر دونمًا عثمانيًا.

وروسيا المستبدّة القاسية في عُرْف أكثر الأوربيين وضعتْ -أخيرًا- لولايتها البولونية الغربية قانونًا أشبه بقانون الصين، وزادت عليه أنَّها منعت سماع دعوى دينٍ مسجّل على فلاح، ولا تأذن لفلاحٍ أن يستدين أكثر من نحو خمسمائة فرنك.

وحكومات الشّرق إذا لم تستدرك الأمر فتضع قانونًا من قبيل قانون روسيا، تصبح الأراضي الزراعية بعد خمسين عامًا أو قرن على الأكثر كإيرلندة الإنكليزية المسكينة، التي وجدت لها في مدى ثلاثة قرون شخصًا واحدًا حاول أن يرحمها فلم يُفلح؛ وأعني به غلادستون[١٧٧]، على أنَّ الشرق ربما لا يجد في ثلاثين قرنًا من يلتمس له الرَّحمة.

---

(١٧٧) هو وليام إيوارت غلادستون (٢٩ ديسمبر ١٨٠٩-١٩ مايو ١٨٩٨). سياسي بريطاني تولى رئاسة الوزارة في بريطانيا أربع مرات. وهو الوحيد من بين رؤساء وزراء بريطانيا الذي رأس أربع حكومات، وهو صاحب المقولة المشهورة : «ما دام هذا القرآن موجودا في أيدي المسلمين فلن تستطيع أوروبا السيطرة على الشرق». له ترجمة حسنة في الموقع العالمي (Wikipedia, the free encyclopedia) تحت عنوان: (William Ewart Gladstone).

والشرط الثالث لجواز التمّول، هو: ألا يتجاوز المال قدْر الحاجة بكثير، لأن إفراط الثروة مهلكة للأخلاق الحميدة في الإنسان، وهذا معنى الآية: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ * أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾[١٧٨]، والشرائع السماوية كلُّها، وكذلك الحكمة الأخلاقية والعمرانية حرَّمت الربا؛ صيانةً لأخلاق المرابين من الفساد، لأنَّ الربا: هو كسب بدون مقابل مادي؛ ففيه معنى الغصْب، وبدون عمل؛ لأنَّ المرابي يكسب وهو نائم؛ ففيه الأُلْفة على البطالة، ومن دون تعرُّض لخسائر طبيعية كالتجارة والزراعة والأملاك؛ ففيه النماء المطلق المؤدي لانحصار الثروات. ومن القواعد الاقتصادية المتَّفق عليها أنْ ليس من كسْبٍ لا عار ولا احتكار فيه أرْبح من الربا مهما كان معتدلًا، وأنَّ بالربا تربو الثروات فيختلُّ التساوي أو التقارب بين النّاس.

وقد نظر الماليُّون وبعض الاقتصاديين من أنصار الاستبداد في أمر الرِّبا، فقالوا: إنَّ المعتدل منه نافع، بل لا بدَّ منه:

أولًا: لأجل قيام المعاملات الكبيرة.

وثانيًا: لأجل أنَّ النقود الموجودة لا تكفي للتداول، فكيف إذا أمسك المكْتنِزون قسمًا منها أيضًا؟!

وثالثًا: لأجل أنَّ كثيرين من المتمولين لا يعرفون طرائق الاسترباح أو لا يقدرون عليها، كما أنَّ كثيرًا من العارفين بها لا يجدون رؤوس أموال ولا شركاء عنان. فهذا النظر صحيح من وجه إنماء ثروات بعض الأفراد.

أما السياسيون الاشتراكيُّو المبادئ والأخلاقيُّون، فينظرون إلى أنَّ ضرر الثروات الأفرادية في جمهور الأمم أكبر من نفعها. لأنها تُمكِّن الاستبداد الداخلي،

---

(١٧٨) **العلق**: ٦ - ٧.

فتجعل الناس صنفين: عبيدًا وأسيادًا[١٧٩]، وتُقَوّي الاستبداد الخارجي، فتسهِّل للأمم التي تغنى بغناء أفرادها التعدّي على حرية استقلال الأمم الضعيفة. وهذه مقاصد فاسدة في نظر الحكمة والعدالة؛ ولذلك يقتضي تحريم الرِّبا تحريمًا مغلَّظًا.

حِرْص التموُّل، وهو الطمع القبيح، يخفُّ كثيرًا عند أهالي الحكومات العادلة المنتظمة ما لم يكن فساد الأخلاق منْغلبًا[١٨٠] على الأهالي، كأكثر الأمم المتمدِّنة في عهدنا؛ لأنَّ فساد الأخلاق يزيد في الميْل إلى التموُّل في نسبة الحاجة الإسرافية، ولكنَّ تحصيل الثروة الطائلة في عهد الحكومة العادلة عسيرٌ جدًا، وقد لا يتأتَّى إلا من طريق المُرَاباة مع الأمم المنحطّة، أو التجارة الكبيرة التي فيها نوع احتكار، أو الاستعمار في البلاد البعيدة مع المخاطرات، على أنَّ هذه الصعوبة تكون مقرونة بِلذَّة عظيمة من نوع لذّة من يأكل ما طبخ، أو يسكن ما بَنَى.

وحِرْصُ التموّل القبيح يشتدُّ في رؤوس الناس في عهد الحكومات المستبدَّة؛ حيث يسهل فيها تحصيل الثروة بالسرقة من بيت المال، وبالتعدّي على الحقوق العامة، وبغصب ما في أيدي الضعفاء، ورأس مال ذلك هو أنْ يترك الإنسان الدِّين والوجدان والحياء جانبًا وينحطَّ في أخلاقه إلى ملائمة المستبدّ الأعظم، أو أحد أعوانه وعماله، ويكفيه وسيلةً أن يتّصل بباب أحدهم ويتقرَّب من أعتابه، ويظهر له أنَّه في الأخلاق من أمثاله وعلى شاكلته، ويُبَرْهن له ذلك بأشياء من التملُّق وشهادة الزور، وخدمة الشهوات، والتجسس، والدلالة على السّلْب ونحو ذلك.

ثمَّ قد يطَّلِع هذا المنتسب على بعض الخفايا والأسرار التي يخاف رجال الاستبداد من ظهورها خوفًا حقيقيًا أو وهْميًا، فيكسب المنتسب رسوخ القدم ويصير هو بابًا

---

(١٧٩) الفصيح المشهور أن يقال: «سادة» جمع سيد، أما «أسياد» فأجازه بعض المعاجم العربية المتأخرة. قال صاحب: « معجم الصواب اللغوي دليل المثقف العربي» [١/٤٤]: «وهو جمع لا يرفضه النظر، ومثله: ميّت وأموات، وحيّز وأحياز».

(١٨٠) كذا في المطبوع. ولعل الصواب: «متغلِّبًا».

لغيره، وهكذا يحصل على الثروة الطائلة إذا ساعدته الظروف على الثّبات طويلًا. وهذا أعظم أبواب الثروة في الشرق والغرب، ويليه الاتِّجار بالدّين، ثمَّ الملاهي، ثمَّ الربا الفاحش، وهي بئس المكاسب وبئس ما تؤثِّر في إفساد أخلاق الأمم.

وقد ذكر المدققون أنَّ ثروة بعض الأفراد في الحكومات العادلة أضرّ كثيرًا منها في الحكومات المستبدَّة؛ لأنَّ الأغنياء في الأولى يصرفون قوّتهم المالية في إفساد أخلاق الناس وإخلال المساواة وإيجاد الاستبداد، أمّا الأغنياء في الحكومات المستبدّة فيصرفون ثروتهم في الأُبَّهة والتعاظم إرهابًا للناس، وتعويضًا للسَّفالة المُنْصبَّة عليهم بالتغالي الباطل، ويسرفون الأموال في الفسق والفجور.

بناءً عليه ثروة هؤلاء يتعجّلها الزوال؛ حيث يغصبها الأقوى منهم من الأضعف، وقد يسلبها المستبدُّ الأعظم في لحظةٍ وبكلمة. وتزول أيضًا – والحمد لله– قبل أن يتعلّم أصحابها أو ورثتهم كيف تُحفظ الثروات، وكيف تنمو، وكيف يستعبدون بها الناس استعبادًا أصوليًا مستحكمًا، كما هو الحال في أوربا المتمدنة المهدَّدة بشروط الفَوْضَويِّين[١٨١] بسبب اليأس من مقاومة الاستبداد المالي فيها.

ومن طبائع الاستبداد أنَّه لا يظهر فيه أثَرُ فقْر الأمة ظهورًا بيانًا إلا فجأةً قُرَيب قضاء الاستبداد نحبه. وأسباب ذلك أنَّ الناس يقتصدون في النسْل، وتكثُر وفياتهم، ويكثر تغرّبهم، ويبيعون أملاكهم من الأجانب، فتتقلّص الثروة، وتكثر النقود بين الأيدي. وبئست من ثروة ونقود تُشْبه نشْوة المذبوح.

---

(١٨١) قال الأستاذ محمد جمال الطحان في تعليقه على «طبائع الاستبداد»: «الفوضوية مذهب سياسي واقتصادي مُتطرّف، يرى دُعاته أنَّ الدولة هي أداة الاستبداد في كل نظام اجتماعي، وأن الملكية الفردية مبعث الظلم. من قادة هذا المذهب في القرن التاسع عشر: وليم جودون – برودون – باكونين – كروبوتكين.
ويرى بعض هؤلاء وجوب الرجوع إلى العقل والعلم في تنظيم العلاقات الاجتماعية. وربما يقصد الكواكبي: شرور بدلًا من شروط».

ولنرجِع إلى بحث طبيعة الاستبداد في مطلق المال فأقول: إنَّ الاستبداد يجعل المال في أيدي الناس عرضةً لسلب المستبدّ وأعوانه وعُمّاله غصْبًا، أو بحجةٍ باطلة، وعرضةً أيضًا لسلْب المعتدين من اللصوص والمحتالين الراتعين في ظلِّ أمان الإدارة الاستبدادية. وحيث المال لا يُحصَل إلا بالمشقّة، فلا تختار النفوس الإقدام على المتاعب مع عدم المنِّ على الانتفاع بالثمرة.

حِفْظُ المال في عهد الإدارة المستبدّة أصعب من كسبه؛ لأنَّ ظهور أثره على صاحبه مجلبة لأنواع البلاء عليه، ولذلك يُضطر الناس زمن الاستبداد لإخفاء نعمة الله والتّظاهر بالفقر والفاقة، ولهذا ورد في أمثال الأُسَراء أنَّ حفظ درهم من الذهب يحتاج إلى قنطار من العقل، وأنَّ العاقل من يُخْفي ذهبه وذهابه ومذهبه، وأنَّ أسعد الناس الصعلوكُ الذي لا يعرف الحُكّام ولا يعرفونه.

ومن طبائع الاستبداد، أنَّ الأغنياء أعداؤه فِكْرًا وأوتاده عمَلًا، فهم ربائط المستبدِّ، يذلُّهم فيَئنُّون، ويستدرُّهم فيحنُّون، ولهذا يرسِّخ الذلُّ في الأمم التي يكثر أغنياؤها. أما الفقراء فيخافهم المستبدُّ خوف النعْجة من الذئاب، ويتحبَّب إليهم ببعض الأعمال التي ظاهرها الرأفة، يقصد بذلك أن يغصب أيضًا قلوبهم التي لا يملكون غيرها. والفقراء كذلك يخافونه خوف دناءةٍ ونذالة، خوف البُغاث (١٨٢) من العُقاب (١٨٣)، فهم لا يجسرون على الافتكار فضلًا عن الإنكار، كأنهم يتوهَّمون أنَّ داخل رؤوسهم جواسيس عليهم. وقد يبلغ فساد الأخلاق في الفقراء أن يسرّهم فعلًا رضاء المستبدِّ عنهم بأيِّ وجهٍ كان رضاؤه.

وقد خالف الأخلاقيون المتأخِّرون أسلافهم في قولهم، ليس الفقر بعيب، فقالوا: الفقر أبو المعائب؛ لأنه مفتقرٌ للغير، والغناء استغناءٌ عن النّاس، ثمَّ قالوا:

---

(١٨٢) البُغاث: طَائِر أبغث اللَّوْن أَصغَر من طائر الرُخم، بطيء الطيران. انظر: «المعجم الوسيط» [١/ ٦٤].

(١٨٣) الْعقَاب: طَائِر من كواسر الطير قوي المخالب مسرول لَهُ منقار قصير، حاد الْبَصَر. انظر: «المعجم الوسيط» [٢/ ٦١٣].

الفقر يذهب بعزّة النفس، ويفضي إلى خلع الحياء، وقالوا: إنَّ لحسن اللباس والأمتعة والتنعّم في المعيشة تأثيرًا مهمًا على نفوس البشر، خلافًا لمن يقول: ليس المرء بطيلسانه، وحديث «اخشوشنوا، فإن النعم لا تدوم»[184] هو لأنّه يحمل على التعوّد جسمًا على المشاقّ في الحروب والأسفار وعند الحاجة. فقالوا: إنَّ رَغَد العيش ونعيمه لمن أعظم الحاجات، به تعلو الهمم، ولأجله تُقتَحم العظائم.

يُقال في مدح المال: إنَّ ما يحلُّ المشكلات الزمان والمال. القوة كانت للعصبية، ثمَّ صارت للعلم، ثمَّ صارت للمال. العلم والمال يُطيلان عمْر الإنسان؛ حيث يجعلان شيخوخته كشبابه. لا يُصان الشّرف إلا بالدمّ، ولا يتأتى العزُّ إلا بالمال. وقد مضى مجد الرجال وجاء مجد المال.

وورد في الأثر: «إنَّ اليد العليا خيرٌ من اليد السفلى»[185]. و«أنَّ الغني الشاكر أفضل من الفقير الصابر»[186]. ولم يكن قديمًا أهمية للثروة العمومية، أما الآن وقد صارت المحاربات محض مغالبة وعلم ومال، فأصبح للثروة العمومية أهمية عُظْمى لأجل حفظ الاستقلال، على أنَّ الأمم المأسورة لا نصيب لها من الثروة العمومية، بل منزلتها في المجتمع الإنساني كأنعام تتناقلها الأيدي، ولا تعارض هذه القاعدة ثروة اليهود؛ لأنها ثروة غير مزاحمين عليها، لأنها فيما يقوله أعداؤه فيها: ثروة رأسمالها الناموس، ومصرفها الملاهي والمقامرة والربا والغشّ والمضاربات، ولا يخلو هذا القول من التحامل عليهم حسدًا ممن يقدمون إقدامهم ولا ينالون منالهم[187].

---

(١٨٤) هذا حديث لا أصل له، وورد في حديث ضعيف جدًّا حققه الإمام الألباني في السلسلة الضعيفة [رقم/٣٤١٧] بلفظ: «تمعددوا، واخشوشنوا، وانتضلوا، وامشوا حفاة». ولفظ: و«اخشوشنوا». قد صح عن عمر بن الخطاب موقوفًا عليه.

(١٨٥) [صحيح] أخرجه البخاري [رقم/ ١٣٦٢]، ومسلم [رقم/ ١٠٣٣]. من حديث ابن عمر.

(١٨٦) هذا ليس بحديث، وإنما هو مقولة سائرة.

(١٨٧) قال الأستاذ محمد جمال الطحان في تعليقه على «طبائع الاستبداد»: « وهذا الكلام كان قبل تَوَضُّح معالم القضية الفلسطينية والأطماع الصهيونية في فلسطين».

هذا وللمال الكثير آفات على الحياة الشريفة ترتعد منها فرائص أهل الفضيلة والكمال، الذين يفضلون الكفاف من الرِّزق مع حفْظ الحرية والشرف على امتلاك دواعي الترف والسّرف، وينظرون إلى المال الزائد عن الحاجة الكمالية أنّه بلاء في بلاء في بلاء؛ أي أنّه بلاءٌ من حيث الافتكار بإنمائه، وأما المكتفي فيعيش مطمئنًا مستريحًا أمينًا[١٨٨] بعض الأمْن على دينه وشرفه وأخلاقه.

قرَّر الأخلاقيُّون أنَّ الإنسان لا يكون حُرًّا تمامًا ما لم تكن له صنعة مستقلٌّ فيها؛ أي غير مرؤوس لأحد، لأن حريته الشخصية تكون تابعة لارتباطه بالرؤساء. وعليه تكون أقبح الوظائف هي وظائف الحكومة. وقالوا: إنَّ للصنعة تأثيرًا في الأخلاق والأميال، وهي من أصدق ما يُستَدلُّ به على أحوال الأفراد والأقوام. فالموظفون في الحكومة مثلًا يفقدون الشفقة والعواطف العالية تبعًا لصنعتهم التي من مقتضاها عدم الشعور بتبعة أعمالهم، وقال الحكماء: إنَّ العاجز يجمع المال بالتقتير، والكريم يجمعه بالكسْب، وقالوا: إنَّ أقل كسْبٍ يرضى به العاقل ما يكفي معاشه باقتصاد، وقالوا: خير المال ما يكفي صاحبه ذلّ القِلَّة وطغيان الكثرة. وهذا معنى الحديث «فاز المُخفِّفُون»[١٨٩] وحديث: «اسألوا الله الكَفَاف من الرزق»[١٩٠].

ويُقال: الغِنَى غِنَى القلب، والغني من قلَّت حاجته، والغني من استغنى عن الناس. وقال بعض الحكماء: كلُّ إنسانٍ فقير بالطبْع ينقصه مثل ما يملك، فمن

---

(١٨٨) كذا في المطبوع! ولعل الصواب: «آمِنًا».

(١٨٩) هذا قول مشهور وليس بحديث، لكن ورد معناه عن أبي الدرداء عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: « إن وراءكم عقبة كؤودا، لا يجوزها المثقلون ، فأنا أحب أن أتخفف لتلك العقبة». أخرجه الطبراني وجماعة، وصححه الإمام المنذري. وهو في «صحيح الترغيب والترهيب» [رقم/ ٣١٧٧] للإمام الألباني.

(١٩٠) الصحيح الثابت إنما هو عن أبي هريرة قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: «اللهم اجعل رزق آل محمد قُوتا». أخرجه مسلم [رقم/ ١٠٥٥].

يملك عشرة يرى نفسه محتاجًا لعشرة أخرى، ومن يملك ألفًا يرى نفسه محتاجًا لألفٍ أخرى. وهذا معنى الحديث: «لو كان لابن آدم وادٍ من ذهب أحبَّ أن يكون له واديان»(١٩١).

ولا يقصد الأخلاقيون من التزهيد في المال التثبيط عن كسبه، إنما يقصدون أن لا يتجاوز كسبه بالطرائق الطبيعية الشريفة. أما السياسيون فلا يهمهم إلا أن تستغني الرعية بأي وسيلة كانت، والغربيون منهم يُعينون الأمة على الكسب ليشاركوها، والشرقيون لا يفتكرون في غير سلب الموجود، وهذه من جملة الفروق بين الاستبداديْن الغربي والشرقي، التي منها أنَّ الاستبداد الغربي يكون أحكم وأرسخ وأشدّ وطأةً، ولكنْ مع اللّين، والشرقي يكون مقلقلًا سريع الزوال، ولكنّه يكون مزعجًا.

ومنها أنَّ الاستبداد الغربي إذا زال تبدّل بحكومة عادلة تُقيم ما ساعدت الظروف أن تقيم، أما الشرْقي فيزول ويخلفه استبداد شرٌّ منه؛ لأنَّ من دأب الشرقيين أن لا يفتكروا في مستقبل قريب، كأنَّ أكبر همهم منصرف إلى ما بعد الموت فقط، أو أنهم مُبْتلون بقصر النظر.

وخلاصة القول: إنَّ الاستبداد داءٌ أشدُّ وطأةً من الوباء، أكثر هوْلًا من الحريق، أعظم تخريبًا من السّيل، أذلُّ للنفوس من السؤال. داءٌ إذا نزل بقومٍ سمعتْ أرواحهم هاتف السماء ينادي القضاء القضاء، والأرض تُناجي ربّها بكشف البلاء. الاستبداد عهدٌ؛ أشقى الناس فيه العقلاء والأغنياء، وأسعدهم بمحياه الجهلاء والفقراء، بل أسعدهم أولئك الذين يتعجّلون الموت فيحسدهم الأحياء.

---

(١٩١) [صحيح] هذا ثابت عن أنس بن مالك أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: «لو أن لابن آدم واديا من ذهب أحب أن يكون له واديان، ولن يملأ فاه إلا التراب ويتوب الله على من تاب» أخرجه البخاري [رقم/ ٦٠٧٥]-واللفظ له- ومسلم [رقم/ ١٠٤٨].

الاستبداد والأخلاق

الاستبداد يتصرَّف في أكثر الأميال الطبيعية والأخلاق الحسنة، فيُضعفها، أو يُفسدها، أو يمحوها، فيجعل الإنسان يكفر بنِعَم مولاه؛ لأنه لم يملكها حقّ الملك ليحمده عليها حقّ الحمد، ويجعله حاقدًا على قومه؛ لأنهم عونٌ لبلاء الاستبداد عليه، وفاقدًا حبّ وطنه؛ لأنَّه غير آمِن على الاستقرار فيه، ويودُّ لو انتقل منه، وضعيف الحبِّ لعائلته؛ لأنه يعلم منهم أنَّهم مثله لا يملكون التكافؤ، وقد يُضطرّون لإضرار صديقهم، بل وقتْله وهم باكون.

أسيرُ الاستبداد لا يملك شيئًا ليحرص على حفظه؛ لأنَّه لا يملك مالًا غير معرَّض للسّلْب ولا شرفًا غير معرَّض للإهانة. ولا يملك الجاهل منه آمالًا مستقبلة ليتبعها ويشقى كما يشقى العاقل في سبيلها.

وهذه الحال تجعل الأسير لا يذوق في الكون لذةً نعيم، غير بعض الملذّات البهيمية. بناءً عليه؛ يكون شديد الحرص على حياته الحيوانية وإنْ كانت تعيسة، وكيف لا يحرص عليها وهو لا يعرف غيرها؟! أين هو من الحياة الأدبية؟! أين هو من الحياة الاجتماعية؟! أمَّا الأحرار فتكون منزلة حياتهم الحيوانية عندهم بعد مراتب عديدة، ولا يعرف ذلك إلا من كان منهم، أو كشف عن بصيرته.

ومثال الأُسَراء في حِرْصهم على حياتهم الشيوخ، فإنَّهم عندما تمسي حياتهم كلُّها أسقامًا وآلامًا ويقربون من أبواب القبور، يحرصون على حياتهم أكثر من الشباب في مقتبل العمر، في مقتبل الملاذ، في مقتبل الآمال.

الاستبداد يسلب الرّاحة الفكرية، فيضني الأجسام فوق ضناها بالشقاء، فتمرض العقول، ويختلُّ الشعور على درجات متفاوتة في الناس.

والعوام الذين هم قليلو المادة في الأصل قد يصل مرضُهم العقلي إلى درجة قريبة من عدم التمييز بين الخير والشر، في كلِّ ما ليس من ضروريات حياتهم الحيوانية. ويصل تسَفُّل إدراكهم إلى أنَّ مجرّد آثار الأبَّهة والعظمة التي يرونها على المستبدّ وأعوانه تُبْهر أبصارهم، ومجرّد سماع ألفاظ التفخيم في وصْفه وحكايات قوته وصوْلَته يزيغ أفكارهم، فيرون ويفكرون أنَّ الدواء في الداء، فينصاعون بين يدي الاستبداد انصياع الغنم بين أيدي الذئاب؛ حيث هي تجري على قدميها جاهدةً إلى مقرِّ حتفها.

ولهذا كان الاستبداد يستولي على تلك العقول الضعيفة فضلًا عن الأجسام فيفسدها كما يريد، ويتغلّب على تلك الأذهان الضئيلة، فيشوش فيها الحقائق، بل البديهيات كما يهوى، فيكون مَثَلُهم في انقيادهم الأعمى للاستبداد ومقاومتهم للرشد والإرشاد، مثل تلك الهوام التي تترامى على النار، وكم هي تغالب من يريد حجزها على الهلاك.

ولا غرابة في تأثير ضعْف الأجسام على الضعف في العقول، فإنَّ في المرضَى وخفّة عقولهم، وذوي العاهات ونقْص إدراكهم، شاهدًا بيّنًا كافيًا يُقاس عليه نقص عقول الأُسَراء البؤساء بالنسبة إلى الأحرار السعداء، كما يظهر الحال أيضًا بأقلّ فرق بين الفئتين، من الفرق البيِّن في قوة الأجسام وغزارة الدّم واستحكام الصحة وجمال الهيئات.

ربما يستريب المطالع اللبيب الذي لم يُتعب فكره في درْس طبيعة الاستبداد، من أنَّ الاستبداد المشؤوم كيف يقوم على قلْب الحقائق، مع أنَّه إذا دقّق النظر يتجلى له أنَّ الاستبداد يقلب الحقائق في الأذهان. يرى أنَّه كم مكَّن بعض القياصرة والملوك الأولين من التلاعب بالأديان تأييدًا لاستبدادهم فاتَّبعهم الناس. ويرى أنَّ الناس

وضعوا الحكومات لأجل خدمتهم، والاستبداد قلب الموضوع، فجعل الرعية خادمة للرعاة، فقبلوا وقنعوا.

ويرى أنَّ الاستبداد ما ساقهم إليه من اعتقاد أنَّ طالب الحقِّ فاجرٌ، وتارك حقّه مطيع، والمشتكي المتظلِّم مفسد، والنّبيه المدقق ملحد، والخامل المسكين صالح أمين. وقد اتَّبع الناس الاستبداد في تسميته النُّصْح فضولًا، والغيرة عداوة، والشّهامة عتوًّا، والحمية حماقة، والرحمة مرضًا، كما جاروه على اعتبار أنَّ النِّفاق سياسة، والتحيُّل كيَاسة، والدناءة لُطْف، والنذالة دماثة.

ولا غرابة في تحكُّم الاستبداد على الحقائق في أفكار البسطاء، إنما الغريب إغفاله كثيرًا من العقلاء، ومنهم جمهور المؤرِّخين الذين يُسمّون الفاتحين الغالبين بالرِّجال العظام، وينظرون إليهم نظر الإجْلال والاحترام لمجرّد أنَّهم كانوا أكثر في قتل الإنسان، وأسرفوا في تخريب العمران.

ومن هذا القبيل في الغرابة إعلاء المؤرِّخين قدر من جاروا المستبدين، وحازوا القبول والوجاهة عند الظالمين. وكذلك افتخار الأخلاق بأسلافهم المجرمين الذين كانوا من هؤلاء الأعوان الأشرار.

وقد يظنُّ بعض الناس أنَّ للاستبداد حسناتٍ مفقودة في الإدارة الحرّة، فيقولون مثلًا: الاستبداد يليّن الطباع ويلطِّفها، والحقُّ أنَّ ذلك يحصل فيه عن فقد الشهامة لا عن فقد الشراسة.

ويقولون: الاستبداد يُعلِّم الصغير الجاهل حسن الطاعة والانقياد للكبير الخبر، والحقُّ أنَّ هذا فيه عن خوف وجبانة لا عن اختيارٍ وإذعان. ويقولون: هو يُربّي النفوس على الاعتدال والوقوف عند الحدود، والحقُّ أنْ ليس هناك غير انكماشٍ وتقهْقُر. ويقولون: الاستبداد يقلل الفسق والفجور، والحقُّ أنَّه عن فقْر

وعجز، لا عن عِفّةٍ أو دين. ويقولون: هو يقلل التعدِّيات والجرائم، والحقُّ أنَّه يمنع ظهورها ويخفيها، فيقلُّ تعديدها لا عدادها.

الأخلاق أثمار بذَرها الوراثة، وتربتها التربية، وسُقْياها العلم، والقائمون عليها هم رجال الحكومة، بناءً عليه؛ تفعل السياسة في أخلاق البشر ما تفعله العناية في إنماء الشجر.

نعم: الأقوام كالآجَام [١٩٢]، إن تُرِكتْ مهملة تزاحمت أشجارها وأفلاذها، وسَقُمَ أكثرها، وتغلَّب قويُّها على ضعيفها فأهلكه، وهذا مثل القبائل المتوحِّشة.

وإن صادفتَ بستانيًا يهمُّه بقاؤها وزهوها فدبّرها حسبما تطلبه طباعها، قويت وأينعت وحسُنتْ ثمارها، وهذا مثل الحكومة العادلة. وإذا بُلِيتَ ببستانيٍّ جدير بأن يُسمّى حطّابًا لا يعنيه إلا عاجل الاكتساب، أفسدها وخرَّبها، وهذا مثل الحكومة المستبدّة.

ومتى كان الحَطَّاب غريبًا لم يُخلق من تراب تلك الديار وليس له فيها فخار ولا يلحقه منها عار، إنّما همّه الحصول على الفائدة العاجلة ولو باقتلاع الأصول، فهناك الطّامة وهناك البوار. فبناءً على هذا المثال، يكون فِعْلُ الاستبداد في أخلاق الأمم فِعل ذلك الحطّاب الذي لا يُرجَى منه غير الإفساد.

لا تكون الأخلاق أخلاقًا ما لم تكن ملكة مُطَّرِدة على قانون فطري تقتضيه أولًا وظيفة الإنسان نحو نفسه؛ وثانيًا وظيفته نحو عائلته؛ وثالثًا وظيفته نحو قومه؛ ورابعًا وظيفته نحو الإنسانية؛ وهذا القانون هو ما يسمّى عند الناس بالناموس.

---

(١٩٢) الآجام: هي الشجر الكثيف المُلْتف.

ومن أين لأسير الاستبداد أن يكون صاحب ناموس[١٩٣]، وهو كالحيوان المملوك العَنان، يُقاد حيث يُراد، ويعيش كالريش، يهبُّ، حيث يهبُّ الريح، لا نظام ولا إرادة؟ وما هي الإرادة؟ هي أمُّ الأخلاق، هي ما قيل فيها تعظيمًا لشأنها: لو جازتْ عبادة غير الله لاختار العقلاء عبادة الإرادة! هي تلك الصفة التي تفْصِل الحيوان عن النّبات في تعريفه بأنّه متحرك بالإرادة. فالأسير، إذن، دون الحيوان لأنّه يتحرّك بإرادة غيره لا بإرادة نفسه.

ولهذا قال الفقهاء: لا نيّة للرَّقِيق[١٩٤] في كثير من أحواله، إنما هو تابع لِنيّة مولاه. وقد يُعذر الأسير على فساد أخلاقه؛ لأنَّ فاقد الخيار غير مؤاخذ عقلًا وشرعًا.

أسير الاستبداد لا نظام في حياته، فلا نظام في أخلاقه، قد يصبح غنيًا فيضْحَي شجاعًا كريمًا، وقد يُمْسي فقيرًا فيبيت جبانًا خسيسًا، وهكذا كلُّ شؤونه تشبه الفوضى لا ترتيب فيها، فهو يتبعها بلا وجهة.

أليس الأسير قد يُرْهَق، ويُسيء كثيرًا فيُعفَى، وقليلًا فيُشْنَق، ويجوع يومًا فيُضْوَى[١٩٥]، ويخصب[١٩٦] يومًا فيتخم[١٩٧]، يريد أشياء فيُمنَع، ويأبَى شيئًا فيُرْغَم؟!

وهكذا يعيش كما تقتضيه الصُّدَف أن يعيش، ومن كانت هذه حاله كيف يكون له أخلاق، وإنْ وجد ابتداء يتعذر استمراره عليه؟! ولهذا لا تُجوِّز الحكمة الحُكمَ على الأُسَراء بخيرٍ أو شرّ.

---

(١٩٣) يعني قانون أو شريعة يعيش عليها.
(١٩٤) الرقيق: هم العبيد.
(١٩٥) يعني: يضعف ويصبح هزيلا.
(١٩٦) الخِصْبُ: هو كَثْرَةُ العُشْبِ ورَفاهَةُ العَيْشِ. والمراد به هنا: النعمة ورفاهية العيش.
(١٩٧) يعني: تُصيبه التُّخْمة.

أقلُّ ما يؤثّره الاستبداد في أخلاق الناس، أنّه يرغم حتى الأخيار منهم على إلفة الرّياء والنفاق ولبئس السيّئتان، وإنه يعين الأشرار على إجراء غيّ نفوسهم آمنين من كلِّ تبِعة ولو أدبية، فلا اعتراض ولا انتقاد ولا افتضاح، لأنَّ أكثر أعمال الأشرار تبقى مستورة، يلقي عليها الاستبداد رداء خوف الناس من تبعة الشهادة على ذي شرّ وعُقْبى ذِكْر الفاجر بما فيه.

ولهذا، شاعت بين الأُسَراء قواعد كثيرة باطلة كقولهم: إذا كان الكلام من فضة فالسكوت من ذهب، وقولهم: البلاء موكولٌ بالمنطق. وقد تغالَى وعّاظهم في سدِّ أفواههم حتى جعلوا لهم أمثال هذه الأقوال من الحِكَم النبوية، وكم هجوا لهم الهجْو والغيبة بلا قيْد، فهم يقرؤون: ﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ ويغفلون بقية الآية، وهي: ﴿إِلَّا مَن ظُلِمَ﴾[198].

أقوى ضابط للأخلاق النهي عن المنكر بالنصيحة والتوبيخ؛ أي بحرْص الأفراد على حراسة نظام الاجتماع، وهذه الوظيفة غير مقدور عليها في عهد الاستبداد لغير ذوي المنعة وقليل ما هم، وقليلًا ما يفعلون، وقليلًا ما يفيد نهيهم؛ لأنه لا يمكنهم توجيهه لغير المستضعفين الذين لا يملكون ضررًا ولا نفعًا، بل ولا يملكون من أنفسهم شيئًا، ولأنّه ينحصر موضوع نهيهم فيما لا تخفى قباحته على أحدٍ من الرّذائل النفسية الشخصية فقط، ومع ذلك فالجسور لا يرى بُدًّا من الاستثناء المخلِّ للقواعد العامة كقوله: السّرقة قبيحة إلا إذا كانت استردادًا منها، والكذب حرام إلا للمظلوم.

والموظَّفون في عهد الاستبداد للوعظ والإرشاد يكونون -مطلقًا- ولا أقول غالبًا، من المنافقين الذين نالوا الوظيفة بالتملّق، وما أبعد هؤلاء عن التأثير، لأنَّ

---

(١٩٨) النساء: ١٤٨.

النصح الذي لا إخلاص فيه هو بذر عقيم لا ينبت، وإنْ نبتَ كان رياءً كأصله، ثمَّ إنَّ النُّصح لا يفيد شيئًا إذا لم يصادف أذنًا تتطلّب سماعه؛ لأنَّ النصيحة وإن كانت عن إخلاص فهي لا تتجاوز حُكْمَ البِذْر الحيّ: إنْ أُلقي في أرضٍ صالحة نبَت، وإن أُلْقِي في أرضٍ قاحلة مات.

أمّا النهي عن المنكرات في الإدارة الحرة، فيمكن لكلِّ غيورٍ على نظام قومه أن يقوم به بأمانٍ وإخلاص، وأن يوجِّه سِهام قوارِصه على الضعفاء والأقوياء سواء، فلا يخصُّ بها الفقير المجروح الفؤاد، بل تستهدف أيضًا ذوي الشّوكة والعناد.

وأنْ يخوض في كلِّ وادٍ حتى في مواضيع تخفيف الظُّلم ومؤاخذة الحُكّام، وهذا هو النصح الإنكاري الذي يُعْدي ويُجْدي، والذي أطلق عليه النّبي عليه السلام اسم (الدّين) تعظيمًا لشأنه، فقال: «الدين النصيحة»(١٩٩).

لمّا كان ضبطُ أخلاق الطبقات العليا من النّاس أهم الأمور، أطلقت الأمم الحُرّة حرية الخطابة والتأليف والمطبوعات مستثنيةً القذْف فقط، ورأت أن تحمل مضرَّة الفوضى في ذلك خير التحديد؛ لأنَّه لا مانع للحُكّام أنْ يجعلوا الشّعرة من التقييد سلسلة من حديد، ويخنقون بها عدوّتهم الطبيعة، أي الحريّة. وقد حمى القرآن قاعدة الإطلاق بقوله الكريم: ﴿وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ﴾(٢٠٠).

الخصال تنقسم إلى ثلاثة أنواع:

النوع الأول: الخصال الحسنة الطبيعية، كالصدق والأمانة والهمّة والمدافعة والرحمة، والقبيحة الطبيعية كالرياء والاعتداء والجبانة والقسوة، وهذا القسم تضافرت عليه كلُّ الطبائع والشرائع.

---

(١٩٩) أخرجه مسلم [رقم/ ٥٥]. من حديث تميم الداري.

(٢٠٠) البقرة: ٢٨٢.

والنوع الثاني: الخصال الكمالية التي جاءت بها الشرائع الإلهامية، كتحسين الإيثار والعفو وتقبيح الزِّنَى والطمع؛ وهذا القسْم يوجد فيه ما لا تدرك كلُّ العقول حكمته أو حكمة تعميمه، فيمثِّله المنتسبون للدّين احترامًا أو خوفًا.

والنوع الثالث: الخصال الاعتيادية، وهي ما يكتسبه الإنسان بالوراثة أو بالتربية أو بالإلفة، فيستحسن أو يستقبح على حسب أمياله ما لم يُضطرّ إلى التحوّل عنها.

ثمَّ إنَّ التدقيق يفيد أنَّ الأقسام تشتبك وتشترك ويُؤثِّر بعضها في بعض، فيصير مجموعها تحت تأثير الإلْفة المديدة، بحيث كلُّ خصلة منها ترسخ أو تتزلزل، حسبما يصادفها من استمرار الإلفة أو انقطاعها، فالقاتل -مثلًا- لا يستنكر شنيعته في المرّة الثانية كما استقبحها في نفسه في الأولى، وهكذا يخفُّ الجرم في وهمه، حتى يصل إلى درجة التلذُّذ بالقتل، كأنّه حقٌّ طبيعي له، كما هي حالة الجبّارين وغالب السياسيين، الذين لا ترتجُّ في أفئدتهم عاطفة رحمة عند قتلهم أفرادًا أو أممًا لغاياتهم السياسية، إهراقًا بالسيف أو إزهاقًا بالقلم، ولا فرْق بين القتل بقطْع الأوْداج وبين الإماتة بإيراث الشقاء غير التسريع والإبطاء.

أسير الاستبداد العريق فيه يرث شرَّ الخصال، ويتربَّى على أشرِّها، ولا بدَّ أن يصحبه بعضها مدى العمر. بناءً عليه؛ ما أبعده عن خصال الكمال! ويكفيه مفسدةً لكلِّ الخصال الطبيعية والشرعية والاعتيادية تلبسه بالرّياء اضطرارًا حتى لا يألفه ويصير مَلَكةً فيه، فيفقد بسبب ثقته نفسه بنفسه، لأنَّه لا يجد خُلُقًا مستقرًّا فيه، فلا يمكنه، مثلًا، أن يجزم بأمانته، أو يضمن ثباته على أمرٍ من الأمور، فيعيش سيئ الظنّ في حقِّ ذاته مترددًا في أعماله، لوّامًا نفسه على إهماله شؤونه، شاعرًا بفتور همَّته ونقص مروءته، ويبقى طول عمره جاهلًا مورد هذا الخلل، فيتَّهم الخالق،والخالقُ -جلَّ شأنه- لم يُنقصه شيئًا. ويتَّهم تارةً دينه، وتارةً تربيته، وتارةً زمانه، وتارةً قومه، والحقيقة بعيدة عن كلِّ ذلك، وما الحقيقة غير أنّه خُلق حرًّا فأُسر.

أجمع الأخلاقيون على أنَّ المتلبِّس بشائبةٍ من أصول القبائح الخلقية لا يمكنه أن يقطع بسلامة غيره منها، وهذا معنى:

إذا ساءتْ فِعال المرء ساءتْ ظنونه[٢٠١].

فالمُرائي – مثلًا- ليس من شأنه أن يظنَّ البراءة في غيره من شائبة الرياء، إلاّ إذا بَعُدَ تشابه النشأة بينهما بُعدًا كبيرًا، كأن يكون بينهما مغايرة في الجنس أو الدّين أو تفاوت مهمٌّ في المنزلة كصعلوك وأمير كبير.

ومثال ذلك الشرقيّ الخائن، يأمن الإفرنجي في معاملته، ويثق بوزنه وحُسْبانه، ولا يأمن ويثق بابن جِلْدته. وكذلك الإفرنجي الخائن قد يأمن الشرقي، ولا يأمن مطلقًا ابن جنسه.

وهذا الحكم صادق على عكس القضية أيضًا؛ أي أنَّ الأمين يظنُّ الناس أمناء خصوصًا أشباهه في النشأة، وهذا معنى «الكريم يُخدَع»، وكم يذهل الأمين في نفسه عن اتِّباع حكمة الحزْم في إساءة الظنِّ في مواقعه اللازمة.

إذا علمنا أنَّ من طبيعة الاستبداد أُلْفة الناس بعض الأخلاق الرديئة، وأنَّ منها ما يُضعف الثّقة بالنفس، علمنا سبب قلة أهل العمل وأهل العزائم في السّرَّاء، وعلمنا أيضًا حكمة فقد الأُسَراء ثقتهم بعضهم ببعض. فينتج من ذلك أنَّ الأُسَراء محرومون –طبعًا- من ثمرة الاشتراك في أعمال الحياة،يعيشون مساكين بائسين متواكلين متخاذلين متقاعسين متفاشلين، والعاقل الحكيم لا يلومهم، بل يشفق عليهم، ويلتمس لهم مخرجًا. ويتبع أثر أحكم الحكماء القائل: «ربِّ ارحم قومي، فإنهم لا يعلمون»، «اللهم اهدِ قومي، فإنهم لا يعلمون»[٢٠٢].

---

(٢٠١) هذا صدر بيت من قصيدة للمتنبي: والبيت بتمامه:
إذا ساءَ فعلُ المرْءِ ساءَتْ ظنونهُ ... وصدَّق ما يعتادُه من تَوَهُّمِ.

(٢٠٢) حديث صحيح . صححه الإمام الألباني في «السلسلة الضعيفة» [رقم/ ٣١٧٥].

وهنا أستوقف المطالع وأستلفته إلى التأمّل في ما هي ثمرة الاشتراك التي يحرمها الأُسَراء، فأُذكِّرْه بأنَّ الاشتراك هو أعظم سرٍّ في الكائنات، به قيام كلِّ شيء ما عدا الله وحده. به قيام الأجْرام السماوية؛ به قيام كلِّ حياة؛ به قيام المواليد؛ به قيام الأجناس والأنواع؛ به قيام الأمم والقبائل؛ به قيام العائلات؛ به تعاون الأعضاء. نعم، الاشتراك فيه سرُّ تضاعف القوة بنسبة ناموس التربيع؛ فيه سرُّ الاستمرار على الأعمال التي لا تفي بها أعمار الأفراد. نعم؛ الاشتراك هو السرُّ كلُّ السِّرِّ في نجاح الأمم المتمدِّنة. به أكملوا ناموس حياتهم القومية، به ضبطوا نظام حكوماتهم، به قاموا بعظائم الأمور، به نالوا كل ما يغبطهم عليه أُسراء الاستبداد الذين منهم العارفون بقدر الاشتراك ويتشوَّقون إليه، ولكن؛ كلٌّ منهم يُبطن لغبْن شركائه باتِّكاله عليهم عملًا، واستبداده عليهم رأيًا، حتى صار من أمثالهم قولهم: «ما من متَّفقين إلا واحدهما مغلوبٌ للآخر».

ورُبَّ قائلٍ يقول إنَّ سرَّ الاشتراك ليس بالأمر الخفيّ، وقد طالما كتب اليابانيين والبوير[٢٠٣]، فما السبب؟

فأجيبه بأنَّ الكُتَّاب كتبوا وأكثروا وأحسنوا فيما فصّلوا وصوّروا، ولكنْ؛ قاتل الله الاستبداد وشؤمه، جعل الكتّاب يحصرون أقوالهم في الدعوة إلى الاشتراك، وما بمعناه من التعاون والاتحاد والتحابُب والاتِّفاق، ومنعهم من التعرُّض لذكر أسباب التفرّق والانحلال كليًّا، أو اضطرهم إلى الاقتصار على بيان الأسباب الأخيرة فقط.

---

(٢٠٣) البوير: أناس من أصول هولندية أو ألمانية أو فرنسية يعيشون في جنوب إفريقيا ولكن أغلبهم من أصل هولندي. انظر: «الموسوعة العربية العالمية».

فمن قائلٍ مثلًا: الشرق مريضٌ وسببه الجهل، ومن قائلٍ: الجهل بلاء وسببه قلّة المدارس، ومن قائلٍ: قلّة المدارس عارٌ وسببه عدم التعاون على إنشائها من قبل الأفراد أو من قبل ذوي الشأن.

وهذا أعمق ما يخطُّه قلَم الكاتب الشرقي كأنّه وصل إلى السبب المانع الطبيعي أو الاختياري. والحقيقة، أنَّ هناك سلسلة أسباب أخرى حلَقَتُها الأولَى الاستبداد.

وكاتب آخر يقول: الشرق مريض وسببه فقد التمسّك بالدين، ثمَّ يقف، مع أنَّه لو تتبَّع الأسباب لبلغ إلى الحكم بأنَّ التهاون في الدين أولًا وآخرًا ناشئ من الاستبداد. وآخر يقول: إنَّ السبب فساد الأخلاق، وغيره يرى أنّه فقْد التربية، وسواء ظنَّ أنَّه الكسْل، والحقيقة أنَّ المرجع الأول في الكلّ هو الاستبداد، الذي يمنع حتى أولئك الباحثين عن التصريح باسمه المهيب.

وقد اتَّفق الحكماء الذين أكرمهم الله تعالى بوظيفة الأخذ بيد الأمم في بحثهم عن المهلكات والمنجيات، على أنَّ فساد الأخلاق يُخرج الأمم عن أن تكون قابلة للخطاب، وأنَّ معاناة إصلاح الأخلاق من أصعب الأمور وأحوجها إلى الحكمة البالغة والعزم القوي، وذكروا أنَّ فساد الأخلاق يعمُّ المستبدَّ وأعوانه وعماله، ثمَّ يدخل بالعدوى إلى كلّ البيوت، ولا سيما بيوت الطبقات العليا التي تتمثَّل بها السفلى.

وهكذا يغْشو الفساد، وتمسي الأمة يبكيها المحبُّ ويُشْمت بها العدو، وتبيت وداؤها عَياءٌ يتعاصى على الدواء.

وقد سلك الأنبياء عليهم السلام، في إنقاذ الأمم من فساد الأخلاق، مسلك الابتداء أولًا بفكِّ العقول من تعظيم غير الله والإذعان لسواه. وذلك بتقوية حسن الإيمان المفطور عليه وجدان كلُّ إنسان، ثمَّ جهدوا في تنوير العقول بمبادئ الحكمة، وتعريف الإنسان كيف يملك إرادته؛ أي حريته في أفكاره، واختياره في أعماله، وبذلك هدموا حصون الاستبداد وسدّوا منابع الفساد.

ثمَّ بعد إطلاق زمام العقول، صاروا ينظرون إلى الإنسان بأنَّه مكلَّف بقانون الإنسانية، ومطالب بحسن الأخلاق، فيعلمونه ذلك بأساليب التعليم المُقْنع وبثّ التربية التهذيبية.

والحكماء السياسيون الأقدمون اتَّبعوا الأنبياء -عليهم السلام- في سلوك هذا الطريق وهذا الترتيب؛ أي بالابتداء من نقطة دينية فطرية تُؤْدِي إلى تحرير الضمائر، ثمَّ باتِّباع طريق التربية والتهذيب بدون فُتورٍ ولا انقطاع.

أما المتأخرون من قادة العقول في الغرب، فمنهم فئة سلكوا طريقة الخروج بأممهم من حظيرة الدين وآدابه النفسية، إلى فضاء الإطلاق وتربية الطبيعة، زاعمين أنَّ الفطرة في الإنسان أهدى سبيلًا، وحاجته إلى النظام تغنيه عن إعانة الدين، التي هي كالمخدرات سموم تعطِّل الحسَّ بالهموم، ثمّ تذهب بالحياة، فيكون ضررها أكبر من نفعها.

وقد ساعدهم على سلوك هذا المسلك، أنَّهم وجدوا أُممهم قد فشا فيها نور العلم، ذلك العلم الذي كان منحصرًا في خدمة الدين عند المصريين والآشوريين، ومحتَكَرًا في أبناء الأشراف عند الغرناطيين والرومان، ومخصصًا في أعداد من الشّبان المنتخبين عند الهنديين واليونان، حتى جاء العرب بعد الإسلام، وأطلقوا حرية العلم، وأباحوا تناوله لكلِّ متعلم، فانتقل إلى أوربا حُرًّا على رغم رجال الدين، فتنوَّرتْ به عقول الأمم على درجات، وفي نسبتها ترقَّت الأمم في النعيم، وانتشرت وتخالطت، وصار المتأخِّر منها يغبط المتقدِّم ويتنغَّص من حالته، ويتطلَّب اللحاق، ويبحث عن وسائله.

فنشأ من ذلك حركة قوية في الأفكار، وحركة معرفة الخير والغيرة على نواله، حركة معرفة الشرّ والأَنَفَة من الصبر عليه، حركة السير إلى الأمام رغم كلِّ معارض.

اغتنم زعماء الحرية في الغرب قوة هذه الحركة وأضافوا إليها قوات أدَبية شتّى، كاستبدالهم ثَقالة وقار الدين بزهْوة عروس الحرية، حتى إنَّهم لم يبالوا بتمثيل الحرية بحسناء خليعة تخْتلِب النفوس. وكاستبدالهم رابطة الاشتراك في الطاعة للمستبدين برابطة الاشتراك في الشؤون العمومية، ذلك الاشتراك الذي يتولّد منه حبُّ الوطن.

وهكذا جعلوا قوة حركة الأفكار تيارًا سلّطوه على رؤوس الرؤوس من أهل السياسة والدين. ثمَّ إنَّ هؤلاء الزعماء استباحوا القَساوة أيضًا، فأخذوا من مهجورات دينهم قاعدة (الغاية تبرر الواسطة) [٢٠٤]، كجواز السرقة إذا كانت الغاية من صرف المال في سبيل الخير، وقاعدة «تثقيل الذمة يبيح الفعل القبيح» كشهادة الزور على ذمّة الكاهن التي يتحمَّل عنها خطيئتها، ودفعوا الناس بهما إلى ارتكاب الجرائم الفظيعة التي تقشعرُّ منها الإنسانية، التي لا يستبيحها الحكيم الشرقي لما بين أبناء الغرب وأبناء الشرق من التباين في الغرائز والأخلاق.

الغربي: ماديُّ الحياة، قويُّ النفس، شديد المعاملة، حريصٌ على الانتقام، كأنَّه لم يبقَ عنده شيء من المبادئ العالية والعواطف الشريفة التي نقلتها له مسيحية الشرق. فالجرماني[٢٠٥] مثلًا: جافّ الطبع، يرى أنَّ العضو الضعيف من البشر يستحق الموت، ويرى كلَّ فضيلة في القوة، وكلَّ القوة في المال، فهو يحبُّ العلم، ولكن، لأجل المال؛ ويحبُّ المجد، ولكن لأجل المال.

وهذا اللاتيني مطبوع على العجب والطيش، يرى العقل في الإطلاق، والحياة في خلع الحياء، والشّرف في التّرف، والكياسة في الكسب، والعزّ في الغلبة، واللذَّة في المائدة والفراش[٢٠٦].

---

(٢٠٤) وهذه القاعدة هي التي أصَّل لها ميكافيلي في كتابه «الأمير».

(٢٠٥) الجرماني: بالإنجليزية تعني: ألماني.

(٢٠٦) قال أبو الحسن علي الندوي بعد أن ساق هذه الفقرة من كلام الكواكبي في كتابه: «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين» [ص/ ١٨٦]: « وهذا تصوير صادق للطبيعة=

أما أهل الشرق فهم أدبيون، ويغلب عليهم ضعف القلب وسلطان الحبِّ، والإصغاء للوجْدان، والميْل للرّحمة ولو في غير موقعها، واللُّطْف ولو مع الخصم. ويرون العِزَّ في الفتوة والمروءة، والغِنى في القناعة والفضيلة، والراحة في الأُنْس والسّكينة، واللذة في الكرم والتحبُّب، وهم يغضبون، ولكن؛ للدين فقط، ويغارون، ولكن؛ على العِرْض فقط.

ليس من شأن الشرقي أن يسير مع الغربي في طريقٍ واحدة، فلا تطاوعه طباعه على استباحة ما يستحسنه الغربي، وإن تكلَّف تقليده في أمر فلا يُحسن التقليد، وإن أحسنه فلا يثبت، وإن ثبت فلا يعرف استثماره، حتى لو سقطت الثمرة في كفِّه تمنّى لو قفزتْ على فمه!..

فالشرقي مثلًا يهتمُّ في شأن ظالمه إلى أن يزول عنه ظلمه، ثمَّ لا يُفكِّر فيمن يخْلفه ولا يراقبه، فيقع في الظلم ثانيةً، فيعيد الكرَّة ويعود الظلم إلى ما لا نهاية. وكأولئك الباطنة في الإسلام: فتكُوا بمئات أمراء على غير طائل، كأنَّهم لم يسمعوا بالحكمة النبوية: «لا يُلدَغ المرء من جُحْرٍ مرتين» [٢٠٧]، ولا بالحكمة القرآنية" ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾[٢٠٨]. أما الغربي إذا أخذ على يد ظالمه فلا يُفْلتْه حتى يشلَّها، بل حتى يقطعها ويكْوِي مقطعها.

وهكذا بين الشرقيين والغربيين فروقٍ كثيرة، قد يفضل في الإفراديات الشرقي على الغربي، وفي الاجتماعيات يفضل الغربي على الشرقي مطلقًا. مثال ذلك: الغربيون يستحلفون أميرهم على الصداقة في خدمته لهم والتزام القانون.

= الأوربية وتحليل صحيح للنفسية الغربية، ولا نظن المرحوم الكواكبي قد تحامى الكلام على غير الجنسين الألماني واللاتيني إلا تفاديًا من الوقوع في العنت ، فجعل الألماني واللاتيني مثلاً لسائر الأوربيين ».

(٢٠٧) [صحيح] أخرجه البخاري [رقم/ ٥٧٨٢]، ومسلم [رقم/ ٢٩٩٨]. من حديث أبي هريرة.

(٢٠٨) التوبة: ٤.

والسلطان الشرقي يستحلف الرعية على الانقياد والطاعة! الغربيون يَمُنّون على ملوكهم بما يرتزقون من فضلاتهم، والأمراء الشرقيون يتكرَّمون على من شاؤوا بإجراء أموالهم عليهم صدقات!

الغربي يعتبر نفسه مالكًا لجزءٍ مشاع من وطنه، والشرقيّ يعتبر نفسه وأولاده وما في يديه ملكًا لأميره! الغربي له على أميره حقوق، وليس عليه حقوق؛ والشرقي عليه لأميره حقوق وليس له حقوق! الغربيون يضعون قانونًا لأميرهم يسري عليه، والشرقيون يسيرون على قانون مشيئة أمرائهم! الغربيون قضاؤهم وقدرهم من الله؛ والشرقيون قضاؤهم وقدَرُهم ما يصدر من بين شفَتَيْ المستعبدين!

الشرقي سريع التصديق، والغربي ينفي ولا يثبت حتى يرى ويلمس. الشرقي أكثر ما يغار على الفُروج كأنَّ شرَفه كلّه مستودَعٌ فيها، والغربي أكثر ما يغار على حريته واستقلاله! الشرقي حريصٌ على الدين والرياء فيه، والغربي حريصٌ على القوة والعزّ والمزيد فيهما! والخلاصة: أنَّ الشرقي ابن الماضي والخيال، والغربي ابن المستقبل والجَدّ!...

الحكماء المتأخرون الغربيون ساعدتهم ظروف الزمان والمكان، وخصوصية الأحوال، لاختصار الطريق فسلكوه، واستباحوا ما استباحوا، حتى إنَّهم استباحوا في التمهيد السياسي تشجيع أعوان المستبدَّ على تشديد وطْأة الظلم والاعتساف بقصْد تعميم الحقْد عليه، وبمثل هذه التدابير القاسية نالوا المراد أو بعضه، من تحرير الأفكار وتهذيب الأخلاق وجعل الإنسان إنسانًا.

وقد سبق هؤلاء الغُلاة فئة اتَّبعتْ أثر النبيين، ولم تحْفَل بطول الطريق وتعبه، فنجحت ورسخت، وأعني بتلك الفئة أولئك الحكماء الذين لم يأتوا بدينٍ جديد، ولا تمسّكوا بمعاداة كلِّ دين، كمؤسسي جمهورية الفرنسيس، بل رتَقُوا فُتُوق الدّهر

في دينهم بما نقَّحوا، وهذَّبوا، وسهَّلوا، وقرَّبوا، حتى جدَّدوه، وجعلوه صالحًا لتجديد خليق[٢٠٩] أخلاق الأمة.

وما أحوج الشرقيين أجمعين من بُوذِيين ومسلمين ومسيحيين وإسرائيليين وغيرهم، إلى حكماء لا يبالون بغوغاء العلماء المُرائين الأغبياء، والرؤساء القساة الجهلاء. فيجددون النّظر في الدّين، نظر من لا يحفل بغير الحقِّ الصريح، نظر من لا يضيع النتائج بتشويش المقدمات، نظر من يقصد إظهار الحقيقة لا إظهار الفصاحة، نظر من يريد وجْه ربِّه لا استمالة الناس إليه، وبذلك يعيدون النواقص المعطَّلة في الدين، ويهذِّبونه من الزوائد الباطلة مما يطرأ عادةً على كلِّ دينٍ يتقادم عهده، فيحتاج إلى مجددين يرجعون به إلى أصله المبين البريء من حيث تمليك الإرادة ورفْع البَلادة من كل ما يشين، المخفِّف شقاء الاستبداد والاستعباد، المُبصِّر بطرائق التعليم والتعلُّم الصحيحين، المُهيّئ قيام التربية الحسنة واستقرار الأخلاق المنتظمة مما به يصير الإنسان إنسانًا، وبه لا بالكفر يعيش الناس إخوانًا.

والشرقيون ما داموا على حاضر حالهم بعيدين عن المجد والعزم، مرتاحين للهو والهزل تسكينًا لآلام إِسارة النفس، وإخلادًا إلى الخمول والتسفُّل، طلبًا لراحة الفكر المضغوط عليه من كلِّ جانب، يتألمون من تذكيرهم بالحقائق، ومطالبتهم بالوظائف، ينتظرون زوال العناد بالتواكل، أو مجرد التمنّي والدعاء. أو يتربصون صدفة مثل التي نالتْها بعض الأمم، فليتوقّعوا إذن أنْ يفقدوا الدين كليًا، فيمسوا - وما مساؤهم ببعيد- دهريين[٢١٠]، لا يدرون أيَّ الحياتيْن أشقى، فلينظروا ما حاق

---

(٢٠٩) أي بالي.

(٢١٠) الدهريون: هم نُفَاة الخالِق، والقائلون بِقِدَم العالم والدهر.

بالآشوريين[٢١١] والفينيقيين[٢١٢] وغيرهم من الأمم المنقرضة المندمجة في غيرها خدمًا وخَوَلًا[٢١٣].

والأمر الغريب، أنَّ كلَّ الأمم المنحطّة من جميع الأديان تحصر بَلِية انحطاطها السياسي في تهاونها بأمور دينها، ولا ترجو تحسين حالتها الاجتماعية إلا بالتمسُّك بعروة الدين تمسكًا مكينًا، ويريدون بالدين العبادة، ولنِعْم الاعتقاد لو كان يفيد شيئًا، لكنه لا يفيد أبدًا؛ لأنه قولٌ لا يمكن أن يكون وراءه فعل، وذلك أنَّ الدين بذْرٌ جيد لا شبهة فيه، فإذا صدقت مغْرسًا طيبًا نبتَ ونَما، وإنْ صادف أرضًا قاحلة مات وفات، أو أرضًا مِغراقًا[٢١٤] هافَ[٢١٥] الاستبداد بصرَها وبصيرتها، وأفسد أخلاقها ودينها، حتى صارت لا تعرف للدين معنى غير العبادة والنسك اللذين زيادتهما عن حَدِّهما المشروع أضرُّ على الأمة من نقْصهما كما هو مشاهد في المتنسِّكين.

نعم: الدين يُفيد الترقّي الاجتماعي إذا صادف أخلاقًا فطرية لم تفسد، فينهض بها كما نهضت الإسلامية بالعرب، تلك النهضة التي نتطلَّبها منذ ألف عام عبثًا.

---

(٢١١) الآشوريون أو الآثوريون هم قوم ساميون. استوطنوا القسم الشمالي من العراق وشرق سوريا منذ الألف الثالث ق. م .. وكان أمراؤهم يتحيَّنون الفُرَص للاستقلال بمدنهم عن حكم الدولة المسيطرة في جنوب العراق و هي دولة البابليين. برزوا كقوة منافسة في الشرق القديم في بدايات الألف الأول ق. م. انظر: «الموسوعة العربية العالمية».

(٢١٢) قوم يتكلمون السامية، استقروا في فينيقيا، واتَّبعوا نظام دولة المدينة. كانت أكبر مدنهم صور وصيدا. كان الفينيقيون من أشهر شعوب العالم القديم، فقد كانوا بحارةً مهرة وملاّحين وتجارًا. وقد سجل لهم التاريخ إنجازات منها: أنهم كانوا من أوائل من أرسلوا مكتشفين وأقاموا مستعمرات على امتداد منطقة البحر الأبيض المتوسط وما وراء مضيق جبل طارق. انظر: «الموسوعة العربية العالمية».

(٢١٣) الخَوَل: هم العبيد.

(٢١٤) لعله يقصد: مغرقة أو مُهْلِكة.

(٢١٥) يعني: أعمَى. والهاف مصدر يأتي بمعنى صاحب الهفوة والزلة، ويأتي بمعنى الفعل على لغة تميم. انظر: «العين» [٤/ ٩٦] المنسوب للخليل بن أحمد.

وقد علَّمنا هذا الدهرُ الطويل -مع الأسف- أنَّ أكثر الناس لا يحْفَلُون بالدين إلا إذا وافق أغراضهم، أو لهوًا ورياءً، وعلمنا أنَّ الناس عبيدُ منافعهم وعبيد الزمان، وأنَّ العقل لا يفيد العزم عندهم، إنما العزم عندهم يتولَّد من الضرورة أو يحصل بالسائق المجبر.

ولا يستحي الناس من أن يُلْزموا أنفسهم باليمين أو النذْر. بناءً عليه؛ ما أجدر بالأمم المنحطّة أن تلتمس دواءها من طريق إحياء العلم وإحياء الهمة مع الاستعانة بالدين والاستفادة منه بمثل: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾[٢١٦]، لا أن يتَّكِلوا على أنَّ الصلاة تمنع الناس عنهما بطبعها.

---

(٢١٦) العنكبوت: ٤٥.

الاستبداد والتربية

خلق اللهُ في الإنسان استعدادًا للصلاح واستعدادًا للفساد، فأبواه يُصْلِحانه، وأبواه يُفْسدانِه؛ أي إنَّ التربية تربو باستعداده جِسْمًا ونَفْسًا وعقلًا، إنْ خيرًا فخير، وإنْ شرًا فشرّ.

وقد سبق أنَّ الاستبداد المشؤوم يُؤثِّر على الأجسام فيورثها الأسقام، ويسطو على النفوس، فيفسد الأخلاق، ويضغط على العقول فيمنع نماءها بالعلم. بناءً عليه؛ تكون التربية والاستبداد عاملين متعاكسين في النتائج، فكلُّ ما تبنيه التربية مع ضعفها يهدمه الاستبداد بقوته، وهل يتمُّ بناءٌ وراءه هادٌّ[٢١٧]؟

الإنسان لا حدَّ لغايتيه رُقِيًّا وانحطاطًا. وهذا الإنسان الذي حارت العقول فيه، الذي تحمَّل أمانة تربية النَّفس، وقد أبَتْها العوالم، فأتمَّ خالقه استعداده، ثمَّ أوكله لخيرته[٢١٨]، فهو إنْ يشأ الكمال يبلغ فيه إلى ما فوق مرتبة الملائكة، وإن شاء تلبَّس بالرَّذائل حتى أحطّ من الشياطين، على أنَّ الإنسان أقرب للشرِّ منه للخير.

وكفى أنَّ الله ما ذكر الإنسان في القرآن، إلا وقرن اسمه بوصْفٍ قبيح كظلوم وغرور وكفّار وجبّار وجهول وأثيم. ما ذكر الله تعالى الإنسان في القرآن إلا وهجاه، فقال: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ﴾[٢١٩]؛ ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ﴾[٢٢٠]؛ ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ

---

(٢١٧) هادٌّ: اسم فاعل من هَدَّ. كما في « معجم اللغة العربية المعاصرة» [ص/ ٢٧٢٢] لأحمد مختار عمر.

(٢١٨) أي: لاختياره.

(٢١٩) عبس: ١٧.

(٢٢٠) الحج: ٦٦ . وردت في الأصل: (إنَّ الإنسان كان لربه كفورًا).

لَفِي خُسْرٍ ﴾[٢٢١]؛ ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴾[٢٢٢]؛ ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا ﴾[٢٢٣]؛ ﴿ خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ ﴾[٢٢٤]. ما وُجِد من مخلوقات الله من نازع الله في عظمته، والمستبدّون من الإنسان ينازعونه فيها، والمتناهون في الرّذالة قد يقْبحون عبثًا لغير حاجة في النَّفْس حتى وقد يتعمدون الإساءة لأنفسهم.

الإنسان في نشأته كالغُصْن الرَّطب، فهو مستقيمٌ لدِنٌ بطبعه، ولكنّها أهواء التربية تميل به إلى يمين الخير أو شمال الشرّ، فإذا شبَّ يَبَسَ وبقي على أميالـه ما دام حيًا، بل تبقى روحه إلى أبد الآبدين في نعيم السرور بإيفائه حقَّ وظيفة الحياة أو في جحيم الندم على تفريطه.

وربما كان لا غرابة في تشبيه الإنسان بعد الموت بالمرء الفرح الفخور إذا نام ولذَّتْ له الأحلام، أو بالمجرم الجاني إذا نام فغشيته قوارِص الوجْدان بهواجس كلُّها ملام وآلام.

التربية ملكةٌ تحصل بالتعليم والتمرين والقدوة والاقتباس، فأهمُّ أصولها وجود المرابين، وأهمُّ فروعها وجود الدين. وجعلتُ الدين فرعًا لا أصلًا؛ لأنَّ الدين علمٌ لا يفيد العمل إذا لم يكن مقرونًا بالتمرين. وهذا هو سبب اختلاف الأخلاف من علماء الدين عند الإسلام عن أمثالهم من البراهمة والنصارى، وهو سبب إقبال المسلمين في القرن الخامس، وفيما بعده، على قبول أصول الطرائق التي كانت لبًّا محضًا لما كانت تعليمًا وتمرينًا؛ أي تربية للمريدين، ثمَّ خالطها القِشْر، ثمَّ صارت قشرًا محضًا، ثمَّ صار أكثرها لهوًا أو كفرًا.

---

(٢٢١) العصر: ٢.
(٢٢٢) العلق: ٦.
(٢٢٣) الإسراء: ١١.
(٢٢٤) الأنبياء: ٣٧.

ملكة التربية بعد حصولها إنْ كانت شرًا تضافرتْ مع النّفس ووليَها الشيطان الخنّاس فرسخت، وإنْ كانت خيرًا تبقى مقلقلة كالسفينة في بحر الأهواء، لا يرْسُو بها إلا فرعها الديني في السرِّ والعلانية، أو الوازع السياسي عند يقين العقاب.

والاستبداد ريحٌ صَرْصَر فيه إعصار يجهل الإنسان كلّ ساعة شأنه، وهو مُفسِدٌ للدين في أهمِّ قسميه؛ أي الأخلاق، أما العبادات منه فلا يمسّها لأنها تلائمه أكثر. ولهذا تبقى الأديان في الأمم المأسورة عبارة عن عبادات مجرّدة صارت عادات، فلا تفيد في تطهير النفوس شيئًا، ولا تنهى عن فحشاء ولا منكر لفقْد الإخلاص فيها تبعًا لفقده في النفوس، التي ألفت أن تتلجأ وتتلوَّى بين يدي سطوة الاستبداد في زوايا الكذب والرّياء والخداع والنفاق، ولهذا لا يُستغرب في الأسير الأليف تلك الحال؛ أي الرّياء، أن يستعمله أيضًا مع ربِّه، ومع أبيه وأمِّه ومع قومه وجنسه، حتى ومع نفسه.

التربية تربية الجسم وحده إلى سنتين، هي وظيفة الأم أو الحاضنة، ثمَّ تُضاف إليها تربية النفس إلى السابعة، وهي وظيفة الأبوين والعائلة معًا، ثمّ تُضاف إليها تربية العقل إلى البلوغ، وهي وظيفة المعلِّمين والمدارس، ثمَّ تأتي تربية القدوة بالأقربين والخلطاء إلى الزواج، وهي وظيفة الصُّدفة، ثمَّ تأتي تربية المقارنة، وهي وظيفة الزوجين إلى الموت أو الفراق.

ولا بدَّ أن تصحب التربية من بعد البلوغ، تربية الظروف المحيطة، وتربية الهيئة الاجتماعية، وتربية القانون أو سير السياسي، وتربية الإنسان نفسه.

الحكومات المنتظمة هي التي تتولّى ملاحظة تسهيل تربية الأمة من حين تكون في ظهور الآباء، وذلك بأن تسنّ قوانين النكاح، ثم تعتني بوجود القابلات والملقّحين[٢٢٥] والأطباء، ثمَّ تفتح بيوت الأيتام اللُّقَطاء، ثم تَعُدُّ المكاتب والمدارس

---

(٢٢٥) الممرضين.

للتعليم من الابتدائي الجبري إلى أعلى المراتب، ثمَّ تُسَهِّل الاجتماعات، وتُمهِّد المسارح، وتحْمي المنتديات، وتجْمَع المكتبات والآثار، وتقيم النُّصُب المُذَكِّرات، وتضع القوانين المحافظة على الآداب والحقوق، وتسْهر على حفْظ العادات القومية، وإنماء الإحساسات المَلَلِية [٢٢٦]، وتُقوّي الآمال، وتُيَسِّر الأعمال، وتُؤمِّن العاجزين فعْلًا عن الكسب من الموت جوعًا، وتدفع سَلِيمي الأجسام إلى الكسب ولو في أقصى الأرض، وتحْمي الفضل وتُقدِّر الفضيلة. وهكذا تُلاحظ كلَّ شؤون المرء؛ ولكن، من بعيد، كي لا تخلّ بحريته واستقلاله الشخصي، فلا تقرب منه إلا إذا جَنى جُرْمًا لتعاقبه، أو مات لتواريه.

وهكذا، الأمة تحرص على أن يعيش ابنها راضيًا بنصيبه من حياته لا يفتكر قطّ كيف تكون بعده حالة صبية ضعاف يتركهم وراءه، بل يموت مطمئنًا راضيًا مرضيًا آخر دعائه: فلْتحيا الأمة، فلْتحيا الهمة.

أما المعيشة الفوضى في الإدارات المستبدّة فهي غنية عن التربية؛ لأنها محضُ نَماء يشبه الأشجار الطبيعية في الغابات والحِرَاش [٢٢٧]، يسطو عليها الحرَق والغرَق. وتُحطِّمها العواصف والأيدي القواصِف، ويتصرَّف في فسائلها [٢٢٨] وفروعها الفأس الأعمى، فتعيش ما شاءت رحمة الحطّابين أن تعيش، والخيار للصُّدفة تُعَوَّج أو تستقيم، تُثْمِر أو تَعْقم.

---

(٢٢٦) نسبة إلى المِلَل.

(٢٢٧) الأحراش: أراضٍ تغطِّيها الأشجارُ. كما في « معجم اللغة العربية المعاصرة» [ص/ ٢٧٢٢] لأحمد مختار عمر.

(٢٢٨) الفسيلة: النَّخْلَة الصَّغِيرَة تُقْطَع من الْأُم أو تُقْلَع من الأَرْض فتُغْرَس. وجزء من النَّبَات يُفْصَل عَنهُ ويُغْرَس. جمْع: فسيل وفسائل. انظر: «المعجم الوسيط» [٢/ ٦٨٩].

يعيش الإنسان في ظلِّ العدالة والحرية نشيطًا على العمل بياض نهاره، وعلى الفكر سواد ليله، إنْ طعم تلذَّذ، وإنْ تلَهَّى تروَّح وتريَّض؛ لأنّه هكذا رأى أبويه وأقرباءه، وهكذا يرى قومه الذين يعيش بينهم. يراهم رجالًا ونساءً، أغنياء وفقراء، ملوكًا وصعاليك، كلُّهم دائبين على الأعمال، يفتخر منهم كاسب الدينار بكدِّه وجدّه، على مالك المليار إرْثًا عن أبيه وجدِّه.

نعم: يعيش العامل ناعم البال يسرُّه النجاح ولا تقبضه الخيبة، إنّما ينتقل من عملٍ إلى غيره، ومن فكرٍ إلى آخر، فيكون متلذذًا بآماله إنْ لم يسارعه السّعد في أعماله، وكيفما كان يبلغ العذْر عن نفسه والناس بمجرد إيفائه وظيفة الحياة؛ أي العمل. ويكون فرحًا فخورًا نجح أو لم ينجح، لأنَّه بريء من عار العجْز والبطالة.

أما أسير الاستبداد، فيعيش خاملًا خامدًا ضائع القصد، حائرًا لا يدري كيف يُميت ساعاته وأوقاته ويُدْرِج أيامه وأعوامه، كأنَّه حريصٌ على بلوغ أجَلِه ليستتر تحت التراب. ويخطئ، -والله- من يظنُّ أنَّ أكثر الأُسَراء لا سيما منهم الفقراء لا يشعرون بآلام الأسْر. مستدلًا بأنهم لو كانوا يشعرون لبادروا إلى إزالته، والحقيقة في ذلك أنهم يشعرون بأكثر الآلام ولكنهم لا يدركون ما هو سببها، ومن أين جاءتهم؟ فيرى أحدهم نفسه مُنْقبِضًا عن العمل، لأنه غير أمين على اختصاصه بالثمرة. وربما ظنَّ السّلْب حقًا طبيعيًا للأقوياء فيتمنّى أنْ لو كان منهم. ثمَّ يعمل تارةً، ولكن؛ بدون نشاط ولا إتقان، فيفشل ضرورةً، ولا يدري أيضًا ما السبب، فيغضب على ما يسمّيه سعدًا أو حظًا أو طالعًا أو قدرًا. والمسكين من أين له أن يعرف أنَّ النشاط والإتقان لا يتأتيان إلا مع لذة انتظار نجاح العمل، تلك اللذة التي قدَّر الحكماء أنَّها اللذة الكبرى، لاستمرار زمانها من حين العزم إلى تمام العمل، والأسير لا اطمئنان فيه على الاستمرار، ولا تشجيع له على الصبر والجلد.

الأسير المعذَّب المنْتسِب إلى دين يُسلّي نفسه بالسعادة الأخروية، فيعِدُها بجنان ذات أفْنان ونعيم مقيم أعدَّه له الرحمن، ويُبْعِد عن فكره أنَّ الدنيا عنوان الآخرة، وأنَّ ربما كان خاسرًا الصفقتيْن، بل ذلك هو الكائن غالبًا. ولبسطاء الإسلام مُسلِّيات أظنُّها خاصّة بهم يعطفون مصائبهم عليها، وهي نحو قولهم: «الدنيا سجن المؤمن» [٢٢٩]، المؤمن مصاب، «إذا أحبَّ الله عبدًا ابتلاه» [٢٣٠]، هذا شأن آخر الزمان، «حسب المرء لُقَيْماتٍ يُقِمْنَ صُلْبَه» [٢٣١]. ويتناسون حديث: «إنَّ الله يكره العبد البَطَّال»[٢٣٢]، والحديث المفيد معنى: «إذا قامت الساعة وفي يد أحدكم غرْسةً فلْيغْرسها»[٢٣٣]، ويتغافلون عن النص القاطع المؤجِّل قيام الساعة إلى ما بعد استكمال الأرض زخرفَتها وزينتها[٢٣٤]. وأين ذلك بعد؟

وكلُّ هذه المُسمَّيات المثبطات تُهوِّن عند ذلك السُّمّ القاتل، الذي يحوّل الأذهان عن التماس معرفة سبب الشقاء، فيرفع المسؤولية عن المستبدّين، ويلقيها على عاتق القضاء والقدر، بل على عاتق الأُسَراء المساكين أنفسهم.

---

(٢٢٩) هذا حديث صحيح أخرجه مسلم [رقم/ ٢٩٥٦] من حديث أبي هريرة.

(٢٣٠) هذا حديث صححه الإمام الألباني في «صحيح الجامع الصغير» [رقم/ ٢٨٥] من حديث أنس بلفظ: «إذا أحب الله قوما ابتلاهم»..

(٢٣١) هذا حديث صححه الإمام الألباني في «صحيح الجامع الصغير» [رقم/ ١٠٦١١] من حديث المقدام بن معد يكرب.

(٢٣٢) هذا حديث لا أصل له.

(٢٣٣) هذا حديث صححه الإمام الألباني في «صحيح الجامع الصغير» [رقم/ ٢٣٠٤] من حديث أنس بلفظ: « إن قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة فإن استطاع أن لا تقوم حتى يغرسها فليغرسها».

(٢٣٤) إشارة إلى الآية الكريمة: ﴿ حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلًا أو نهارا فجعلناها حصيدًا كأن لم تغن بالأمس ﴾ يونس: ٢٤.

وأعني بهذا السمّ، فهْم العوام، وبُلْه الخواص، لِما ورد في التوراة من نحو: «اخضعوا للسلطان ولا سلطة إلا من الله»، و«الحاكم لا يتقلّد السيف جزافًا، إنه مقام للانتقام من أهل الشر»، ولما ورد في الرسائل[٢٣٥] من نحو: «فلتخضع كل نسمة للسلطة المقامة من الله»، وقد صاغ وعّاظ المسلمين ومحدِّثوهم من ذلك قولهم: «السلطان ظلُّ الله في الأرض»[٢٣٦]، و«الظالم سيف الله ينتقم به، ثمَّ ينتقم منه»، و«الملوك مُلْهمون». هذا وكلُّ ما ورد في هذا المعنى إنْ صحَّ فهو مُقيّد بالعدالة أو محتمل للتأويل بما يعقل، وبما ينطبق على حكم الآية الكريمة التي فيها فصل الخطاب، وهي: ﴿أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[٢٣٧]، وآية ﴿فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[٢٣٨].

التربية علمٌ وعمل. وليس من شأن الأمم المملوكة شؤونها أنْ يوجد فيها من يعلم التربية ولا من يعلمها. حتى إنَّ الباحث لا يرى عند الأُسَراء علمًا في التربية مدفونًا في الكتب فضلًا عن الأذهان. أمّا العمل، فكيف يُتصوَّر وجوده بلا سبْق عزْم، وهو بلا سبْق يقين، وهو بلا سبْق عِلْم. وقد ورد في الأثر «النيّة سابقة العمل»[٢٣٩]. وورد في الحديث: «إنّما الأعمال بالنيّات»[٢٤٠]. بناءً عليه؛ ما أبعد الناس المغصوبة إرادتهم، المغلولة أيديهم، عن توجيه الفكر إلى مقصد مفيد كالتربية، أو توجيه الجسم إلى عملٍ نافع كتمرين الوجه على الحياء والقلب على الشفقة.

---

(٢٣٥) قال الأستاذ محمد جمال الطحان في تعليقه على «طبائع الاستبداد»: «رسائل بولس الرسول، وعددها أربع عشرة رسالة، وهي من أسفار العهد الجديد».

(٢٣٦) قد ورد هذا في حديث إلا أنه منكر لا يصح.

(٢٣٧) هود: ١٨.

(٢٣٨) البقرة: ١٩٣.

(٢٣٩) هذا حديث ضعيف ورد بلفظ: « نية المؤمن أبلغ من عمله». إلا أن معناه صحيح.

(٢٤٠) حديث صحيح أخرجه البخاري [رقم/١] - واللفظ له- ومسلم [رقم/ ١٩٠٧] من حديث عمر بن الخطاب به.

نعم؛ ما أبعد الأُسَراء عن الاستعداد لقبول التربية، وهي قصر النظر على المحاسن والعِبَر، وقصر السمع على الفوائد والحِكَم، وتعويد اللسان على قول الخير، وتعويد اليد على الإتقان، وتكبير النفس عن السفاسف، وتكبير الوجدان عن نصرة الباطل، ورعاية الترتيب في الشؤون، ورعاية التوفير في الوقت والمال. والاندفاع بالكلّية لحفظ الشرف، لحفظ الحقوق، ولحماية الدين، لحماية الناموس، ولحبِّ الوطن، لحبِّ العائلة، ولإعانة العلم، لإعانة الضعيف، ولاحتقار الظالمين، لاحتقار الحياة. على غير ذلك مما لا ينبت إلا في أرض العدل، تحت سماء الحرية، في رياض التربيتيْن العائلية والقومية.

الاستبداد يضطرُّ النّاس إلى استباحة الكذب والتحيُّل والخداع والنِّفاق والتذلل. وإلى مراغمة الحسِّ وإماتة النفس ونبْذ الجَدّ وترك العمل، إلى آخره. وينتج من ذلك أنَّ الاستبداد المشؤوم هو يتولى بطبعه تربية الناس على هذه الخصال الملعونة. بناءً عليه، يرى الآباء أنَّ تعبهم في تربية الأبناء التربية الأولى على غير ذلك لا بدَّ أنْ يذهب عبثًا تحت أرجل تربية الاستبداد، كما ذهبت قبلها تربية آبائهم لهم، أو تربية غيرهم لأبنائهم سدىً.

ثمَّ إنَّ عبيد السلطان التي لا حدود لها هم غير مالكين أنفسهم، ولا هم آمنون على أنَّهم يُربّون أولادهم لهم. بل هم يربّون أنعامًا للمستبدّين، وأعوانًا لهم عليهم. وفي الحقيقة، إنَّ الأولاد في عهد الاستبداد، هم سلاسل من حديد يرتبط بها الآباء على أوتاد الظلم والهوان والخوف التضييق. فالتوالد من حيث هو زمن الاستبداد حُمْق، والاعتناء بالتربية حُمْقٌ مضاعف! وقد قال الشاعر:

إنْ دام هذا ولم تحدث له غِيَرٌ ... لم يُبكَ ميتٌ ولم يُفرح بمولودِ

وغالب الأُسَراء لا يدفعهم للزواج قصْدُ التوالد، إنما يدفعهم إليه الجهل المُظْلِم، وأنَّهم حتى الأغنياء منهم محرومون من كلِّ الملذّات الحقيقية: كلذّة العلم وتعليمه، ولذّة المجْد والحماية، ولذّة الإيثار والبذل، ولذّة إحراز مقام في القلوب، ولذّة نفوذ الرأي الصائب، ولذّة كِبَر النفس عند السفاسف، إلى غير ذلك من الملذّات الروحية.

أما ملذَّات هؤلاء التُّعَساء فهي مقصورة على لذتيْن اثنتيْن؛ الأولى منها لذة الأكْل، وهي جعلهم بطونهم مقابر للحيوانات إن تيسَّرت، وإلا فمزابل للنباتات، أو بجعلهم أجسامهم في الوجود كما قيل: أنابيب بين المطبخ والكنيف ، أو جعْلها معامل لتجهيز الأخبثيْن.

واللذّة الثانية هي الرّعشة باستفراغ الشهوة، كأن أجسامهم خُلِقتْ دمامل جَرَبٍ على أديم الأرض، يطيب لها الحَكّ ووظيفتها توليد الصديد ودفْعه، وهذا الشره البهيمي في البِعال[٢٤١] هو ما يُعْمي الأُسَراء ويرميهم بالزواج والتوالد.

العِرض – زمن الاستبداد – كسائر الحقوق غير مَصون، بل هو معرَّض لهتْك الفُسّاق من المستبدين والأشرار من أعوانهم، فإنهم، كما أخبر القرآن عن الفراعنة، يأسِرون الأولاد ويستحيون النساء، خصوصًا في الحواضر الصغيرة والقُرَى المستضعف أهلها.

ومن الأمور المشاهدة أنَّ الأمم التي تقع تحت أسْرِ أمةٍ تُغايرها في السيماء، لا يمضي عليها أجيال إلا وتغْشو فيها سِيماء الآسِرين: كسواد العيون في الإسبانيول، وبياض البشْرة في الأفريقيين. وعدم الاطمئنان على العِرض يُضعف الحبّ الذي لا يتمُّ إلا بالاختصاص، ويُضْعِف لصقة الأولاد بأزواج أمهاتهم، فتضعف الغَيْرة على تحمُّل مشاق التربية، تلك الغَيْرة التي لأجلها شرَّع الله النكاح، وحرَّم السِّفاح.

---

(٢٤١) يعني: الأزواج.

للسّعة والفقر أيضًا دخْلٌ كبير في تسهيل التربية، وأين الأُسَراء من السّعة؟! كما أنَّ لانتظام المعيشة ولو مع الفقر علاقة قوية في التربية، ومعيشة الأُسَراء أغنياء كانوا أو مُعْدمين، كلُّها خللٌ في خلل، وضِيقٌ في ضيق، وذلك يجعل الأسير هيِّن النفس، وهذا أول دركات الانحطاط، يرى ذاته لا يستحقُّ المزيد في النعيم مطعمًا ومشربًا وملبسًا ومسكنًا، وهذا ثاني الدركات ويرى استعداده قاصرًا عن الترقّي في العلم، وهذا ثالثها، ويرى حياته على بساطتها لا تقوى إلا بمعاونة غيره له، وهذا رابعها، وهلمَّ جَرًّا!

بناءً عليه؛ ما أبعد الأُسَراء عن النشاط للتربية، ثمَّ لماذا يتحمَّلون مشاقَّ التربية، وهم إنْ نوَّروا أولادهم بالعلْم جَنَوْا عليهم بتقوية إحساسهم، فيزيدونهم شقاءً، ويزيدونهم بلاءً، ولهذا لا غرْو أن يختار الأُسَراء الذين فيهم بقية من الإدراك، ترك أولادهم هَمَلًا تجْرفهم البلاهة إلى حيث تشاء.

وإذا افتكرنا كيف ينشأ الأسير في البيت الفقير، وكيف يتربَّى، نجد أنَّه يُلَقَّح به، وفي الغالب أبواه متناكِدان متشاكسان، ثمَّ إذا تحرَّك جنينًا حرَّك شَراسة أمِّه فتشتمه، أو زاد آلام حياتها فتضربه، فإذا ما ضيَّقتْ عليه بطنها لإلْفَتها الانحناء خمولًا والتصرُّر[٢٤٢] صغارًا، والتقلُّص لضيق فراش الفقر، ومتى ولدتْه ضغطتْ عليه بالقِماط[٢٤٣] اقتصادًا وجهلًا، فإذا تألَّم وبكى سدَّتْ فمه بثديها، أو قطعتْ نفَسَه خضًّا[٢٤٤] أو بدوَّار السرير[٢٤٥]، أو سَقَتْه مُخدِّرًا عجزًا عن نفقة الطبيب، فإذا ما فُطِم،

---

(٢٤٢) لم أفطن من معاني «التصرُّر» ما يناسب مراد المؤلف هنا! وواضح أنه يقصد منه العطف والحُنُوَّ من الأم على صغارها.

(٢٤٣) القِماط: خِرْقة عريضة يُلَف بها المَوْلُود. انظر: «المعجم الوسيط» [٧٥٩/٢].

(٢٤٤) يعني: تخويفه أو هزَّه شديدًا.

(٢٤٥) يعني: جعلتْ تهزُّه في سريره الذي يروح ويجيء. وهو سرير صغير معروف للأطفال كالأرجوحة.

يأتيه الغذاء الفاسد يُضَيِّق معدته، ويفسد مزاجه، فإذا كان قوي البنية طويل العمر وترعرع، يُمْنَع من رياضة اللعب لضيق البيت، فإذا سأل واستفهم ماذا وما هذا ليتعلّم، يُزجَر ويُلْكمَ [٢٤٦] لضيق خُلُق أبويْه، وإن جالسهما ليألف المعاشرة، وينتفي عنه التوجُّس يُبْعِدانه كي لا يقف على أسرارهما، فيسترقّها [٢٤٧] منه الجيران الخُلُطاء، فتنْمَى [٢٤٨] أعوان الظالمين وما أكثرهم، فإذا قويتْ رجلاه يُدْفَع به إلى خارج الباب، إلى مدرسة الإلْفة على القذارة، وتعلُّم صِيَغ الشتائم والسِّباب، فإنْ عاش ونشأ وُضِعَ في مكتب أو عند ذي صنعة، فيكون أكبر القصْد ربْطُه عن السَّراح والمَراح.

فإذا بلغ الشباب، ربطَه أولياؤه على وتَدِ الزواج كي لا يفِرَّ من مُشاكَلَتهم في شقاء الحياة، ليجني هو على نسْله كما جنَى عليه أبواه، ثمَّ هو يتولى التضييق على نفسه بأطْواق الجهل وقيود الخوف، ويتولَى المستبدّون التضييق على عقله ولسانه وعمله وأمَلِه.

وهكذا يعيش الأسير في حين يكون نسمة في ضيق وضغْط، يُهرول ما بين عتبة همٍّ ووادي غَمٍّ، يودِّع سقمًا ويستقبل سَقمًا إلى أن يفوز بنعمة الموت مُضيِّعًا دنياه مع آخرته، فيموت غير آسف ولا مأسوف عليه.

وما أظلم من يؤاخذ الأُسَراء على عدم اعتنائهم بلوازم الحياة. فالنظافة مثلًا: لماذا يهتم بها الأسير؟ هل لأجل صحَّته وهو في مرضٍ مستمرّ؟ أم لأجل لذَّته وهو المتألم كيفما تقلَّب جسمه أو نظره؟ أم لأجل ذوْق من يجالس أو يُؤاكل، وهو من عفَتْ نفسه صحبة الحياة؟

---

(٢٤٦) يعني: يُضْرَب.

(٢٤٧) يعني: يسمعها.

(٢٤٨) كذا في المطبوع! ولعل الصواب: «فتنْمَى إلى» أي: فتنْمَى الأسرار إلى أن تصل إلى أسماع أعوان الظالمين.

ولا يظنَّ المطالع أنَّ حالة أغنياء الأُسَراء هي أقلُّ شرًا من هذا؛ كلا، بل هم أشقى وأقلّ عافيةً، وأقصر عمرًا من هذا، إذا نقصتهم بعض المنغِّصات، تزيد فيهم مشاق التظاهر بالراحة والرَّفاه والعزّة والمَنَعة، تظاهرًا إنْ صحَّ قليله فكثيره الكاذب حِمْلٌ ثقيل على عواتقهم كالسكران يتصاحَى فيُبْتَلَى بالصداع، أو كالعاهرة البائسة تتضاحك لتُرْضي الزاني.

حياة الأسير تشبه حياة النائم المزعوج بالأحلام، فهي حياة لا روح فيها، حياة وظيفتها تمثيل مُنْدرِسات الجسم فقط، ولا علاقة لها بحفظ المزايا البشرية، وبناءً على هذا؛ كان فاقد الحرية لا أنانية[٢٤٩] له لأنه ميتٌ بالنسبة لنفسه، حيٌّ بالنسبة لغيره؛ كأنَّه لا شيء في ذاته، إنَّما هو شيء بالإضافة. ومن كان وجوده في الوجود بهذه الصورة وهي الفناء في المستبدين، حقَّ له أن لا يشعر بوظيفة شخصية فضلًا عن وظيفة اجتماعية. ولولا أنْ ليس في الكون شيء غير تابع لنظام حتى الجماد، حتى فلَتات الطبيعة والصُّدَف التي هي مسببات لأسباب نادرة، لحكمنا بأنَّ معيشة الأُسَراء هي محض فوضى، لا شبه فوضى.

على أنَّ التدقيق العميق، يفيدنا بأنَّ للأُسَراء، قوانين غريبة في مقاومة الفناء يصْعب ضبطها وتعريفها، إنما الأسير يرضعها مع لبْن أمه، ويتربَّى عليها، وقد يُبْدِع فيها بسائِق الحاجة، ويكون منهم الحاذِق فيها علْمًا، الماهر في تطبيقها عملًا، هو الموفَّق في ميدان حرب الحياة مع الذل، كالهنود واليهود.

والعاجز عنها، إمّا جاهل هذا القانون أو العاجز فطرةً عن اتِّباعه كالعرب مثلًا، فلا يخرج عن كونه كرة يلعب بها صبيان الاستبداد، تارةً يضربون بها الأرض أو الحيطان، وأما إذا كان عجزه كما يقال عن عرق هاشمي، أي عن شيءٍ من كرامة نفْس أو قوة إحساس أو جسارة جنان، فيكون كالحجارة تتكسَّر ولا تلين.

---

(٢٤٩) أي لا يشعر بذات مُستقلَّة تخصه وحده ويعبر عنها بـــ: «أنا».

قوانين حياة الأسير هي مقتضيات الشؤون المحيطة به، التي تضطره لأن يطبق إحساساته عليها، ويدبِّر نفسه على موجبها، وذلك نحو مقابلة التجبُّر عليه بالتذلل والتّصاغر، وتعديل الشدة عليه بالتلاين والمطاوعة، وإعطاء المطلوب منه بعد قليلٍ من التمنُّع، ولو أنَّ المطلوب هو ابنه لمجزرة الجُنْدية أو ابنته لفراش شيخٍ شرِّير، والمطالبة في الحقوق بصفة استعطاف كأنَّه طالب صدقة، وكسب المعاش مع شكاية الحاجة، وحِفْظ المال بإخفائه عن الأعيُن، والتعامي عن زلاّت المستبدين، والتصامُم عن سماع ما يُهان به، والتظاهر بفقد الحسّ أو تعطيله بالمخدرات القوية كالأفيون والحشيش، وتعطيل العقل بالتّباله [٢٥٠] وسَتْر العلم بالتجاهل، والارتداء بالتديُّن والرياء، وتعويد اللسان على الزَّلَاقة [٢٥١] في عبائر [٢٥٢] التصاغر والتملُّق [٢٥٣]، وعزْو كلّ خير إلى فضْل المُستبدِّين حتى إذا كان الخير طبيعيًا نحو مطر السماء، فعزوه إلى يُمْن الحُكَّام أو دعاء الكهنة. ويسند كلَّ شرٍّ ولو من نوع التسلُّط على الأعراض، على الاستحقاق من جانب الله. إلى غير ذلك من أحكام ذلك القانون، الذي رؤوس مسائله فقط تملّ القارئ فضلًا عن تفصيلاتها.

إنَّ أخوف ما يخافه الأسير هو أن يظهر عليه أثر نعمة الله في الجسم أو المال، فتصيبه عين الجواسيس وهذا أصل عقيدة إصابة العين [٢٥٤]! أو أن يظهر له شأن في علمٍ أو جاهٍ أو نعمةٍ مهمة، فيسعى به حاسدوه إلى المستبدِّ (وهذا أصل شر الحسد الذي يُتعوَّذ منه)!

---

(٢٥٠) يعني: البَلَه.

(٢٥١) الزلاقة: الموضع الذي لَا تثبتْ عَلَيْهِ الْقدَم. كما في «المعجم الوسيط» [١/ ٣٩٨].

(٢٥٢) يقصد: عبارات. وهو جمع «عبارة» أما «عبائر» فهو خطأ شاع عند المتأخرين.

(٢٥٣) يعني النفاق ونحوه.

(٢٥٤) يعني: الحسد.

وقد يتحيّل الأسير على حفظ ماله الذي لا يمكنه إخفاؤه كالزوجة الجميلة، أو الدابة الثمينة، أو الدار الكبيرة، فيحميها بإسناد الشؤم، وهذا أصل التشاؤم بالأقدام والنواصي والأعتاب.

ومن غريب الأحوال أنَّ الأُسَراء يبغضون المُستبدَّ، ولا يقوون على استعمالهم معه البأس الطبيعي الموجود في الإنسان إذا غضب، فيصرفون بأسْهم في وجهة أخرى ظلمًا: فيُعادون من بينهم فئةً مستضعفةً، أو الغرباء، أو يظلمون نساءهم ونحو ذلك.

ومَثَلُهم في ذلك مثل الكلاب الأهلية، إذا أُريد منها الحراسة والشراسة، فأصحابها يربطونها نهارًا ويطلقونها ليلًا فتصير شرِسة عَقُورة، وبهذا التعليل تُعَلَّل جسارة الأُسَراء أحيانًا في محارباتهم، لا أنها جسارة عن شجاعة. وأحيانًا تكون جسارة الأُسَراء عن التناهي في الجبانة أمام المستبدِّ الذي يسوقهم إلى الموت، فيطيعونه انذعارًا كما تطيع الغَنَمة الذئب فتهرْوِل بين يديه إلى حيث يأكلها.

وقد اتَّضح مما تقدَّم أنَّ التربية غير مقصودة، ولا مقدورة في ظلال الاستبداد إلا ما قد يكون بالتخويف من القوة القاهرة، وهذا النوع يستلزم انخلاع القلوب لا تزكية النفوس. وقد أجمع علماء الاجتماع والأخلاق والتربية على أنَّ الإقناع خير من الترغيب فضلًا عن الترهيب، وإنَّ التعليم مع الحرية بين المعلِّم والمتعلِّم أفضل من التعليم مع الوقار، وأنَّ التعليم عن رغبة في التكمُّل أرسخ من العلم الحاصل طمعًا في المكافأة، أو غيرة من الأقران.

وعلى هذه القاعدة بنوا قولهم: إنَّ المدارس تقلل الجنايات لا السجون، وقولهم: إنَّ القصاص والمعاقبة قلَّما يفيدان في زجر النفس كما قال الحكيم العربي:

لا ترجع الأنفس عن غَيِّها ... ما لم يكن منها لها زاجِرُ

ومَن يتأمل جيدًا في قوله تعالى: ﴿ وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾[٢٥٥]، ملاحِظًا أنَّ معنى القصاص لغةً: هو التساوي مطلقًا، لا مقصورًا على المعاقبة بالمثل في الجنايات فقط، ويدقق النظر في القرآن الكريم وسائر الكتب السماوية، ويتَّبع مسالك الرُّسُل العظام -عليهم الصلاة والسلام- يرى[٢٥٦] أنَّ الاعتناء في طريق الهداية فيها منصرِفٌ إلى الإقناع، ثمَّ إلى الأطماع عاجلًا أو آجلًا، ثمَّ إلى الترهيب الآجل غالبًا ومع ترك أبواب تُدْلي إلى النجاة.

ثمَّ إنَّ التربية التي هي ضالّة الأمم، وفقدها هي المصيبة العظيمة، التي هي المسألة الاجتماعية؛ حيث الإنسان يكون إنسانًا بتربيته، وكما يكون الآباء يكون الأبناء، وكما تكون الأفراد تكون الأمّة، والتربية المطلوبة هي التربية المرتَّبة على إعداد العقل للتمييز، ثمَّ على حسن التفهيم والإقناع، ثمَّ على تقوية الهمّة والعزيمة، ثمَّ على التمرين والتعويد، ثمَّ على حسن القدوة والمثال، ثمَّ على المواظبة والإتقان، ثمَّ على التوسّط والاعتدال، وأنْ تكون تربية العقل مصحوبةً بتربية الجسم، لأنهما متصاحبان صحة واعتلالًا، فإنه يقتضي تعويد الجسم على النظافة وعلى تحمّل المَشاقّ، والمهارة في الحركات، والتوقيت في النوم والغذاء والعبادة، والترتيب في العمل وفي الرياضة والراحة. وأن تكون تلكما التربيتين[٢٥٧] مصحوبتين أيضًا بتربية النفْس على معرفة خالقها ومراقبته والخوف منه. فإذا كان لا مطْمَع في التربية العامّة على هذه الأصول بمانع طبيعة الاستبداد، فلا يكون لعقلاء المُبْتلين به إلا أن يسعوا أولًا وراء إزالة المانع الضاغط على هذه العقول، ثمَّ بعد ذلك يعتنوا بالتربية؛ حيث يمكنهم حينئذٍ أن ينالوها على توالي البُطون، والله الموفق.

---

(٢٥٥) البقرة: ١٧٩.

(٢٥٦) كذا في المطبوع، والجادة: «يَرَ» لأنَّها جواب الشرط الجازم «ومَن يتأمل...».

(٢٥٧) كذا في المطبوع، والصواب: «التربيتان».

الاستبداد والترقّي

الحركة سُنَّةٌ دائبةٌ في الخليقة بين شخوصٍ وهبوط. فالترقّي هو الحركة الحيوية؛ أي حركة الشخوص، ويقابله الهبوط وهو الحركة إلى الموت أو الانحلال أو الاستحالة أو الانقلاب.

وهذه السُّنّة كما هي عاملة في المادة وأعراضها، عاملة أيضًا في الكيفيات ومركَّباتها، والقول الشّارح لذلك آية: ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾[٢٥٨]، وحديث: «ما تمَّ أمرٌ إلا وبَدا نقصه»[٢٥٩]، وقولهم: «التاريخ يُعيد نفسه». وحكْمهم بأنَّ الحياة والموت حقّان طبيعيان.

وهذه الحركة الجِسْمية والنفسية والعقْلية لا تقتضي السير إلى النهاية شخوصًا أو هبوطًا؛ بل هي أشبه بميزان الحرارة، كلُّ ساعة في شأن، والعبرة في الحكم للوجهة الغالبة، فإذا رأينا آثار حركة الترقّي هي الغالبة على أفرادها، حكمنا لها بالحياة، ومتى رأينا عكس ذلك قضينا عليها بالموت.

الأمّة هي مجموعة أفراد يجمعها نسب أو وطن أو لغة أو دين، كما أنَّ البناء مجموع أنقاض، فحسبما تكون الأنقاض جنسًا وجمالًا وقوّةً يكون البناء، فإذا ترقَّت أو انحطَّت الأمة ترقَّت هيئتها الاجتماعية، حتى إنَّ حالة الفرد الواحد من الأمّة تؤثِّر في مجموع تلك الأمة.

كما إذا لو اختلَّتْ حجْرة من حصْن يختلُّ مجموعه وإنْ كان لا يشعر بذلك، كما لو وقفتْ بعوضة على طرف سفينة عظيمة أثقلتْها وأمالتها وإنْ لم يُدرَك ذلك

---

(٢٥٨) الروم: ١٩.

(٢٥٩) هذا لا يثبت حديثًا. وإن كان مشهورًا على ألسن بعض الكُتَّاب.

بالمشاعر. وبعض السياسيين بنى على هذه القاعدة: أنَّه يكفي الأمة رُقِيًّا أن يجتهد كلُّ فرد منها في ترقية نفسه بدون أن يفتكر في ترقّي مجموع الأمة.

الترقّي الحيوي الذي يجتهد فيه الإنسان بفطرته وهمّته هو:

أولًا: الترقّي في الجسم صحّةً وتلذُّذًا،

ثانيًا: الترقّي في القوّة بالعلم والمال،

ثالثًا: الترقّي في النفس بالخصال والمفاخر،

رابعًا: الترقّي بالعائلة استئناسًا وتعاونًا،

خامسًا: الترقّي بالعشيرة تناصرًا عند الطوارئ،

سادسًا: الترقّي بالإنسانية، وهذا منتهى الترقّي.

وهناك نوعٌ آخر من الترقّي ويتعلق بالروح وبالكمال، وهو أنَّ الإنسان يحمل نفْسًا ملهمة بأنَّ لها وراء حياتها هذه حياةً أخرى يترقّى بها على سلّم العدل والرحمة والحسنات. فأهل الأديان –ما عدا أهل التوراة– يؤمنون بالبعث أو التناسخ، فيأتون بالعدل والرحمة رجاء المكافأة أو خوف المجازاة، وهم من قبيل الطبيعيين يعتبرون أنفسهم مدينين للإنسانية بحفظها تاريخ الحياة الطبيعية، فيلتزمون بخدمتها اهتمامًا بحياتهم التاريخية بحُسن الذّكر أو قبحه.

وهذه الترقّيات، على أنواعها الستّة، لا يزال الإنسان يسعى وراءها ما لم يعترضه مانع غالب يسلب إرادته، وهذا المانع إمَّا هو القدَر المحتوم، المسمّى عند البعض بالعجز الطبيعي، أو هو الاستبداد المشؤوم.

على أنَّ القدر يصدم سير الترقّي لمحةً، ثمَّ يطلقه فيكرُّ راقيًا. وأما الاستبداد فإنَّه يقلب السير من الترقّي إلى الانحطاط، ومن التقدم إلى التأخر، من النماء إلى

الفناء، ويلازم الأمة ملازمة الغريم الشحيح، ويفعل فيها دهرًا طويلًا أفعاله التي تقدَّم وصْف بعضها في الأبحاث السابقة، أفعاله التي تبلغ بالأمة حطّة العجْماوات فلا يهمها غير حفْظ حياتها الحيوانية فقط، بل قد تبيح حياتها هذه الدنيئة أيضًا الاستبداد إباحةً ظاهرة أو خفيّة.

ولا عار على الإنسان أنْ يختار الموت على الذل، وهذه سِباع الطير والوحوش إذا أُسِرَتْ كبيرة قد تأبَى الغذاء حتى الموت.

وقد يبلغ فعْل الاستبداد بالأمة أن يُحوِّل ميلها الطبيعي من طلب الترقّي إلى التسفُّل، بحيث لو دُفِعَت إلى الرِّفعة لأبتْ وتألَّمَتْ كما يتألَّم الأجهر[٢٦٠] من النور، وإذا أُلزِمَت بالحرية تشقَى، وربما تفْنَى كالبهائم الأهْلِية إذا أُطلِقَ سراحُها. عندئذٍ يصير الاستبداد كالعَلَق[٢٦١] يطيب له المقام على امتصاص دم الأُمَّة، فلا ينفكُّ عنها حتى تموت ويموت هو بموتها.

وتوصَف حركة الترقّي والانحطاط في الشؤون الحيوية للإنسان؛ أنها من نوع الحركة الدودية، التي تحصل بالاندفاع والانقباض، وذلك أنَّ الإنسان يولد وهو أعجز حراكًا وإدراكًا من كلِّ حيوان، ثمَّ يأخذ في السير، تدفعه الرغائب النفسية والعقلية وتقبضه الموانع الطبيعية والمزاحمة. وهذا سرُّ أن الإنسان ينتابه الخير والشر. وهو سرُّ ما ورد في القرآن الكريم مِن ابتلاء الله الناس بالخير والشر، وهو معنى ما ورد في الأثر بأنَّ الخير مربوط بذيل الشر، والشر مربوطٌ بذيل الخير، وهو المراد من أقوال الحكماء نحو: على قدر النّعمة تكون النقمة، على قدر الهِمَم تأتي

---

(٢٦٠) الأَجْهَرُ: هو مَنْ لا يُبْصِرُ في الشمس. كما في «القاموس المحيط» مادة: «جهر».

(٢٦١) العَلَق: دود أسود يمتصُّ الدّم. يكون في الماء. مفرده علَقة. انظر: «القاموس المحيط» مادة: «علق».

العزائم، بين السعادة والشقاء حربٌ سِجال، العاقل من يستفيد من مصيبته، والكَيِّس من يستفيد من مصيبته ومصيبة غيره، والحكيم من يبتهج بالمصائب ليقطف منها الفوائد، ما كان في الحياة لذّة لو لم يتخللها آلام.

فإذا تقرر هذا فلْيُعْلَم أيضًا أنَّ سبيل الإنسان هو الرُّقِي، ما دام جناحا الاندفاع والانقباض فيه متوازيَيْن كتوازن الإيجابية والسلبية في الكهربائية، وسبيله القهقرى إن غلبته الطبيعة أو المزاحمة.

ثمَّ إنَّ الاندفاع إذا غلب فيه العقل النفس، كانت الوجهة إلى الحكمة، وإنْ غلبت النفس العقل، كانت الوجهة إلى الزيغ. أما الانقباض؛ فالمعتدل منه هو السائق للعمل، والقوي منه مُهلِكٌ للحركة، والاستبداد المشؤوم الذي نبحث فيه هو قابض ضاغط مُسكن، والمبتلون به هم المساكين. نعم: أُسَراء الاستبداد أحقُّ بوصْف المساكين من عَجَزة الفقراء.

ولو ملك الفقهاء حرية النظر لخرجوا من الاختلاف في تعريف المساكين الذين جعل لهم الله نصيبًا من الزكاة فقالوا: هم عبيد الاستبداد، ولجعلوا كفَّارَات فَكِّ الرقاب تشمل هذا الرِّقّ الأكبر.

أُسَراء الاستبداد حتى الأغنياء منهم كلُّهم مساكين لا حرَاك فيهم، يعيشون منحطّين في الإدراك، منحطِّين في الإحساس، مُنحطّين في الأخلاق. وما أظلم توجيه اللوْم عليهم بغير لسان الرأفة والإرشاد، وقد أبدع مَنْ شبَّه حالتهم بِدُود تحت صخرة، فما أليق باللائمين أن يكونوا مشفقين يسعون في رفع الصخرة ولو حَتًّا بالأظافر ذرَّةً بعد ذرَّة.

وقد أجمع الحكماء على أنَّ أهم ما يجب عمله على الآخذين بيد الأمَّة، الذين فيهم نسمة مروءة وشرار حميَّة، الذين يعرفون ما هي وظيفتهم بإزاء الإنسانية،

المُلتمِّسين لإخوانهم العافية، أن يسعوا في رفْع الضغط عن العقول لينطلق سبيلها في النُّموِّ فتمزِّق غيوم الأوهام التي تُمْطِر المخاوف، شأن الطبيب في اعتنائه أولًا بقوة جسم المريض، وأن يكون الإرشاد متناسبًا مع الغفلة خفَّةً وقوة: كالساهي ينبِّهه الصوت الخفيف، والنّائم يحتاج إلى صوتٍ لأقوى، والغافل يلزمه صياحٌ وزجر. فالأشخاص من هذا النوع الأخير، يقتضي لإيقاظهم الآن بعد أن ناموا أجيالًا طويلة أن يسقيهم النِّطاسي [٢٦٢] البارع مُرًّا من الزواجر والقوارص علَّهم يفيقون، وإلا فهم لا يفيقون، حتى يأتي القضاء من السماء: فتُبْرِق السيوف، وتُرْعِد المَدافِع، وتُمْطِر البنادق، فحينئذٍ يصْحون، ولكن؛ صحْوة الموت!.

بعض الاجتماعيين في الغرب يرون أنَّ الدِّين يُؤثِّر على الترقّي الإفرادي، ثمَّ الاجتماعي تأثيرًا معطِّلًا كفِعل الأفيون في الحِسِّ، أو حاجبًا كالغيْم يغشَى نور الشمس.

وهناك بعض الغلاة يقولون: الدين والعقل ضدّان متزاحمان في الرؤوس، وإنَّ أول نقطة من الترقّي تبتدئ عند آخر نقطة من الدين. وإنَّ أصدق ما يُستدَلُّ به على مرتبة الرُّقِي والانحطاط في الأفراد أو في الأمم الغابرة والحاضرة، هو مقياس الارتباط بالدين قوةً وضعفًا.

هذه الآراء كلُّها صحيحة لا مجال للردِّ عليها، ولكن؛ بالنظر إلى الأديان الخُرافية أساسًا أو التي لم تقف عند حدِّ الحكمة، كالدين المبْنِي على تكليف العقل بتصوُّر أنَّ الواحد ثلاثة والثلاثة واحد. لأنَّ مجرَّد الإذعان لِما يعْقل برهان على فساد بعض مراكز العقل، ولهذا أصبح العالم المتمدِّن يعدُّ الانتساب إلى هذه العقيدة من العار؛ لأنه شعار الحُمْق.

---

(٢٦٢) النِّطاسي: هو العَالم الماهر والطبيب الحاذق. انظر: «المعجم الوسيط» [٢/ ٩٣٠].

أما الأديان المبْنية على العقل المحضّ كالإسلام الموصوف بدين الفطرة، ولا أعني بالإسلام ما يدين به أكثر المسلمين الآن، إنَّما أريد بالإسلام: دين القرآن؛ أي الدين الذي يقوى على فهمه من القرآن كلُّ إنسانٍ غير مقيَّد الفكر بتفصُّح زيد أو تحكُّم عمرو.

فلا شك أنَّ الدِّين إذا كان مبنيًا على العقل، يكون أفضل صارف للفكر عن الوقوع في مصائد المُخرِّفين، وأنفع وازع بضبْط النَّفس من الشطط، وأقوى مؤثِّر لتهذيب الأخلاق، وأكبر معين على تحمُّل مشاقّ الحياة، وأعظم مُنشِّط على الأعمال المهمَّة الخطرة. وأجلَّ مثبِّت على المبادئ الشريفة، وفي النتيجة يكون أصحَّ مقياس يُستدلُّ به على الأحوال النفْسية في الأمم والأفراد رقيًّا وانحطاطًا.

هذا القرآن الكريم إذا أخذناه وقرأناه بالتّروِّي في معاني ألفاظه العربية وأسلوب تركيبه القرشي، مع تفهُّم أسباب نزول آياته وما أشارت إليه، ومع التبصُّر في مقاصده الدقيقة وتشريعه السامي، ومع أخْذ بعض التوضيحات من السُّنَّة العملية النبوية أو الإجماع إن وجِدا، وقلَّما يوجدان، فحينئذٍ لا نرى فيه من أولِّه إلى آخره غير حِكَمٍ يتلقّاها العقل بالإجلال والإعظام، إلى درجة انقياد العقل طوعًا أو كرهًا للإيمان إجمالًا بأنَّ تلك الحِكَم حِكَمٌ عزيزة إلهية، وأنَّ الذي أنزلها الله على قلبه هو أفضل من أرسله الله مرشدًا لعباده.

وتوضيح ذلك: أنَّ الناظر في القرآن حقّ النظر يرى أنَّه لا يُكلِّف الإنسان قطّ بالإذعان لشيء فوق العقل، بل يحذِّره وينهاه من الإيمان اتِّباعًا لرأي الغير أو تقليدًا للآباء. ويراه طافحًا بالتنبيه إلى أعمال الإنسان فكره ونظره في هذه الكائنات وعظيم انتظامها، ثمَّ الاستدلال بذلك إلى أنَّ لهذه الكائنات صانعًا أبدعها من العدم، ثمَّ الانتقال إلى معرفة الصِّفات التي يستلزم العقل أن يكون هذا الصانع متَّصِفًا بها، أو منزَّهًا عنها، ثمَّ يرى القرآن يعلِّم الإنسان بعض أعمال وأحكام وأوامر ونواهي

كلّها لا تبلغ المائة عددًا، وكلُّها بسيطة معقولة، إلا قليلًا من الأمور التعبُّدية التي شُرِّعتْ لتكون شعارًا يعرف به المسلم أخاه، أو يستطلع من خلال قيامه بها أو تهاونه فيها أخلاقه، فيستدلُّ مثلًا بالتّكاسل عن الصلاة على فَقْدِ النشاط، وبترك الصوم على عدم الصبر، وبالسُّكر على غلَبة النفْس والعقل ونحو ذلك.

وكفى بالإسلامية رُقِيًّا في التشريع، رُقيّها بالبشر إلى منزلة حصرها أسارة[٢٦٣] الإنسان في جهة شريفة واحدة وهي (الله)، وعَتَقَها عقْل البشر عن توهُّم وجود قوة ما، في غير الله، من شأنها أن تأتي للإنسان بخيرٍ ما، أو تدفع عنه شرًّا ما. فالإسلامية تجعل الإنسان لا يرجو ولا يهاب من رسولٍ أو نبيّ [٢٦٤]، أو ملكٍ أو فلك، أو وليٍّ أو جنّي، أو ساحرٍ أو كاهن، أو شيطانٍ أو سلطان.

وأعظِمْ بهذا التعليم الذي يرمي الإنسان عن عاتقه جبالًا من الخوف والأوهام والخيالات، جبالًا اعتَقَلها منذ كان يسْرح مع الغِيلان، أو ورثها من أبيه آدم الذي طغاه شيطان النفس [٢٦٥].

أو ليس العتيق[٢٦٦] من الأوهام يصبح صحيح العقل، قوي الإرادة، ثابت العزيمة، قائده الحكمة، سائقه الوجْدان، فيعيش حرًا، فرحًا صبورًا فخورًا. لا يبالي حتى بالموت لعلمه بالسعادة التي يستقبلها، التي يمثِّلها له القرآن بالجنان، فيها الرّوح والريحان، والحور والغلمان، فيها كل ما تشتهي الأنفس وتقرُّ به العينان؟!

---

(٢٦٣) أي: عبودية.

(٢٦٤) يعني لا يهاب منهم هيبتَه من الله.

(٢٦٥) ثم اجتباه ربُّه فتاب عليه وهدى. كما قال الله عز وجل. وكان ينبغي على المؤلف أن يذكر هذا عقب كلامه، أو ينتقي عبارته انتقاءً أفضل مما هنا.

(٢٦٦) يعني: الذي يُعتق.

وأظنُّ أن هؤلاء المنكرين فائدة الدين، ما أنكروا ذلك إلا من عدم اطِّلاعهم على دينٍ صحيح مع يأسهم من إصلاح ما لديهم، عجْزًا عن مقاومة أنصار الفساد.

وإذا نظرنا في أنَّ هؤلاء أنفسهم هم في آنٍ واحد يشددون النَّكير على الدِّين من جهة، قائلين: إنَّ ضرره أكبر من نفعه، ويهيجون من جهةٍ أخرى مؤثِّرات أدبية وهمية محضًا يرون أنه لا بدَّ منه في بناء الأمم، وذلك مثل حبِّ الوطن وخيانته، وحبِّ الإنسانية والإساءة إليها والسُّمْعة الحسنة وعكسها، والذِّكْر التاريخي بالخير أو الشَّر ونحو ذلك مما هو لا شيء في ذاته، ولا شيء أيضًا بالنسبة إلى تأثير طاعة الله والخوف منه، لأنَّ (الله) حقيقة لا ريب فيها، بل ولا خلاف إلا في الأسماء بين (الله) وبين (مادة) أو (طبيعة).

ولولا أنَّ المادِّيين والطبيعيين يأبون الاسترسال في البحث في صفات ما يسمونه مادة أو طبيعة، لالْتقوا -ولا شك- مع الإسلام في نقطة واحدة، فارتفع الخلاف العِلْمي وأسلم الكلُّ لله.

وعلى ذِكْر اللَّوْم الإرشادي لاح لي أنْ أُصوِّر الرُّقِي والانحطاط في النَّفس، وكيف ينبغي للإنسان العاقل أن يُعاني إيقاظ قومه، وكيف يرشدهم إلى أنهم خُلِقوا لغير ما هم عليه من الصَّبر على الذُّلِّ والسَّفالة، فيذكِّرهم، ويُحرِّك قلوبهم، ويناجيهم، ويُنْذرهم بنحو الخطابات الآتية:

«يا قومُ: ينازعني والله الشعور، هل موقفي هذا في جمع حيٍّ فأحيّيه بالسلام؟ أم أنا أخاطب أهل القبور فأحييهم بالرحمة؟ يا هؤلاء، لستم بأحياء عاملين، ولا أموات مستريحين، بل أنتم بَيْن بَيْن[٢٦٧] في برْزخٍ يسمّى التنبُّت، ويصرح تشبيهه

(٢٦٧) بَيْن بَيْن: أيْ وسَط وسَط.

بالنّوم! يا ربّاه: إني أرى أشباح أناس يشبهون ذوي الحياة، وهم في الحقيقة موتى لا يشعرون، بل هم موتى؛ لأنهم لا يشعرون».

«يا قوم: هداكم الله، إلى متى هذا الشقاء المديد والنّاس في نعيمٍ مقيم، وعِزٍّ كريم، أفلا تنظرون؟ وما هذا التأخُّر، وقد سبقتْكم الأقوام ألوف مراحل، حتى صار ما بعد ورائكم أمامًا! أفلا تتبعون؟ وما هذا الانخفاض والناس في أوج الرّفعة، أفلا تغارون؟ أناشدكم الله؛ هل طابت لكم طول غيْبة الصواب عنكم؟ أم أنتم كأهل ذلك الكهف ناموا ألف عام ثمَّ قاموا، وإذا بالدنيا غير الدنيا، والناس غير الناس، فأخذتهم الدهشة والتزموا السكون؟».

«يا قوم: وقاكم الله من الشر، أنتم بعيدون عن مفاخر الإبداع وشرَف القدوة، مُبتلون بداء التقليد والتبَعية في كلِّ فكرٍ وعمْل، وبِداء الحرْص على كلِّ عتيق كأنَّكم خُلِقْتم للماضي لا للحاضر، تشْكُون حاضركم وتسْخطون عليه، ومَنْ لي أن تدركوا أنَّ حاضركم نتيجة ماضيكم، ومع ذلك أراكم تُقلِّدون أجدادكم في الوساوس والخرافات والأمور السافِلات فقط، ولا تقلِّدونهم في محامدهم! أين الدين؟ أين التربية؟ أين الإحساس؟ أين الغَيْرة؟ أين الجسارة؟ أين الثبات؟ أين الرابطة؟ أين المنعة؟ أين الشهامة؟ أين النخْوة؟ أين الفضيلة؟ أين المواساة؟ هل تسمعون؟ أم أنتم صُمٌّ لاهون؟».

«يا قومُ: عافاكم الله، إلى متى هذا النوم؟ وإلى متى هذا التقلُّب على فراش البأس ووسادة اليأس؟ أنتم مُفتَّحةٌ عيونكم ولكنكم نيام، لكم أبصار ولكنكم لا تنظرون، وهكذا لا تعمى الأبصار، ولكنْ تعمَى القلوب التي في الصّدور! لكمْ سَمْعٌ ولسانٌ ولكنكم صُمٌّ بُكمٌ، ولكم شبيه الحِسِّ ولكنكم لا تشعرون به ما هي اللذائذ حقًا وما هي الآلام، ولكم رؤوسٌ كبيرة ولكنها مشغولة بمُزْعجات

الأوهام والأحلام، ولكم نفوسٌ حقُّها أن تكون عزيزة، ولكنْ؛ أنتم لا تعرفون لها قدرًا ومقامًا».

«يا قومُ: قاتل الله الغباوة، فإنها تملأ القلوب رُعْبًا من لا شيء، وخوفًا من كلِّ شيء، وتُفْعِم الرؤوس تشويشًا وسخافة. أليست هي الغباوة جعلتكم كأنكم قد مسَّكم الشيطان، فتخافون من ظلِّكم وتُرهِبون من قوتكم، وتجيّشون منكم عليكم جيوشًا ليقتل بعضكم بعضًا؟ تترامون على الموت خوف الموت، وتحسبون -طول العمر- فكركم في الدِّماغ ونطقكم في اللسان وإحساسكم في الوجْدان خوفًا من أن يسجنكم الظالمون، وما يسجنون غير أرجلكم أيامًا، فما بالكم يا أحْلاس[٢٦٨] النساء مع الذلّ تخافون أن تصيروا جُلاَّس الرجال في السجون؟».

«يا قوم: أُعيذكم بالله من فساد الرأي، وضياع الحزْم، وفقد الثقة بالنفس، وترك الإرادة للغير، فهل ترون أثرًا للرُّشد في أن يوكِّل الإنسان عنه وكيلًا ويُطلق له التصرُّف في ماله وأهله، والتحكُّم في حياته وشرفه والتأثير على دينه وفكره، مع تسليف هذا الوكيل العفو عن كلِّ عبثٍ وخيانة وإسرافٍ وإتلاف؟ أم ترون أنَّ هذا النوع من الجنة به أن يظلم الإنسان نفسه؟ هل خلق الله لكم عقولًا لتفهموا به كلَّ شيء؟ أم لتهملوه كأنَّه لا شيء؟ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾[٢٦٩].

«يا قوم: شفاكم الله، قد ينفع اليوم الإنذار واللوْم، وأما غدًا إذا حلَّ القضاء، فلا يبقى لكم غير النّدْب والبكاء. فإلى متى هذا التخادع والتخاذل؟ وإلى متى هذا الإهمال؟ هل طاب لكم النوم على الوِسادة اللَّيِّنة، وِسادة الخمول؟ أم طاب لكم

---

(٢٦٨) يعني: يا ملازمون النساء.

(٢٦٩) يونس: ٤٤.

السكون وتودُّون لو تسكنون القبور؟ أم عاهدتم أنفسكم أن تصِلُوا غفلة الحياة بالممات، فلا تفيقوا من السُّبات قبل صباح يوم النشور، يوم تعْلو السيوف رقابكم وتُصْمِي المدافع آذانكم فتُمْسون الأذلاّء حقًا، وحقَّ لكم أن تُذَلُّوا؟».

«يا قومُ: رحمكم الله، ما هذا الحرْص على حياةٍ تعيسةٍ دنيئة لا تملكونها ساعة! ما هذا الحرْص على الراحة الموهومة وحياتكم كلُّها تعَبٌ ونصَب! هل لكم في هذا الصَّبر فخرٌ أو لكم عليه أجر؟ كلاّ؛ والله ساء ما تتوهمون، ليس لكم إلا القهر في الحياة، وقبيح الذِّكر بعد الممات؛ لأنَّكم ما أفدتم الوجود شيئًا. بل أتلفتم ما ورثتم عن السّلف وصِرتمُ بئس الواسطة للخَلَف. ألستم يا ناس مديونين للأسلاف بكلِّ ما أنتم فيه من الترَقّي عن إنسان الغابات؟ فإذا لم تكونوا أهلًا للمزيد فكونوا أخِلَّاء للحِفْظ، وهذه العجماوات[٢٧٠] تنقل رُقِيَّها لِنَسْلها بأمانة».

«يا قومُ: حماكم الله، قد جاءكم المستمتعون من كلِّ حدَبٍ ينْسلون، فإن وجدوكم أيقاظًا عاملوكم كما يتعامل الجيران ويتجامل الأقران، وإن وجدوكم رُقودًا لا تشعرون سلبوا أموالكم، وزاحموكم على أرضكم، وتحيَّلوا تذليلكم، وأوثقوا ربْطكم، واتَّخذوكم أنعامًا، وعندئذٍ لو أردتم حِراكًا لا تقوون، بل تجدون القيود مشدودةً والأبواب مسدودة لا نجاة ولا مخرج».

«يا قومُ: هوَّن الله مُصابكم، تَشْكون من الجهل ولا تُنْفقون على التعليم نصف ما تصرفون على التدخين، تشكون من الحُكَّام، وهم اليوم منكم، فلا تسعون في إصلاحهم، تشكون فقد الرابطة، ولكم روابط من وجوهٍ لا تفكِّرون في إحكامها.

تشكون الفقر ولا سبب له غير الكسل. هل ترجون الصَّلاح وأنتم يُخادِع بعضكم بعضًا ولا تخدعون إلا أنفسكم؟. ترضون بأدنى المعيشة عجْزًا تُسمّونه

---

(٢٧٠) عَجْماوات: جمع عجماء. انظر: «معجم لغة الفقهاء» [ص/٣٠٦].

قناعة، وتهملون شؤونكم تهاونًا تُسمّونه توكُّلًا! تُموِّهون على جهْلكم الأسباب بقضاء الله وتدفعون عار المسببات بعطْفها على القدَر، ألا والله ما هذا شأن البشر!».

«يا قومُ: سامحكم الله، لا تظلموا الأقدار، وخافوا غَيْرة المُنْعم الجبّار. ألم يخْلقكم أكفَّاءَ أحرارًا طلقاء لا يُثْقلكم غير النّور والنسيم، فأبيتم إلا أن تحملوا على عواتقكم ظلم الضعفاء وقهر الأقوياء؟! لو شاء كبيركم أن يُحمِّل صغيركم كرة الأرض لَحَنَى له ظهره، ولو شاء أن يركبه لطأطأ له رأسه.

ماذا استفدتم من هذا الخضوع والخشوع لغير الله؟ وماذا ترجون من تقبيل الأذْيال والأعتاب وخفض الصوت ونكس الرأس؟ أليس منشأ هذا الصّغار كلِّه هو ضعْفُ ثقتكم بأنفسكم، كأنّكم عاجزون عن تحصيل ما تقوم به الحياة، وحسب الحياة لُقيماتٍ من نباتٍ يُقِمْن ضلْع ابن آدم، وقد بذلها الخلَّاق لأضعف الحيوان، وهذه الوحوش تجد فرائسها أينما حلَّتْ، وهذه الهوام لا تفقد قوتها؟ فما بال الرَّجل منكم يضع نفسه مقام الطفل الذي لا ينال حاجته إلا بالتذلُّل والبكاء، أو موضع الشيخ الفاني الذي لا ينال حاجته إلا بالتملُّق والدُّعاء؟».

«يا قوم: رفع الله عنكم المكروه، ما هذا التفاوت بين أفرادكم وقد خلقكم ربكم أكِفَّاء في البِنْية، أكفاء في القوة، أكِّفاء في الطبيعة، أكفَّاء في الحاجات، لا يفْضُل بعضكم بعضًا إلا بالفضيلة، لا ربُوبية بينكم ولا عبودية؟ والله ليس بين صغيركم وكبيركم غير برْزخٍ من الوهم. ولو درى الصغير بوهمه، العاجز بوهمه، ما في النفس الكبير المُتآلِه[٢٧١] من الخوف منه لزال الإشكال وقضي الأمر الذي فيه تشقُّون!

يا أعِزاء الخلْقة، جُهلاء المقام، كان الناس في دور الهمجيَّة، فكان دُهاتهم بينهم آلهة وأنبياء، ثمَّ ترَقَّى النّاس، فهبط هؤلاء لمقام الجبابرة والأولياء، ثمَّ زاد الرُّقِي فانحطَّ

---

(٢٧١) يعني: الذي ذهب عقله أو كاد يذهب من الخوف. يقال: يُقَال رجل تالِهُ الْعقْل. أي تالفه. انظر: «المعجم الوسيط» [٨٧/١].

أولئك إلى مرتبة الحُكَّام والحكماء، حتى صار النّاس ناسًا فزال العَماء، وانكشف الغطاء، وبان أنَّ الكلَّ أكِفَّاء. فأناشدكم الله في أي الأدْوار أنتم؟ ألا تفكِّرون؟».

«يا قومُ: جعلكم الله من المهتدين، كان أجدادكم لا ينْحنون إلا ركوعًا لله، وأنتم تسجدون لتقبيل أرْجُل المُنْعِمين ولو بِلُقمةٍ مغموسةٍ بدَم الإخوان، وأجدادكم ينامون في قبورهم مُسْتَوين أعِزاء، وأنتم أحياء مُعوَّجة رقابكم أذلاّء!

البهائم تودُّ لو تنتصب قاماتها وأنتم من كثرة الخضوع كادت تصير أيديكم قوائم. النبات يطلب العلو وأنتم تطلبون الانخفاض. لفَظَتْكم الأرض لتكونوا على ظهرها وأنتم حريصون على أن تنغرسوا في جوْفها، فإنْ كانت بطْن الأرض بغيتكم، فاصبروا قليلًا لتناموا فيها طويلًا».

«يا قومُ: ألهمكم الله الرُّشد، متى تستقيم قاماتُكم وترتفع من الأرض إلى السماء أنظاركم، وتميل إلى التعالي نفوسكم، فيشعر أحدكم بوجوده في الوجود، فيعرف معنى الأنانية ليستقلّ بذاته لذاته، ويملك إرادته واختياره ويثق بنفسه وربّه، لا يتكِّل على أحد من خلق الله اتِّكال الناقص في الخلق على الكامل فيه، أو اتِّكال الغاصب على مال الغافل أو الكلِّ على سعي العامل، بل يرى أحدكم نفسه إنسانًا كريمًا يعتمد على المبادلة والتعاوض فيسلف، ثمَّ يستوفي، ويستوفي على أن يفِي، بل ينظر في نفسه أنَّه هو الأمّة وحده، وما أجْدر بأحدكم أن يعمل لدنياه بنفسه لنفسه، فلا يتَّكل على غيره، كما يعمل الإنسان ليعبد الله بشخصه لا ينِيب عنه غيره؟ فإذا فعلتم ذلك أظهر الله بينكم ثمرة التضامن بلا اشتراط، والتقاضي بلا محاشرة، فتصيرون بنعمة الله إخوانًا».

«يا قوم: أبعد الله عنكم المصائب وبصَّركم بالعواقب. إنْ كانت المظالم غلَّتْ أيديكم، وضيَّقتْ أنفسكم، حتى صغرتْ نفوسكم، وهانت عليكم هذه الحياة

وأصبحت لا تساوي عندكم الجهْد والجدّ وأمسيتم لا تبالون أتعيشون أم تموتون، فهلاّ أخبرتموني لماذا تُحكِّمون فيكم الظالمين حتى في الموت؟ أليس لكم من الخَيار أن تموتوا كما تشاؤون، لا كما يشاء الظالمون؟ هل سلَب الاستبداد إرادتكم حتى في الموت؟ كلا والله: إنْ أنا أحببتُ الموت أموت كما أحب، لئيمًا أو كريمًا، حتْفًا أو شهيدًا، فإن كان الموت ولا بدَّ، فلماذا الجَبَانة؟ وإنْ أردت الموت، فليكنِ اليوم قبل الغد، ولكن بيدي لا بَيد عمرو[٢٧٢]. أليس:

وطعم الموت في أمرٍ صغير كطعم الموت في أمرٍ عظيمِ

«يا قومُ: أناشدكم الله، ألا أقول حقًا إذا قلتُ إنَّكم لا تحبُّون الموت، بل تنفرون منه، ولكنكم تجهلون الطريق فتهربون من الموت إلى الموت، ولو اهتديتم إلى السبيل لعلمتم أنَّ الهرب من الموت موتٌ، وطلَب الموت حياة، ولعرفتم أنَّ الخوف من التعب تعبٌ، والإقدام على التعب راحةٌ، ولفطنْتم إلى أنَّ الحرية هي شجرة الخُلْد، وسُقْياها قطرات من الدم الأحمر المسفوح، والأسَارة هي شجرة الزَّقُّوم، وسُقْياها أنْهرُ من الدم الأبيض؛ أي الدموع[٢٧٣]، ولو كبرتْ نفوسكم لتفاخرتم بتزْيين صدوركم بِوَرْد الجروح لا بِوسامات الظالمين؟!».

«يا قومُ: وأعْني منكم المساكين،.. أيها المسلمون: إني نشأت وشِبْتُ وأنا أُفكِّر في شأننا الاجتماعي، عسى أهتدي لتشخيص دائِنا، فكنتُ أتقصَّى السبب بعد

---

(٢٧٢) هذا المثل: يقوله الرجل يُنْزِل بنفسه المكروه مخافة أن يُنْزله به العدو. وله قصة مشهورة. انظر: «جمهرة الأمثال» [ص/ ٦٠].

(٢٧٣) هذه الفقرة: «ولو اهتديتم إلى السبيل لعلمتم أنَّ الهرب من الموت موتٌ، وطلَب الموت حياة، ولعرفتم أنَّ الخوف من التعب تعبٌ، والإقدام على التعب راحةٌ، ولفطنْتم إلى أنَّ الحرية هي شجرة الخُلْد، وسُقْياها قطرات من الدم الأحمر المسفوح، والأسَارة هي شجرة الزَّقُّوم، وسُقْياها أنْهرُ من الدم الأبيض؛ أي الدموع» هي من أبدع ما خطَّه المؤلف في كتابه كله. حقًا هي كلمات أشبه بالسِّحْر الحلال، وأرَقٌ من الماء الزُّلال. وعلى مثلها يُغْبَط المؤلف.

السبب، حتى إذا وقعتُ على ما أظنُّه عامًا، أقول: لعلَّ هذا هو جرثومة الدّاء، فأتعمَّق فيه تمحيصًا وأحلِّله تحليلًا، فينكشف التحقيق عن أنَّ ما قام في الفكر هو سبب من جملة الأسباب، أو هو سبب فرعي لا أصلي، فأخيب وأعود إلى البحث والتنقيب.

وطالما أمسيتُ وأصبحتُ أجهد الفكر في الاستقصاء، وكثيرًا ما سعيتُ وسافرتُ لأستطلع آراء ذوي الآراء، عسى أهتدي إلى ما يشفي صدري من آلام بحث أتعبني به ربِّي. وآخر ما استقرَّت عليه سفينة فكري هو:

إنَّ جرثومة دائنا هي خروج ديننا عن كونه دين الفطرة والحكمة، دين النظام والنشاط، دين القرآن الصريح البيان، إلى صيغة أنَّا جعلناه دين الخيال والخبال، دين الخلل والتشويش، دين البِدَع والتشديد، دين الإجهاد، وقد دبَّ فينا هذا المرض منذ ألف عام، فتمكَّن فينا وأثَّر في كلِّ شؤوننا، حتىٰ بلغ فينا استحكام الخلل في الفكر والعمل أننا لا نرى في الخالق -جلَّ شأنه- نظامًا فيما اتَّصف، نظامًا فيما قضى، نظامًا فيما أمر، ولا نطالب أنفسنا فضلًا عن آمرنا أو مأمورنا بنظامٍ وترتيبٍ واطِّراد ومثابرة.

وهكذا أصبحنا واعتقادنا مُشوَّش، وفكرنا مشوَّش، وسياستنا مشوَّشة، ومعيشتنا مشوَّشة. فأين منا والحالة هذه الحياة الفكرية، الحياة العملية، الحياة العائلية، الحياة الاجتماعية، الحياة السياسية؟!».

«يا قومُ: قد ضيَّع دينكم ودنياكم ساستكم الأولون وعلماؤكم المنافقون، وإنّي أرشدكم إلى عملٍ إفرادي لا حرج فيه علمًا ولا عملًا: أليس بين جنْبي كلِّ فردٍ منكم وجدان يميز الخير من الشرّ، والمعروف من المنكر ولو تمييزًا إجماليًا؟ أمَا بلغكم قولُ معلِّم الخير نبيكم الكريم عليه أفضل الصلاة والتسليم: «لتأمرنَّ

بالمعروف ولتنهونَّ عن المنكر أو ليسلِّطنَّ الله عليكم شراركم فيدعو خياركم فلا يستجاب لهم»[٢٧٤]، وقوله: «من رأى منكم منكرًا فليغيّره بيده، وإن لم يستطع فبلسانه، وإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان»؟![٢٧٥].

«وأنتم تعلمون إجماع أئمة مذاهبكم كلِّها على أنَّ أنكر المنكَرات بعد الكفر هو الظُّلم الذي فشا فيكم، ثمَّ قتْل النَّفس، ثمَّ، وثمَّ،... وقد أوضح العلماء أنَّ تغيير المنكر بالقلب هو بغض المتلبِّس فيه بُغْضًا في الله. بناءً عليه؛ فمن يعامل الظالم أو الفاسق غير مضطر، أو يجامله ولو بالسلام، يكون قد خسر أضعف الإيمان والعياذ بالله».

«ولا أظنكم تجهلون أنَّ كلمة الشهادة، والصوم والصلاة، والحج والزكاة، كلّها لا تغني شيئًا مع فقْد الإيمان، إنما يكون القيام حينئذٍ بهذه الشّعائر، قيامًا بعاداتٍ وتقليدات وهوَسات تضيع بها الأموال والأوقات».

«بناءً عليه؛ فالدين يكلِّفكم إن كنتم مسلمين، والحكمة تُلْزِمكم إن كنتم عاقلين: أن تأمروا بالمعروف وتنهوا عن المنكر جهْدكم، ولا أقلّ في هذا الباب من إبطانكم البغضاء للظالمين والفاسقين، وأظنّكم إذا تأمَّلتم قليلًا ترون هذا الدواء السهل المقدور لكلِّ إنسانٍ منكم، يكفي لإنقاذكم مما تشكون.

والقيام بهذا الواجب متعيّن على كلِّ فرد منكم بنفسه، ولو أهمله كافّة المسلمين. ولو أنَّ أجدادكم الأولين قاموا به لما وصلتم إلى ما أنتم عليه من الهوان. فهذا دينكم، والدّين ما يدين به الفرد لا ما يدين به الجمع، والدين يقينٌ وعمل، لا

---

(٢٧٤) هذا حديث ضعيف أخرجه أبو داود وغيره. وقد ضعفه الإمام الألباني في «السلسلة الضعيفة» [رقم/ ٤٢٩٨].

(٢٧٥) هذا حديث صحيح أخرجه مسلم [رقم/ ٤٩] وجماعة من حديث أبي سعيد الخدري به..

علمٌ وحِفظٌ في الأذهان. أليس من قواعد دينكم فرض الكفاية وهو أن يعمل المسلم ما عليه غير منتظرٍ غيره؟! ».

«فأناشدكم الله يا مسلمين: أن لا يغُرَّكم دين لا تعملون به وإن كان خير دين، ولا تغرنَّكم أنفسكم بأنَّكم أمّة خير أو خير أمّة، وأنتم المتواكلون المقتصرون على شعار: لا حول ولا قوّة إلا بالله العلي العظيم. ونِعْمَ الشِّعار شعار المؤمنين، ولكن؛ أين هم؟ إني لا أرى أمامي أمَّةً تعرف حقًا معنى لا إله إلا الله، بل أرى أمَّةً خبلَتْها عبادة الظالمين! ».

«يا قومُ: وأعني بكم الناطقين بالضاد من غير المسلمين، أدعوكم إلى تناسي الإساءات والأحقاد، وما جَناه الآباء والأجداد، فقد كفَى ما فُعِل ذلك على أيدي المُثيرين، وأجلُّكم من أن لا تهتدوا لوسائل الاتِّحاد وأنتم المهتدون السابقون. فهذه أُمَم أوستريا[٢٧٦] وأمريكا قد هداها العلم لطرائق شتّى وأصول راسخة للاتِّحاد الوطني دون الديني، والوِفاق الجِنْسي[٢٧٧] دون المذهبي، والارتباط السياسي دون الإداري.

فما بالنا نحن لا نفْتكر في أن نتبع إحدى تلك الطرائق أو شبهها. فيقول عقلاؤنا لمثيري الشَّحناء من الأعاجم[٢٧٨] والأجانب[٢٧٩]: دعونا يا هؤلاء نحن ندبِّر شأننا، نتفاهم بالفصحاء، ونتراحم بالإخاء، ونتواسَى في الضرّاء، ونتساوى في السَّراء.

---

(٢٧٦) هي النمسا. واسم النمسا (أوستريا) مأخوذ من كلمة (أوستر Auster) التي تعني ريح الجنوب. هكذا قال ولْ ديورانت في كتابه «قصة الحضارة» [٤٣/ ٢٤٦].

(٢٧٧) يعني الوطني أو القومي.

(٢٧٨) يعني العثمانيين. كما نبَّه عليه الأستاذ محمد جمال الطحان في تعليقه على «طبائع الاستبداد»:

(٢٧٩) الفرنسيون والإنكليز.

دعونا نُدبِّر حياتنا الدنيا، ونجعل الأديان تحْكم في الأخرى فقط [٢٨٠]. دعونا نجتمع على كلماتٍ سواء، ألا وهي: فلتحي[٢٨١] الأمة، فليحي[٢٨٢] الوطن، فلنحي[٢٨٣] طُلَقاء أعزّاء».

«أدعوكم وأخصُّ منكم النُّجَباء للتبصُّر والتبصير فيما آل إليه المصير، أليس مطلق العربي أخفُّ استحقارًا لأخيه الغربي؟ هذا الغربي قد أصبح مادّيًا لا دِين له غير الكسب، فما تظاهرُه مع بعضنا بالإخاء الديني إلا مخادعةً وكَذِبًا. هؤلاء الفرنسيس يطاردون أهل الدين، ويعملون على أنَّهم يتناسونه، بناءً عليه؛ لا تكون دعواهم الدِّين في الشَّرق، إلا كما يُغرِّد الصّياد وراء الأشباك!

لو كان للدين تأثير عند الغربي لما كانت البغضاء بين اللاتين والسكسون، بل بين الطلْيان والفرنسيس، ولما كانت بين الألمان والفرنسيين الغربيين.

الغربي أرقى من الشرقي عِلْمًا وثروة ومنَعة، فله على الشرقيين إذا وَاطَنَهمْ السيادةَ الطبيعية. أما الشرقيون فيما بينهم، فمتقاربون لا يتغابنون.

الغربي يعرف كيف يسُوس، وكيف يتمتَّع، وكيف يأسِر، وكيف يستأثر. فمتى رأى فيكم استعدادًا واندفاعًا لمجاراته أو سبقه، ضغط على عقولكم لتبقوا وراءه شوطًا كبيرًا كما يفعل الرُّوس مع البُولونيين، واليهود والتتار، وكذلك شأن كلِّ المستعمِرين.

---

(٢٨٠) هذه الفقرة تعلَّق بها جماعة من الباحثين على إثبات «عَلْمانية الكواكبي»! وعلى رأسهم الباحث اللبناني «جان داية» في كتابه «الإمام الكواكبي .. فصل الدين عن الدولة». وجعلها دليلا قويًّا على ذلك. وقد تعقبه في ذلك الباحث الإسلامي محمد عمارة بما هو محْضُ تكلُّف.

(٢٨١) كذا في المطبوع. وصواب الكلمة بالألف الممدودة: «فلتحيا».

(٢٨٢) كذا في المطبوع. وصواب الكلمة بالألف الممدودة: «فليحيا».

(٢٨٣) كذا في المطبوع. وصواب الكلمة بالألف الممدودة: «فلنحيا».

الغربي مهما مكث في الشرق لا يخرج عن أنَّه تاجر مستمتع، فيأخذ فسائِل الشرق ليغرسها في بلده التي لا يفتأ يفتخر برياضها ويحِنُّ إلى أرْباضها [٢٨٤].

قد مضى على الهولانديين في الهند وجزائرها، وعلى الروس في قاوزان، مثل ما أقمْنا في الأندلس، ولكنْ؛ ما خدموا العلم والعمران بعُشْر ما خدمناها، ودخل الفرنساويون الجزائر منذ سبعين عامًا[٢٨٥]، ولم يسمحوا بعد لأهلها بجريدةٍ واحدة تُقرَأ.

نرى الإنكليزي في بلادنا يُفضِّل قدِيد [٢٨٦] بلاده، وسَمَك بحارِه، على طَريِّ لحْمنا وسمَكنا. فهلا والحالة هذه تُبصرون يا أولي الألباب؟».

«وأنت أيها الشرق الفخيم رعاك الله. ماذا دهاك؟ ماذا أقعدك عن مَسْراك؟ أليست أرضك تلك الأرض ذات الجِنان والأقْنان [٢٨٧]، ومَنْبَت العلم والعِرفان، وسماؤك تلك السماء مصدر الأنوار، ومهبِط الحكمة والأديان، وهواؤك ذاك النسيم العدْل، لا العواصف والضَّباب. وماؤك ذاك العذْب الغَدَق[٢٨٨]، لا الكَدِر ولا الأُجاج؟»[٢٨٩].

«رعاك الله يا شرْق، ماذا أصابك فأخلَّ نظامك، والدهر ذاك الدهر ما غيَّر وضْعك، وبدَّل شرعه فيك؟ ألم تزل مناطقك هي المعتدلة، وبَنُوك هم الفائقون

---

(٢٨٤) الربَض: وسط الشَّيْء وأساس الْبناء.

(٢٨٥) أي في عام (١٨٣٠ م). كما قاله الأستاذ محمد جمال الطحان في تعليقه على «طبائع الاستبداد»:

(٢٨٦) القديد: هو اللحم المُجفَّف.

(٢٨٧) يقصد بـ: «الأقْنان»: المباني المرتفعة.

(٢٨٨) يعني: الغزير.

(٢٨٩) يعني: لا الماء المتعكِّر ولا الماء المالح شديد الملوحة.

فطْرةً وعددًا؟ أليس نظام الله فيك على عهده الأول، ورابطة الأديان في بِنِيك مُحكمة قويمة، مؤسَّسة على عبادة الصانع الوازِع؟ أليست معرفة المُنْعم حقيقة راهنة أشرقتْ فيك شمسُها، أيَّدتَ بها عزّ النفْس، وأحكمتَ بها حُبَّ الوطن وحبَّ الجنس؟».

«رعاك الله يا شرق، ماذا عراك وسكَّن منك الحِرَاك؟ ألم تزل أرضك واسعة خصْبة، ومعادنك وافية غنية، وحيوانك رابِيًا[٢٩٠] متناسلًا، وعمرانك قائمًا متواصلًا، وبَنُوك على ما ربَّيتهم أقرب للخير من الشَّر؟ أليس عندهم الحلْم المسمّى عند غيرهم ضعفًا في القلب، وعندهم الحياء المسمّى بالجَبانة، وعندهم الكرَم المسمّى بالإتلاف، وعندهم القناعة المسمّاة بالعجز، وعندهم العِفّة المسمّاة بالبلاهة، وعندهم المجاملة المسمّاة بالذلّ؟ نعم؛ ما هم بالسالمين من الظلم، ولكن؛ فيما بينهم، ولا من الخُدَع، ولكن؛ لا يفتخرون به، ولا من الإضرار، ولكن؛ مع الخوف من الله».

«رعاك الله يا شرق، لا نرى من غير الدّهر فيك ما يستوجب هذا الشّقاء لبنيك، ويستلزم ذلَّهم لبني أخيك. فلماذا قد أصبحت إذا انقطع عنك مدَد أخيك بمصنوعاته، يبقى أبناؤك عُرَاة حُفاة في ظلام، بل يُمنِّيهم فقْدُ الحديد بالرجوع إلى العصر النُّحاسي، بل الحجَري الموصوف بعصر التعفين؟».

«رعاك الله يا شرق، بل راعَى الله أخاك الغرْب، العائِل بنفسه والعائل فيك، وقاتل الله الاستبداد، بل لعن الله الاستبداد، المانع من التّرقّي في الحياة، المنحطّ بالأمم إلى أسفل الدركات. ألا بُعدًا للظالمين».

«رعاك الله يا غرْب، وحيَّاك وبيَّاك، قد عرفت لأخيك سابق فضله عليك، فوفَّيتَ، وكفيتَ، وأحسنتَ الوصاية وهديتَ، وقد اشتدَّ ساعد بعض أولاد

---

(٢٩٠) يعني: متزايد متكاثر.

أخيك، فهلا ينْتدب بعض شيوخ أحرارك لإعانة أنجاب أخيك على هدْم ذاك السُّور، سور الشؤم والشرور، ليخرجوا إلى أرض الحياة، أرض الأنبياء الهُداة، فيشكرون فضلك والدهر مكافأة؟».

«يا غربُ، لا يحفظ لك الدِّين غير الشرْق إنْ دامت حياته بحريته، وفقْدُ الدّين يهدِّدك بالخراب القريب. فماذا أعددت للفوضيين إذا صاروا جيشًا جرَّارًا؟ وماذا أعددت لديارك الحُبْلَى بالثورة الاجتماعية؟ هل تُعِدُّ المواد المتفرقعة، وقد جاوزتْ أنواعها الألف؟ أم تُعِدّ الغازات الخانقة وقد سهل استحضارها على الصبيان؟».

«يا قوم: وأريد بكم شباب اليوم؛ رجال الغد، شباب الفكر؛ رجال الجد، أُعيذكم من الخزْي والخذلان بتفرقة الأديان، وأُعيذكم من الجهل، جهل أنَّ الديْنُونة (٢٩١) لله، وهو سبحانه وليُّ السرائر والضمائر ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ (٢٩٢).

«أناشدكم يا ناشئة الأوطان، أن تعذروا هؤلاء الواهنة الخائرة قُواهم إلا في ألسنتهم، المعطَّل عملهم إلا في التثبيط، الذين اجتمع فيهم داء الاستبداد والتواكل فجعلاهما آلة تُدار ولا تدير. وأسألكم عفوهم من العتاب والملام، لأنَّهم مرضَى مبْتلون، مثقلون بالقيود، ملْجَمون بالحديد، يقضون حياة خير ما فيها أنَّهم آباؤكم!».

«قد علمتم يا نُجَباء من طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد جُمَلًا كافية للتدبُّر، فاعتبروا بنا (٢٩٣) واسألوا الله العافية.

---

(٢٩١) الدَّيْنونَة: يَوْمُ الدِّينِ، يَوْمُ الحِسابِ.

(٢٩٢) هود: ١١٨.

(٢٩٣) كذا في المطبوع، ولعل الصواب: «بها».

نحن أَلِفْنا الأدب مع الكبير ولو داس رقابنا. أَلِفنا الثبات ثبات الأوتاد تحت المطارق، أَلِفنا الانقياد ولو إلى المهالك. أَلِفنا أن نعتبر التَّصاغر أدبًا والتذلُّل لُطْفًا، والتملُّق فصاحةً، واللكْنة رزانة، وترْك الحقوق سماحةً، وقبول الإهانة تواضعًا، والرِّضا بالظُّلم طاعة، ودعوى الاستحقاق غرورًا، والبحث عن العموميات فضولًا، ومدَّ النَّظر إلى الغد أملًا طويلًا، والإقدام تهوُّرًا، والحمية حماقة، والشّهامة شراسة، وحريَّة القول وقاحة، وحريّة الفكر كُفرًا، وحبَّ الوطن جنونًا.

أما أنتم، حماكم الله من السوء، فنرجو لكم أن تنشأوا على غير ذلك، أن تنشأوا على التمسُّك بأصول الدين، دون أوهام المتفنِّنين، فتعرفوا قدْر نفوسكم في هذه الحياة فتكرموها، وتعرفوا قدْر أرواحكم وأنَّها خالدة تُثاب وتُجزَى، وتتَّبعوا سُنن النبيين فلا تخافون غير الصانع الوازع العظيم.

ونرجو لكم أن تبنوا قصور فَخاركم على معالي الهمم ومكارم الشيَّم، ولا على عظام نخِرة. وأن تعلموا أنَّكم خُلِقْتم أحرارًا لتموتوا كِرامًا، فاجهدوا على أن تُحيوا ذلكما اليومين حياةً رضِيّة، يتسنّى فيها لكلٍّ منكم أن يكون سلطانًا مستقلًا في شؤونه لا يحكمه غير الحقّ، ومدِينًا وفيًّا لقومه لا يضنُّ عليهم بعينٍ أو عون، وولدًا بارًّا لوطنه، لا يبخل عليه بجزءٍ من فكره ووقته وماله، ومُحبًّا للإنسانية ويعمل على أنَّ خير الناس أنفعهم للناس، يعلم أنَّ الحياة هي العمل ووباء العمل القنوط، والسعادة هي الأمل، ووباء الأمل التردد، ويفْقه أنَّ القضاء والقدر هما عند الله ما يعلمه ويمضيه، وهما عند الناس السعي والعمل، ويُوقن أنَّ كلَّ أثرٍ على ظهر الأرض هو من عمل إخوانه البشر، وكلَّ عملٍ عظيم قد ابتدأ به فردٌ، ثمَّ تعاوَرَهُ غيره إلى أنْ كمل، فلا يتخيل الإنسان في نفسه عجزًا، ولا يتوقَّع إلا خيرًا، وخير الخير للإنسان أن يعيش حُرًّا مقدامًا، أو يموت».

«وكأنّي بسائلكم يسألني تاريخ التغالب بين الشرق والغرب، فأجيب: بأنّا كنّا أرقى من الغرب علْمًا، فنِظامًا، فقوّة، فكنّا له أسيادًا! ثمَّ جاء حينٌ من الدَّهر لَحَق بنا الغرب، فصارت مزاحمة الحياة بيننا سِجالًا: إنْ فُقْناه شجاعةً فاقَنا عددًا، وإنْ فُقناه ثروةً فاقنا باجتماع كلمته.

ثمَّ جاء الزّمن الأخير ترقّى فيه الغرْب علمًا، فنظامًا، فقوّةً. وانضمَّ إلى ذلك

أولًا: قوة اجتماعه شعوبًا كبيرةً.

ثانيًا: قوَّة البارُود؛ حيث أبطل الشجاعة وجعل العبْرة للعدد.

ثالثًا: قوَّة كشفه أسرار الكيمياء والميكانيك.

رابعًا: قوَّة الفحم الذي أهدتْه له الطبيعة.

خامسًا: قوَّة النشاط بكسره قيود الاستبداد.

سادسًا: قوَّة الأمن على عقْد الشركات المالية الكبيرة.

فاجتمعت هذه القُوّات فيه وليس عند الشَّرق ما يقابلها غير الافتخار بالأسلاف، وذلك حجَّة عليه، والغرور بالدّين خلافًا للدّين، فالمسلمون يقابلون تلك القوات بما يُقال عند اليأس وهو: ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾، ويخالفون أمر القرآن لهم بأن يُعِدّوا ما استطاعوا من قوَّة، لا ما استطاعوا من صلاةٍ وصوم.

وكأني بسائلكم يقول: هل بعد اجتماع هذه القوات في الغرْب واستيلائه على أكثر الشَّرق من سبيل لنجاة البقية؟ فأجيب قاطعًا غير متردِّد: إنَّ الأمر مقدور ولعلَّه ميسور. ورأسُ الحكمة فيه كسْر قيود الاستبداد. وأنْ يكتب الناشئون على جباههم عشر كلمات، وهي:

١- ديني ما أُظهر وما أُخفي.

٢- أكون؛ حيثُ يكون الحقُّ ولا أبالي.

٣- أنا حرٌّ، وسأموت حرًّا.

٤- أنا مستقلٌّ لا أتّكل على غير نفسي وعقلي.

٥- أنا إنسان الجدّ والاستقبال، لا إنسان الماضي والحكايات.

٦- نفسي ومنفعتي قبل كلِّ شيء.

٧- الحياة كلُّها تعبٌ لذيذ.

٨- الوقت غالٍ عزيز.

٩- الشَّرف في العلم فقط.

١٠- أخاف الله لا سواه.

«وأنت أيها الوطن المحبوب: أنت العزيز على النفوس، المقدَّس في القلوب، إليك تحنُّ الأشباح وعليك تئنُّ الأرواح...

أيها الوطن الباكي ضِعافَه: عليك تبكي العيون، وفيك يحلو المَنُون. إلى متى يعبث خلالك اللئام الطّغام؟ يظلمون بَنِيك ويذلُّون ذَوِيك. يطاردون أنجالك الأحباب ويمسكون على المساكِين الطُّرق والأبواب، يُخربون العمران ويُقْفرون الدّيار؟.

أيها الوطن العزيز: هل ضاعت رحابك عن أولادك؟ أم ضاقت أحضانك عن أفلاذك؟... كلا؛ إنَّما فقدتَّ الأُباة، فقدتَّ الحُمَاة، فقدتَّ الأحرار. أيها الوطن المُلْتهب فؤاده: أما رَوِيتَ من سُقْيَا الدموع والدِّماء؟ ولكنْ؛ دموع بناتك الثاكلات ودماء أبنائك الأبرياء، لا دموع النادمين ولا دماء الظالمين. ألا فاشرب هنيئًا ولا تأسف على البُلْهِ الخاملين، ولا تحزن، فما هم كرائمَ وكرامًا، لسْنَ هنَّ كرائمًا باكيات مُحَمِّسات، وليسوا هم كرامًا أعزَّة شهداء، إنَّما هم -غفر الله لهم- مَنْ علمتَ، قلَّ فيهم الحرُّ الغيور، قلَّ فيهم من يقول أنا لا أخاف الظالمين.

أيها الوطن الحنون: كَوَّنَ الله عناصر أجسامنا منك، وجعل الأمهات حواضن، ورزقنا الغذاء منك، وجعل المرضعات مجهزات، نعم: خلَقنا الله منك فحقَّ لك أن تحبَّ أجزاءك وأن تحنَّ على أفلاذك. كما يحقّ لكفَّيْ شرْع الطبيعة أنْ لا تحبَّ الأجنبي الذي يأبى طبعه حبَّك، الذي يؤذيك ولا يواليك، ويزاحم بنِيك عليك ويشاركهم فيك، وينقل إلى أرضه ما في جوفك من نفيس العناصر وكنوز المعادن، فيفْقرك ليُغْنِي وطنه، ولا لوم عليه، بل بارك الله فيه!».

«يا قومُ: جعلكم الله خِيرة اليوم وعُدَّة الغد، هذا خطابي إليكم فيما هو الترقِّي وما هو الانحطاط، فإن وعيتم ولو شذرات، فيا بُشْرَاي والسلام عليكم، وإلا فيما ضياع الأنفْس، وعلى الرَّفاه[٢٩٤] السلام».

الاستبداد الذي يبلغ في الانحطاط بالأمَّة إلى غاية أن تموت، ويموت هو معها، كثير الشواهد في قديم الزمان وحديثه، أما بلوغ الترقّي بالأمم إلى المرتبة القصوى السّامية التي تليق بالإنسانية، فهذا لم يسمح الزمان حتَّى الآن بأُمَّةٍ تصلح مثالًا له، لأنَّه إلى الآن لم توجد أمَّة حكمت نفسها برأيها العام حُكمًا لا يشوبه نوع من الاستبداد ولو باسم الوقار والاحترام، أو بنوعٍ من الإغفال ولو ببذْر الشِّقاق الديني أو الجنسي بين الناس.

فكأنَّ الحكمة الإلهية لم تزل ترى البشر غير متأهِّلين لنوال سعادة الأخوة العمومية بالتحابب بين الأفراد، والقناعة بالمساواة الحقوقية بين الطبقات. نعم؛ وُجد للترقّي القريب من الكمال بعض أمثال قليلة في القرون الغابرة، كالجمهورية الثانية للرومان، وكعهد الخلفاء الراشدين، وكالأزمنة المتقطِّعة في عهد الملوك المنظّمين لا

---

(٢٩٤) هذا من الأخطاء اللغوية الشائعة، والصواب: «الرَّفاهة» أو «الرفاهية». انظر: «معجم الصواب اللغوي دليل المثقف العربي» [١/ ٤٠٧]. للأستاذ أحمد مختار عمر.

الفاتحين مثل أنوشروان وعبد الملك الأموي[٢٩٥] ونور الدين الشَّهيد، وبطرس الكبير[٢٩٦]. وكبعض الجمهوريات الصغيرة والممالك الموفَّقة لأحكام التقييد الموجودة في هذا الزَّمان. وإنّي أقتصر على وصف منتهى الترقّي الذي وصلت إليه تلك الأمم وصفًا إجماليًا، واترك للمطالِع أن يوازنها ويقيس عليها درجات سائر الأمم.

وربما يستريب في ذلك المطالع المولود في أرض الاستبداد، الذي لم يدرس أحوال الأمم في الوجود، ولا عتْب عليه فإنَّه كالمولود أعمى لا يُدرك للمناظر البهية معنى.

قد بلغ الترقّي في الاستقلال الشخصي في ظلال الحكومات العادلة، لأنْ يعيش الإنسان المعيشة التي تشبه في بعض الوجوه ما وعدتْه الأديان لأهل السعادة في الجنان. حتى إنَّ كلَّ فردٍ يعيش كأنه خالدٌ بقومه ووطنه، وكأنه أمينٌ على كلِّ مطلب، فلا هو يكلِّف الحكومة شططًا ولا هي تهمله استحقارًا:

---

(٢٩٥) هو عبد الملك بن مروان بن الحكم الأموي القرشي، أبو الوليد: (٢٦ - ٨٦ هـ = ٦٤٦ - ٧٠٥ م) من أعاظم الخلفاء ودهاتهم. نشأ في المدينة، فقيها واسع العلم، متعبدا، ناسكا. وشهد يوم الدار مع أبيه. واستعمله معاوية على المدينة وهو ابن ١٦ سنة. وانتقلت إليه الخلافة بموت أبيه (سنة ٦٥ هـ) فضبط أمورها وظهر بمظهر القوة، فكان جبارا على معانديه، قويّ الهيبة. انظر: «الأعلام» [٤/ ١٦٥] للزركلي.

(٢٩٦) هو بطرس الأكبر أو بيتر العظيم أو بيتر الأول أو بيوتر ألكسييفيتش رومانوف (١٦٧٢ - ١٧٢٥م.) حكم روسيا من عام ١٦٨٢م. خلَفًا لفيودر الثالث وحتى وفاته عام ١٧٢٥م. ويعتبر بيتر العظيم أحد أعظم من حكموا روسيا على مدار تاريخها. وقد قاد سياسة تحديث وسياسة التوسع التي حولت روسيا القيصرية إلى الإمبراطورية الروسية والتي باتت إحدى أهم القوى على مستوى أوروبا. وهو مؤسس مدينة «سانت بطرسبرغ» والتي مثَّلتْ عاصمةً لروسيا على مدَى أكثر من قرنين من تاريخها. له ترجمة حسنة على الموقع العالمي: (Wikipedia, the free encyclopedia) تحت عنوان: (Peter the Great).

١- أمينٌ على السلامة في جسمه وحياته بحراسة الحكومة التي لا تغفل عن محافظته بكلِّ قوتها في حضره وسفره بدون أن يشعر بثِقَل قيامها عليه، فهي تحيط به إحاطة الهواء، لا إحاطة السُّور يلطمه كيفما التفت أو سار.

٢- أمينٌ على الملذَّات الجِسْمية والفكرية باعتناء الحكومة في الشؤون العامة، المتعلِّقة بالترويضات الجسمية والنظرية والعقلية حتى يرى أنَّ الطرقات المسهلة، والتزيينات البلدية، والمتنزهات، والمنتديات، والمدارس، والمجامع، ونحو ذلك، قد وُجِدت كلُّها لأجل ملذّاته، ويعتبر مشاركة الناس له فيها لأجل إحسانه، فهو بهذا النظر والاعتبار لا ينقص عن أغنى الناس سعادةً.

٣- أمينٌ على الحرية، كأنَّه خُلِق وحده على سطح هذه الأرض، فلا يعارضه معارض فيما يخصُّ شخصه من دينٍ وفكرٍ وعملٍ وأمل.

٤- أمينٌ على النفوذ، كأنَّه سلطانٌ عزيز، فلا مانع له ولا معاكس في تنفيذ مقاصده النافعة في الأمة التي هو منها.

٥- أمينٌ على المَزيَّة، كأنَّه في أمَّةٍ يساوي جميع أفرادها منزلةً وشرفًا وقوةً، فلا يفضل هو على أحد ولا يفضل أحدٌ عليه، إلا بمزيّة سلطان الفضيلة فقط.

٦- أمينٌ على العدل، كأنَّه القابض على ميزان الحقوق، فلا يخاف تطفيفًا، وهو المُثمِّن فلا يحذر بخْسًا، وهو المطمئن على أنَّه إذا استحقَّ أن يكون مَلِكًا صار مَلِكًا، وإذا جنَى جنايةً نال جزاءه لا محالة.

٧- أمينٌ على المال والملك، كأنَّ ما أحرزه بوجهه المشروع قليلًا كان أو كثيرًا، قد خلقه الله لأجله فلا يخاف عليه، كما أنَّه تقْلَع عينه إنْ نظر إلى مال غيره.

٨- أمينٌ على الشف بضمان القانون، بنصرة الأمة، ببذْل الدم، فلا يرى تحقيرًا إلا لدى وجدانه، ولا يعرف طمعًا لمرارة الذُلِّ والهوان.

أما الأسير - ولا أُحْزِن المطالِع بوصْف حالته- فأكتفي بالقول: إنَّه لا يملك ولا نفسه، وغير أمينٍ حتى على عظامه في رمْسه، إذا وقع نظره على المُستبدِّ أو أحد

من جماعته على كثرتهم يتعوَّذ بالله، وإذا مرَّ من قُرْب إحدى دوائر حكومته أسرع وهو يكرر قوله: «حمايتك يا ربّ، إنَّ هذا الدار، بئس الدار، هي كالمجْزَرة كلُّ من فيها إما ذابح أو مذبوح. إنَّ هذه الدار كالكَنِيف لا يدخله إلا المضطر».

وقد يبلغ الترقّي في الاستقلال الشخصي مع التركيب بالعائلة والعشيرة، أن يعيش الإنسان معتبرًا نفسه من وجه غنيًا عن العالمين، ومن وجه عضوًا حقيقيًا من جسمٍ حيٍّ هو العائلة، ثمَّ الأمَّة، ثمَّ البَشر.

ويُنْظَر إلى انقسام البشر إلى أمم، ثم إلى عائلات، ثم إلى أفراد، وهو من قبيل انقسام الممالك إلى مدنٍ، وهي إلى بيوت، وهي إلى مرافق، وكما أنَّه لا بدَّ لكلِّ مرفقٍ من وظيفةٍ معينة يصلح لها وإلا كان بناؤه عبثًا يستحقُّ الهدم، كذلك أفراد الإنسان لا بدَّ أن يعدَّ كلٌّ منهم نفسه لوظيفة في قيام حياة عائلته أولًا، ثمَّ حياة قومه ثانيًا.

ولهذا يكون العضو الذي لا يصلح لوظيفة، أو لا يقوم بما يصلح له، حقيرًا مهانًا. وكلُّ من يريد أن يعيش كَلًا على غيره، لا عن عجْزٍ طبيعيٍّ، يستحقُّ الموت لا الشفقة، لأنهَّ كالدَّرَن في الجسم أو كالزائد من الظُّفُر يستحقان الإخراج والقطْع، ولهذا المعنى حرَّمت الشرائع السماوية الملاهي التي ليس فيها ترويض[٢٩٧]، والسُّكر المعطِّل عن العمل عقْلًا وجِسْمًا، والمقامرة والرِّبا لأنهما ليسا من نوع العمل والتبادل فيه. وقد فضَّل الله الكَنَّاس على الحجَّام وصانع الخبز على ناظم الشِّعر[٢٩٨]؛ لأنَّ صنعتهما أنْفع للجمهور.

---

(٢٩٧) هذا الإطلاق ليس بجيد، والترويض من الرياضة. يعني تنشيط النفس. أو ترْوِيحها. وهذا هو المراد من كلام المؤلف هنا. وليست تلك العلة هي التي يُناطُ بها تحريم الملاهي في الشريعة الإسلامية. بل كل ما لم تأت الشريعة بتحريمه مما يُطْلَق عليه «الملاهي» فهو مباح وإنْ لم يكن فيه للنفْس روَاحًا أو نشاطًا أو غير ذلك.

(٢٩٨) هذا التفضيل لا يغدو أن يكون نِسْبيًّا! فربما يكون الحجَّام أفضل من الكَنَّاس عند البعض، كما ربما يكون ناظم الشعر أفضل من صانع الخبز عند آخرين!

وقد يبلغ ترقّي التركيب في الأمم درجة أنْ يصير كلُّ فردٍ من الأمَّة مالكًا لنفسه تمامًا، ومملوكًا لقومه تمامًا. فالأمَّة التي يكون كلُّ فردٍ منها مستعدًا لافتدائها بروحه وبماله، تصير تلك الأمَّة بحجَّة هذا الاستعداد في الأفراد، غنيَّة عن أرواحهم وأموالهم.

الترقّي في القوة بالعلْم والمال يتميَّز على باقي أنواع الترقّيات السالفة البيان تميُّز الرأس على باقي أعضاء الجسم، فكما أنَّ الرأس بإحرازه مركزية العقل، ومركزية أكثر الحواس، تميّز على باقي الأعضاء واستخدمها في حاجاته، فكذلك الحكومات المنتظم يترقّى أفرادها ومجموعها في العلم والثروة، فيكون لهم سلطانٌ طبيعي على الأفراد أو الأمم التي انحطَّ بها الاستبداد المشؤوم إلى حضيض الجهل والفقر.

بقِيَ علينا بحْث الترقّي في الكمالات بالخِصال والأثرة، وبحْث الترقّي الذي يتعلق بالروح؛ أي بما وراء هذه الحياة، ويرقَى إليه الإنسان على سُلَّم الرَّحمة والحسنات، فهذه أبحاث طويلة الذيل، ومنابعها حِكْميات الكتب السماوية ومُدوِّنات الأخلاق، وتراجم مشاهير الأُمَم.

وأكتفي بالقول في هذا النوع: إنَّه يبلغ بالإنسان مرتبة أن لا يرى لحياته أهمية إلا بعد درجات، فيهُّمه أملًا: حياة أمِّه، ثمَّ امتلاك حريته، ثمَّ أمْنه على شرَفه، ثمَّ محافظته على عائلته، ثمَّ وقايته حياته، ثمَّ ماله، ثمَّ، وثمَّ... وقد تشمل إحساساته عالم الإنسانية كلِّه، كأنَّ قومه البشر لا قبيلته، ووطنه الأرض لا بلده، ومسكنه؛ حيث يجد راحته، لا يتقيَّد بجدْران بيت مخصوص يستتر فيه ويفتخر به كما هو شأن الأُسَراء.

وقد يترفَّع الإنسان عن الإمَارة لما فيها من معنَى الكِبْر، وعن التِّجارة لِمَا فيها من التمويه والتبذُّل، فيرى الشرف في المحْراث، ثمَّ المطْرَقة، ثمَّ القلم، ويرى اللذَّة في التجديد والاختراع، لا في المحافظة على العتيق، كأنَّ له وظيفة في تَرَقِّي مجموع البشر.

وخلاصة القول: إنَّ الأمم التي يُسعدها جدُّها لتبديد استبدادها، تنال من الشَّرف الحِسِّي والمعنوي ما لا يخطر على فكر أُسَراء الاستبداد. فهذه بلجيكا أبطلت التكاليف الأميرية برُمَّتها، مكتفيةً في نفقاتها بنماء فوائد بنك الحكومة[٢٩٩].

وهذه سويسرا يصادفها كثيرًا أن لا يوجد في سجونها محبوسٌ واحد. وهذه أمريكا أثْرتْ[٣٠٠] حتى كادت تُخْرِج الفضة من مقام النقْد إلى مقام المتاع. وهذه اليابان أصبحت تستنزف قناطير الذهب من أوربا وأمريكا ثمن امتيازات اختراعاتها وطبْع تراجم مؤلَّفاتها.

وقد تنال تلك الأمم حظًّا من الملذَّات الحقيقية، التي لا تخطر على فكر الأُسَراء، كلذَّة العلم وتعليمه، ولذَّة المجد والحماية، ولذَّة الإثراء والبذل، ولذَّة إحراز الاحترام في القلوب، ولذَّة نفوذ الرأي الصائب، ولذَّة الحبِّ الطاهر، إلى غير هذه الملذَّات الروحية. وأمَّا الأُسَراء والجهلاء فملذَّاتهم مقصورة على مشاركة الوحوش الضارية في المطاعم والمشارب واستفراغ الشهوة، كأنَّ أجسامهم ظُرُوف[٣٠١] تُمْلَأ وتُفرَّغ، أو هي دمامل تُولِّد الصديد وتدفعه.

وأنفع ما بلغه الترقّي في البشر؛ هو إحكامهم أصول الحكومات المنتظمة ببنائهم سَدًّا متينًا في وجه الاستبداد، والاستبداد جرثومة كلِّ فساد، وبجعلهم ألاّ قوة ولا نفوذ فوق قوة الشَّرع، والشَّرع هو حبل الله المتين. وبجعلهم قوَّة التشريع في يد الأمَّة، والأمَّة لا تجتمع على ضلال. وبجعلهم المحاكم تحاكم السُّلطان والصُّعلوك على السَّواء، فتحاكي في عدالتها الكبرى الإلهية. وبجعلهم العمال لا

---

(٢٩٩) قال الأستاذ محمد جمال الطحان في تعليقه على «طبائع الاستبداد»: « في الواقع أنَّ بلجيكا كانت في ذلك الوقت دولة استعمارية، وما كان يقوله الكواكبي إلا بسبب نهبها ثروات بلاد الكونغو الغنية بالمعادن والمحاصيل».

(٣٠٠) أي صارت ثريَّة غنية.

(٣٠١) أي: أوعية.

سبيل لهم على تعدّي حدود وظائفهم، كأنهم ملائكة لا يعصون أمرًا، وبجعلهم الأمّة يقظة ساهرة على مراقبة سير حكومتها، لا تغفل طرفة عين، كما أنَّ الله -عزَّ وجلّ- لا يغفل عمَّا يفعل الظالمون.

هذا مبلغ الترقّي الذي وصلت إليه الأمم منذ عُرِفَ التاريخ، على أنَّه لم يقم دليل إلى الآن على ترقّي البشر في السعادة الحيوية عمّا كانوا عليه في العصور الخالية حتى الحجَرية، حتّى منذ كانوا عُراةً يسْرحون أسْرابًا، والآثار المشهودة لا تدلُّ على أكثر من ترقّي العلم والعمران؛ وهما آلتان كما يصلحان للإسعاد، يصلحان للإشقاء، وترقّيها هو من سُنَّة الكون التي أرادها الله تعالى لهذه الأرض وبنيها، ووصف لنا ما سيبلغ إليه ترقّي زينتها واقتدار أهلها بقوله عزَّ شأنه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ﴾ (٣٠٢).

وهذا يدلُّ على أنَّ الدنيا وبَنِيها لم يزالا في مقتبل الترقّي، ولا يعارض هذا أنَّ ما مضى من عمرها هو أكثر مما بقي حسبما أخبرتْ به الكتب السماوية، لأنَّ العمر شيء، والترقّي شيءٌ آخر.

---

(٣٠٢) يونس: ٢٤.

الاستبداد والتخلُّص منه

ليس لنا مدرسة أعظم من التاريخ الطبيعي، ولا برهان أقوى من الاستقراء، من تتبَّعهما يرى أنَّ الإنسان عاش دهرًا طويلًا في حالة طبيعية تسمَّى «دور الافتراس»، فكان يتجوَّل حول المياه أسْرابًا تجمعه حاجة الحضانة صغيرًا، وقصد الاستئناس كبيرًا، ويعتمد في رزقه على النبات الطبيعي وافتراس ضعاف الحيوان في البرِّ والبحر، وتسوسه الإرادة فقط، ويقوده مَنْ بِنْيته أقوى إلى حيثُ يكثر الرزق.

ثم ترقَّى الكثير من الإنسان إلى الحالة البدوية التي تسمّى «دور الاقتناء»: فكان عشائر وقبائل، يعتمد في رزقه على ادِّخار الفرائس إلى حين الحاجة، فصارت تجمعه حاجة التحفُّظ على المال العام والأنعام، وحماية المستودعات والمراعي والمياه من المزاحمين، ثمَّ انتقل -ولا يُقال ترقَّى- قِسْم كبير من الإنسان إلى المعيشة الحضرية: فسكن القرى يستنبت الأرض الخصْبة في معاشه، فأخصب، ولكن في الشقاء، ولعلَّه استحقَّ ذلك بفعله؛ لأنَّه تعدَّى قانون الخالق، فإنَّه خلقه حرًّا جوَّالًا، يسير في الأرض، ينظر آلاء الله، فسكنَ، وسكن إلى الجهل والذُّلّ، وخلق الله الأرض مباحةً، فاستأثر بها، فسلَّط الله عليه من يغصبها منه ويأسره. وهذا القسم يعيش بلا جامعة، تحكمه أهواء أهل المدن وقانونه: أن يكون ظالمًا أو مظلومًا.

ثمَّ ترقّى قسم من الإنسان إلى التصرُّف إمّا في المادة وهم الصُّنَّاع، وإمَّا في النظريات وهم أهل المعارف والعلوم. وهؤلاء المتصرِّفون هم سُكَّان المدن الذين هم إنْ سجنوا أجسامهم بين الجدران، لكنهم أطلقوا عقولهم في الأكوان، وهم قد توسَّعوا في الرِّزق كما توسَّعوا في الحاجات، ولكنَّ أكثرهم لم يهتدوا حتى الآن للطريق المثلى في سياسة الجمعيات الكبرى. وهذا هو سبب تنوُّع أشكال الحكومات

وعدم استقرار أمَّةٍ على شكل مُرضٍ عام. إنَّما كلُّ الأمم في تقلُّباتٍ سياسية على سبيل التجريب، وبحسب تغلُّب أحزاب الاجتهاد أو رجال الاستبداد.

وتقرير شكل الحكومة هو أعظم وأقدم مشكلة في البشر، وهو المُعْتَرَك الأكبر لأفكار الباحثين، والميدان الذي قلَّ في البشر من لا يجول فيه على فِيل من الفكر، أو على جَمَلٍ من الجهل، أو على فرسٍ من الفراسة، أو على حمارٍ من الحُمْق، حتى جاء الزمن الأخير فجال فيه إنسان الغرْب جوْلة المغوار الممتطي في التدقيق مراكب البخار. فقرر بعض قواعد أساسية في هذا الباب تضافر عليها العقل والتجريب، وحصْحص فيها الحقّ اليقين، فصارت تُعَدُّ من المقررات الاجتماعية عند الأمم المترقية، ولا يعارض ذلك كون الأمم لم تزل أيضًا منقسمة إلى أحزاب سياسية يختلفون شيعًا؛ لأنَّ اختلافهم هو في وجوه تطبيق تلك القواعد وفروعها على أحوالهم الخصوصية.

وهذه القواعد التي قد صارت قضايا بديهية في الغرْب، لم تزل مجهولة أو غريبة، أو منفورًا منها في الشرق؛ لأنَّها عند الأكثرين منهم لم تَطْرُق سمعهم، وعند البعض لم تنل التفاتهم وتدقيقهم، وعند آخرين لم تَحُزْ قبولًا؛ لأنَّهم ذوو غرض، أو مسروقة قلوبهم، أو في قلوبهم مرض.

وإنّي أطرح لتدقيق المطالعين رؤوس مسائل بعض المباحث التي تتعلَّق بها الحياة السياسية. وقبل ذلك أُذكِّرهم بأنَّه قد سبق في تعريف الاستبداد بأنَّه: «هو الحكومة التي لا يوجد بينها وبين الأمَّة رابطة معينة معلومة مصونة بقانون نافذ الحكم». كما أستلْفِت نظرهم إلى أنَّه لا يوثق بوعد من يتولى السُّلطة أيًا كان، ولا بعهده ويمينه على مراعاة الدين، والتقوى، والحق، والشرف، والعدالة، ومقتضيات المصلحة العامة، وأمثال ذلك من القضايا الكلية المبهمة التي تدور على

لسان كلِّ برٍّ وفاجر. وما هي في الحقيقة إلا كلامٌ مُبْهم فارغ؛ لأنَّ المجرم لا يعدم تأويلًا؛ ولأنَّ من طبيعة القوة الاعتساف؛ ولأنَّ القوة لا تُقابل إلا بالقوة.

ثمَّ فلنرجع للمباحث التي أريد طرحها لتدقيق المطالعين، وهي:

١- مبحث ما هي الأمَّة؛ أي الشَّعب:

هل هي رُكامُ مخلوقاتٍ نامية، أو جمعية، عبيدٌ لمالكٍ مُتغلِّب، وظيفتهم الطاعة والانقياد ولو كُرْهًا؟ أم هي جمعٌ بينهم روابط دين أو جنس أو لغة، ووطن، وحقوق مشتركة، وجامعة سياسية اختيارية، لكلِّ فردٍ حقُّ إشهار رأيه فيها توفيقًا للقاعدة الإسلامية التي هي أسمى وأبلغ قاعدة سياسية، وهي: «كلُّكم راعٍ، وكلُّكم مسؤولٌ عن رعيَّته».

٢- مبْحث ما هي الحكومة:

هل هي سلطة امتلاك فرد لجمع، يتصرَّف في رقابهم، ويتمتَّع بأعمالهم ويفعل بإرادته ما يشاء؟ أم هي وكالة تُقام بإرادة الأمَّة لأجل إدارة شؤونها المشتركة العمومية؟.

٣- مبْحث ما هي الحقوق العمومية:

هل هي آحاد الملوك، ولكنها تُضاف للأمم مجازًا؟ أم بالعكس، هي حقوق جُموع الأمم، وتُضاف للملوك مجازًا، ولهم عليها ولاية الأمانة والنِّظَارة[٣٠٣] على مثل الأراضي والمعادن، والأنهر والسواحل، والقلاع والمعابد، والأساطيل والمعدات، وولاية الحدود، والحراسة على مثل الأمن العام، والعدل والنظام، وحفظ وصيانة الدين والآداب، والقوانين والمعاهدات والاتِّجار، إلى غير ذلك مما يحقُّ لكلِّ فردٍ من الأمَّة أن يتمتع به وأنْ يطمئن عليه؟

---

(٣٠٣) النِّظَارَةُ: هي الفراسة والحِذْق وحِرْفة النَّاظر. والمراد هنا: الرعاية والقيام بالأمر. انظر: «المعجم الوسيط» [٢/ ٩٣٢].

٤- مبحث التساوي في الحقوق:

هل للحكومة التصّرف في الحقوق العامة المادية والأدبية كما تشاء بذْلًا وحرمانًا؟ أم تكون الحقوق محفوظة للجميع على التساوي والشيوع، وتكون المغانم والمغارم العمومية مُوزَّعة على الفصائل والبلدان والصنوف والأديان بنسبةٍ عادلة، ويكون الأفراد متساوين في حقِّ الاستنصاف؟

٥- مبحث الحقوق الشخصية:

هل الحكومة تملك السيطرة على الأعمال والأفكار؟ أم أفراد الأمة أحرار في الفكر مطلقًا، وفي الفعل ما لم يخالف القانون الاجتماعي؛ لأنَّهم أدْرَى بمنافعهم الشخصية، والحكومة لا تتداخل إلا في الشؤون العمومية؟

٦- مبحث نوعية الحكومة:

هل الأصلح هي الملكية المطلقة من كلِّ زمام؟ أم الملكية المقيَّدة؟ وما هي القيود؟ أم الرئاسة الانتخابية الدائمة مع الحياة، أو المؤقَّتة إلى أجل؟ وهل تُنال الحاكمية [٣٠٤] بالوراثة، أو العهد، أو الغلَبة؟ وهل يكون ذلك كما تشاء الصُّدفة، أم مع وجود شرائط الكفاءة، وما هي تلك الشرائط؟ وكيف يصير تحقيق وجودها؟ وكيف يراقب استمرارها؟ وكيف تستمرُّ المراقبة عليها؟.

٧- مبحث ما هي وظائف الحكومة:

هل هي إدارة شؤون الأمة حسب الرأي والاجتهاد؟ أم تكون مقيَّدة بقانون موافق لرغائب الأمة وإنْ خالف الأصلح؟ وإذا اختلفت الحكومة مع الأمَّة في اعتبار الصالح والمضرّ، فهل على الحكومة أن تعتزل الوظيفة؟

---

(٣٠٤) الحاكميَّة: مصدر صِنَاعيّ مِن حاكم. وهي منصب الحاكم أو وظيفته أو لقبُه الوظيفيّ. انظر: «معجم اللغة العربية المعاصرة» [ص/ ٩٨٩] للأستاذ أحمد مختار عمر.

٨- مبحث حقوق الحاكمية :

هل للحكومة أن تُخصِّص بنفسها لنفسها ما تشاء من مراتب العظمة، ورواتب المال، وتحابي من تريد بما تشاء من حقوق الأمة وأموالها؟ أم يكون التَّصرف في ذلك كلِّه إعطاءً وتحديدًا ومنعًا منوطًا بالأمة؟

٩- مبحث طاعة الأمة للحكومة :

هل الإرادة للأمَّة، وعلى الحكومة العمل؟ أم للإرادة للحكومة وعلى الأمَّة الطاعة؟ وهل للحكومة تكليف الأمَّة طاعةً عمياء بلا فهم ولا اقتناع؟ أم عليها الاعتناء بوسائل التفهيم والإذعان لتتأتَّى الطاعة بإخلاص وأمانة؟

١٠- مبحث توزيع التكليفات :

هل يكون وضع الضرائب مفوَّضًا لرأي الحكومة؟ أم الأمَّة تُقرِّر النفقات اللازمة وتعيِّن موارد المال، وتُرتِّب طرائق جبايته وحفظه؟.

١١- مبحث إعداد المَنَعة :

هل يكون إعداد القوة بالتجنيد والتسليح استعدادًا للدفاع مُفوضًا لإرادة الحكومة إهمالًا، أو إقلالًا، أو إكثارًا، أو استعمالًا على قهر الأمَّة؟ أم يلزم أن يكون ذلك برأي الأمَّة وتحت أمرها؛ بحيث تكون القوة منفِّذة رغبة الأمة لا رغبة الحكومة؟

١٢- مبحث المراقبة على الحكومة :

هل تكون الحكومة لا تُسأل عما تفعل؟ أم يكون للأمة حقُّ السيطرة عليها؛ لأنَّ الشأن شأنها، فلها أن تُنبت عنها وكلاء لهم حقُّ الاطِّلاع على كلِّ شيء، وتوجيه المسؤولية على أيٍّ كان، ويكون أهم وظائف النواب حفظ الحقوق الأساسية المقررة للأمة على الحكومة؟

١٣- مبحث حفظ الأمن العام:

هل يكون الشخص مُكلَّفًا بحراسة نفسه ومتعلَّقاته؟ أم تكون الحكومة مكلَّفة بحراسته مقيمًا ومسافرًا حتى من بعض طوارئ الطبيعة بالحيلولة لا بالمجازاة والتعويض؟

١٤- مبحث حفظ السُّلطة في القانون:

هل يكون للحكومة إيقاع عمل إكراهي على الأفراد برأيها؛ أي بدون الوسائط القانونية؟ أم تكون السُّلطة منحصرة في القانون، إلا في ظروف مخصوصة ومؤقَّتة؟

١٥- مبحث تأمين العدالة القضائية:

هل يكون العدل ما تراه الحكومة؟ أم ما يراه القضاة المصون وجْدانهم من كلِّ مؤثِّر غير الشرع والحق، ومن كلِّ ضغطٍ حتى ضغط الرأي العام؟

١٦- مبحث حِفْظ الدين والآداب:

هل يكون للحكومة -ولو القضائية- سلطة وسيطرة على العقائد والضمائر؟ أم تقتصر وظيفتها في حفظ الجامعات الكبرى كالدين، والجنسية، واللغة، والعادات، والآداب العمومية على استعمال الحكمة ما أغنت الزواجر، ولا تتداخل الحكومة في أمر الدين ما لم تُنتَهَك حرمته؟ وهل السياسة الإسلامية سياسة دينية؟ أم كان ذلك في مبدأ ظهور الإسلام، كالإدارة العُرْفِية عقِب الفتْح[٣٠٥]؟

١٧- مبحث تعيين الأعمال بالقوانين:

هل يكون في الحكومة -من الحاكم إلى البوليس- من يُطلَق له عنَان التَّصرف برأيه وخبرته؟ أم يلزم تعيين الوظائف، كُلِّيّاتها وجزئياتها، بقوانين صريحة واضحة، لا تُسوِّغ مخالفتها ولو لمصلحة مهمة، إلا في حالات الخطر الكبير؟

---

(٣٠٥) يقصد: فتح مكة.

١٨- مبحث كيف توضع القوانين:

هل يكون وضعها منوطًا برأي الحاكم الأكبر، أو رأي جماعة ينتخبهم لذلك؟ أم يضع القوانين جمعٌ منتخبٌ من قبل الكافّة ليكونوا عارفين حتمًا بحاجات قومهم وما يُلائم طبائعهم ومواقعهم وصوالحهم، ويكون حُكْمه عامًا أو مختلفًا على حسب تخالف العناصر والطبائع وتغير الموجبات والأزمان؟

١٩- مبحث ما هو القانون وقوَّته:

هل القانون هو أحكام يحتجُّ بها القوي على الضعيف؟ أم هو أحكام منتزعة من روابط الناس بعضهم ببعض، وملاحظٌ فيها طبائع أكثرية الأفراد، ومن نصوص خالية من الإبهام والتعقيد وحكمها شامل كلّ الطبقات، ولها سلطان نافذ قاهر مصون من مؤثّرات الأغراض، والشفاعة، والشفقة، وبذلك يكون القانون هو القانون الطبيعي للأمَّة فيكون محترمًا عند الكافّة، مضمون الحماية من قِبَل أفراد الأمة؟

٢٠- مبحث توزيع الأعمال والوظائف:

هل يكون الحظُّ في ذلك مخصوصًا بأقارب الحاكم وعشيرته ومُقرَّبيه؟ أم توزَّع كتوزيع الحقوق العامَّة على كافَّة القبائل والفصائل، ولو مناوبة مع ملاحظات الأهمية والعدد؛ بحيث يكون رجال الحكومة أُنْمُوذجًا من الأمَّة، أو هم الأمَّة مصغَّرة، وعلى الحكومة إيجاد الكفاءة والأعداد ولو بالتعليم الإجباري؟

٢١- مبحث التفريق بين السُّلطات السياسية والدينية والتعليم:

هل يُجْمَع بين سلطتين أو ثلاث في شخصٍ واحد؟ أم تُخصَّص كلُّ وظيفة من السياسة والدين والتعليم بمن يقوم بإتقان، ولا إتقان إلا بالاختصاص، وفي

الاختصاص، كما جاء في الحكمة القرآنية: ﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ ﴾[٣٠٦]، ولذلك لا يجوز الجمْع منعًا لاستفحال السلطة[٣٠٧].

٢٢- مبحث الترقّي في العلوم والمعارف:

هل يُترَك للحكومة صلاحية الضَّغط على العقول كي يقوَى نفوذ الأمَّة عليها؟ أم تُحمل على توسيع المعارف بجعل التعليم الابتدائي عموميًا بالتشويق والإجبار، وبجعل الكمالي سهلًا للمتناول، وجعل التعليم والتعلُّم حرًّا مطلقًا؟

٢٣- مبحث التوسُّع في الزراعة والصنائع والتجارة:

هل يُترك ذلك للنشاط المفقود في الأمَّة؟ أم تلزم الحكومة بالاجتهاد في تسهيل مضاهاة الأمم السَّائرة، ولا سيما المزاحمة والمجاورة، كيلا تهلك الأمَّة بالحاجة لغيرها أو تضْعف بالفقر؟

٢٤- مبحث السَّعي في العمران:

هل يُترك ذلك لإهمال الحكومة المميت لِعزَّة نفس السُّكان، أو لانهماكها فيه إسرافًا وتبذيرًا؟ أم تحمل على اتِّباع الاعتدال المتناسب مع الثورة العمومية؟

٢٥- مبحث السَّعي في رفع الاستبداد:

هل يُنتظر ذلك من الحكومة ذاتها؟ أم نَوَال الحرية ورفْع الاستبداد رفْعًا لا يترك مجالًا لعودته، من وظيفة عقَلاء الأمة وسَراتها[٣٠٨]؟

---

(٣٠٦) الأحزاب: ٤.

(٣٠٧) هذه الفقرة تعلّق بها جماعة من الباحثين على إثبات «عَلْمانية الكواكبي»! وعلى رأسهم الباحث اللبناني «جان داية» في كتابه «الإمام الكواكبي .. فصل الدين عن الدولة». وجعلها دليلا قويًا على ذلك. وقد تعقبه في ذلك الباحث الإسلامي محمد عمارة.

(٣٠٨) يعني: أشرافها وسادتها.

هذه خمسة وعشرون مبحثًا، كلٌّ منها يحتاج إلى تدقيقٍ عميق، وتفصيلٍ طويل، وتطبيق على كلِّ الأحوال والمقتضيات الخصوصية. وقد ذكرتُ هذه المباحث تذكرةً للكُتَّاب ذوي الألباب وتنشيطًا للنُّجباء على الخوض فيها بترتيب، اتِّباعًا لحكمة إتيان البيوت من أبوابها.

وإني أقتصر على بعض الكلام فيما يتعلق بالمبحث الأخير منها فقط؛ أعني مبحث السَّعْي في رفع الاستبداد، فأقول:

١- الأمَّة التي لا يشْعُر كلُّها أو أكثرها بآلام الاستبداد لا تستحقُّ الحريّة.

٢- الاستبداد لا يُقاوَم بالشِّدة إنما يُقاوم باللِّين والتدرُّج.

٣- يجب قبل مقاومة الاستبداد، تهيئة ما يُستَبدَل به الاستبداد.

هذه قواعد رفع الاستبداد، وهي قواعد تُبْعِد آمال الأُسَراء، وتَسُرُّ المُستبدّين؛ لأنَّ ظاهرها يؤمنِّهم على استبدادهم. ولهذا أُذكِّر المستبدّين بما أنذَرَهم الفياري[٣٠٩] المشهور؛ حيثُ قال: «لا يفرحنَّ المستبدُّ بعظيم قوَّته ومزيد احتياطه، فكم جبّارٍ عنيدٍ جُنِّد له مظلومٌ صغير»، وإني أقول: كم من جبّار قهّار أخذَه الله أخذ عزيزٍ منتقم.

مبنى قاعدة كون الأمَّة التي لا يشعر أكثرها بآلام الاستبداد لا تستحقُّ الحريّة هو:

إنَّ الأمَّة إذا ضُرِبَتْ عليها الذِّلَّة والمَسْكَنة، وتوالتْ على ذلك القرون والبطون، تصير تلك الأمَّة سافلة الطِّباع حسبما سبق تفصيله في الأبحاث السَّالفة، حتى إنَّها

---

(٣٠٩) يقصد الكونت ڤيتوريو ألفييري (عاش ١٦ يناير ١٧٤٩ - ٨ أكتوبر ١٨٠٣م). كان كاتب دراما إيطاليًّا، يُعتبر «مؤسس التراجيديا الإيطالية». كان كثير التنديد بالاستبداد، والإشادة بالثورة الفرنسية، مع النفور من شططها، والصيحة بالمطالبة بتحرير إيطاليا. وله ترجمة حسنة في الموقع العالمي: (Wikipedia, the free encyclopedia) تحت عنوان: (Vittorio Alfieri)

تصير كالبهائم، أو دون البهائم، لا تسأل عن الحرية، ولا تلتمس العدالة، ولا تعرف للاستقلال قيمة، أو للنظام مزية، ولا ترى لها في الحياة وظيفة غير التابعية للغالب عليها، أحسنَ أو أساء على حدٍّ سواء، وقد تنقم على المستبدِّ نادرًا، ولكنْ، طلبًا للانتقام من شخصه لا طلبًا للخلاص من الاستبداد، فلا تستفيد شيئًا، إنما تستبْدَل مرضًا بمرض؛ كمَغَصٍ بصُداع.

وقد تقاوم المستبدَّ بِسَوقِ مستبدٍّ آخر تتوسَّم فيه أنَّه أقوى شوكةً من المستبدِّ الأول، فإذا نجحت لا يغسل هذا السائق يديه إلا بماء الاستبداد، فلا تستفيد أيضًا شيئًا، إنما تستبدل مرضًا مزمنًا بمرض حديث، وربما تُنال الحرية عفوًا، فكذلك لا تستفيد منها شيئًا؛ لأنَّها لا تعرف طعمها، فلا تهتمُّ بحفظها، فلا تلبث الحرية أن تنقلب إلى فوضى، وهي إلى استبدادٍ مُشوَّش أشدُّ وطأةً كالمريض إذا انتكس.

ولهذا قرَّر الحكماء أنَّ الحرية التي تنفع الأمَّة هي التي تحصل عليها بعد الاستعداد لقبولها، وأمَّا التي تحصل على أثَر ثورةٍ حمقاء فقلّما تفيد شيئًا؛ لأنَّ الثورة -غالبًا- تكتفي بقطع شجرة الاستبداد ولا تقتلع جذورها، فلا تلبث أن تنْبت وتنمو وتعود أقوى مما كانت أولًا.

فإذا وُجِدَ في الأمَّة الميِّتة مَنْ تدفعه شهامته للأخذ بيدها والنهوض بها فعليه أولًا: أن يبثَّ فيها الحياة وهي العلْم؛ أي علْمها بأنَّ حالتها سيئة، وإنَّما بالإمكان تبديلها بخيرٍ منها، فإذا هي علمت بطبْعه من الآحاد إلى العشرات، إلى إلى...، حتى يشمل أكثر الأمَّة، وينتهي بالتحمُّس ويبلغ بلسان حالها إلى منزلة قول الحكيم المَعَرِّي[٣١٠]:

---

(٣١٠) هو أحمد بن عبد الله بن سليمان، التنوخيّ أبو العلاء المعري (٣٦٣ - ٤٤٩ هـ = ٩٧٣ - ١٠٥٧ م) شاعر فيلسوف. ولد ومات في مَعرَّة النعمان. كان نحيف الجسم، أصيب بالجُدَريّ صغيرا فعمِيَ في السنة الرابعة من عمره. كان يُحرِّم إيلام الحيوان، ولم يأكل اللحم خمسًا وأربعين سنة. وكان يلبس خشن الثياب. انظر: «الأعلام» [١/ ١٥٧] للزركلي.

إذا لم تقُم بالعدل فينا حكومةٌ فنحن على تغييرها قُدَراء

وهكذا ينقذف فِكْرُ الأمَّة في وادٍ ظاهر الحكمة يسير كالسيْل، لا يرجع حتى يبلغ مُنتهاه.

ثمَّ إنَّ الأمم الميتة لا ينْدُر فيها ذو الشَّهامة، إنما الأسف أنْ يندر فيها من يهتدي في أوَّل نشأته إلى الطريق الذي به يحصل على المكانة التي تمكِّنه في مستقبله من نفوذ رأيه في قومه. وإنِّي أنبِّه فِكْر الناشئة العزيزة أنَّ من يرى منهم في نفسه استعدادًا للمجد الحقيقي فليحرص على الوصايا الآتية البيان:

١- أن يجْهد في ترقية معارفه مطلقًا لا سيما في العلوم النّافعة الاجتماعية كالحقوق والسياسة والاقتصاد والفلسفة العقلية، وتاريخ قومه الجغرافي والطبيعي والسياسي، والإدارة الحربية، فيكتسب من أصول وفروع هذه الفنون ما يمكنه إحرازه بالتلقِّي، وإنْ تعذَّر فبالمطالعة مع التدقيق.

٢- أن يُتْقِن أحد العلوم التي تكسبه في قومه موقعًا محترمًا وعلْميًا مخصوصًا؛ كعلم الدين والحقوق أو الإنشاء أو الطبّ.

٣- أن يحافظ على آداب وعادات قومه غاية المحافظة ولو أنَّ فيها بعض أشياء سخيفة.

٤- أن يُقلِّل اختلاطه مع الناس حتى رفقائه في المدرسة، وذلك حفظًا للوقار وتحفُّظًا من الارتباط القوي مع أحد كيلا يسقط تبعًا لسقوط صاحبٍ له.

٥- أن يتجنَّب كليًّا مصاحبة الممقوت عند الناس لا سيما الحُكّام ولو كان ذلك المقت بغير حقّ.

٦- أن يجتهد ما أمكنه في كتم مزيّته العلمية على الذين هم دونه في ذلك العلم لأجل أن يأمن غوائل حسدهم، إنما عليه أن يظهر مزيّته لبعض من هم فوقه بدرجاتٍ كثيرة.

٧- أن يتخيَّر له بعض من ينتمي إليه من الطبقة العُلْيا، بشرط: أنْ لا يُكثر التردد عليه، ولا يشاركه شؤونه، ولا يظهر له الحاجة، ويتكتَّم في نسبته إليه.

٨- أن يحرص على الإقلال من بيان آرائه وإلا يؤخذ عليه تَبِعة رأي يراه أو خبرٍ يرويه.

٩- أن يحرص على أن يُعرف بحُسْن الأخلاق، لا سيما الصِّدْق والأمانة والثبات على المبادئ.

١٠- أن يُظْهر الشفقة على الضعفاء والغَيْرة على الدين والعلاقة بالوطن.

١١- أن يتباعد ما أمكنه من مقاربة المستبِّد وأعوانه إلا بمقدار ما يأمن به فظائع شرِّهم إذا كان معرَّضًا لذلك.

فمن يبلغ سنَّ الثلاثين فما فوق حائزًا على الصفات المذكورة، يكون قد أعدَّ نفسه على أكمل وجه لإحراز ثقة قومه عندما يريد في بُرْهة قليلة، وبهذه الثِّقة يفعل ما لا تقوى عليه الجيوش والكنوز. وما ينقصه من هذه الصِّفات يُنقص من مكانته، ولكنْ؛ قد يستغني بمزيد كمال بعضها عن فقدان بعضها الآخر أو نقصه. كما أنَّ الصِّفات الأخلاقية قد تكفي في بعض الظروف عن الصفات العلمية كلّها ولا عكس، وإذا كان المتصدّي للإرشاد السياسي فاقد الثِّقة فقدانًا أصليًا أو طارئًا، يمكنه أن يستعمل غيره ممن تنقصه الجسارة والهمّة والصفات العلمية.

والخلاصة: أنَّ الراغب في نهضة قومه، عليه أن يهيئ نفسه ويزِن استعداده، ثمَّ يعزم متوكِّلًا على الله في خلق النَّجاح.

ومبنى قاعدة أنَّ الاستبداد لا يُقاوم بالشدة، إنما يُقاوم بالحكمة والتدريج هو: أنَّ الوسيلة الوحيدة الفعّالة لقطع دابر الاستبداد هي تَرقِّي الأمَّة في الإدراك والإحساس، وهذا لا يتأتى إلا بالتعليم والتحميس. ثمَّ إنَّ اقتناع الفكر العام

وإذعانه إلى غير مألوفه، لا يتأتّى إلا في زمنٍ طويل، لأنَّ العوام مهما ترقّوا في الإدراك لا يسمحون باستبدال القشعريرة بالعافية إلا بعد التّروي المديد، وربما كانوا معذورين في عدم الوثوق والمسارعة؛ لأنَّهم أُلِفوا أن لا يتوقعوا من الرؤساء والدُّعاة إلا الغشّ والخداع غالبًا. ولهذا كثيرًا ما يحبُّ الأُسَراء المستبدَّ الأعظم إذا كان يقهر معهم بالسوية الرؤساء والأشراف، وكثيرًا ما ينتقم الأُسَراء من الأعوان فقط ولا يمسُّون المستبدَّ بسوء؛ لأنَّهم يرون ظالمهم مباشرةً هم الأعوان دون المستبدِّ، وكم أحرقوا من عاصمة لأجل محْض التشفّي بإضرار أولئك الأعوان.

ثمَّ إنَّ الاستبداد محفوفٌ بأنواع القُوات التي فيها قوّة الإرهاب بالعظمة وقوّة الجُنْد، لا سيما إذا كان الجند غريب الجنس، وقوة المال، وقوة الإلفة على القسوة، وقوّة رجال الدين، وقوّة أهل الثروات، وقوّة الأنصار من الأجانب، فهذه القوات تجعل الاستبداد كالسيف لا يُقابَل بعصا الفكر العام الذي هو في أوَّل نشأته يكون أشبه بغوغاء، ومِن طبْع الفكر العام أنَّه إذا فارَ في سنة يغور في سنة، وإذا فار في يوم يغور في يوم. بناءً عليه؛ يلزم لمقاومة تلك القوات الهائلة مقابلتها بما يفعله الثبات والعناد المصحوبان بالحزم والإقدام.

الاستبداد لا ينبغي أن يُقاوَم بالعنف، كي لا تكون فتنة تحصد الناس حصدًا. نعم؛ الاستبداد قد يبلغ من الشدَّة درجة تنفجر عندها الفتنة انفجارًا طبيعيًّا، فإذا كان في الأمَّة عقلاء يتباعدون عنها ابتداءً، حتى إذا سكنتْ ثورتها نوعًا وقضت وظيفتها في حصد المنافقين، حينئذٍ يستعملون الحكمة في توجيه الأفكار نحو تأسيس العدالة، وخير ما تؤسَّس يكون بإقامة حكومة لا عهد لرجالها بالاستبداد، ولا علاقة لهم بالفتنة.

العوام لا يثور غضبهم على المستبدِّ غالبًا إلا عقب أحوال مخصوصة مهيِّجة فورية، منها:

١- عقب مشهد دموي مؤلم يوقعه المستبدُّ على المظلوم يريد الانتقام لناموسه.

٢- عقب حرب يخرج منها المستبدُّ مغلوبًا، ولا يتمكَّن من إلصاق عار التغلُّب بخيانة القوّاد.

٣- عقب تظاهر المستبدِّ بإهانة الدّين إهانةً مصحوبةً باستهزاء يستلزم حدَّة العوام.

٤- عقب تضييق شديد عام؛ مقاضاةً لمالٍ كثير لا يتيسَّر إعطاؤه حتّى على أواسط الناس.

٥- في حالة مجاعة أو مصيبة عامّة لا يرى الناس فيها مواساةً ظاهرة من المستبدّ.

٦- عقب عمل للمستبدِّ يستفزُّ الغضب الفوري، كتعرُّضه لناموس العرْض، أو حرمة الجنائز في الشرق، وتحقيره القانون أو الشرف الموروث في الغرب.

٧- عقب حادث تضييق يوجب تظاهر قِسْم كبير من النساء في الاستجارة والاستنصار.

٨- عقب ظهور موالاة شديدة من المستبدِّ لمن تعتبره الأمَّة عدوًّا لشرفها.

إلى غير ذلك من الأمور المماثلة لهذه الأحوال التي عندها يموج الناس في الشوارع والساحات، وتملأ أصواتهم الفضاء، وترتفع فتبلغ عَنان السماء، ينادون: الحقَّ الحقَّ، الانتصار للحقّ، الموت أو بلوغ الحقّ.

المستبدُّ مهما كان غبيًا لا تخفى عليه تلك المزالق، ومهما كان عتِيًا لا يغفل عن اتِّقائها، كما أنَّ هذه الأمور يعرفها أعوانه ووزراؤه.

فإذا وُجِد منهم بعض يريدون له التهْلكة يُهوِّرونه على الوقوع في إحداها، ويُلصقونها به خلافًا لعادتهم في إبعادها عنه بالتمويه على الناس. إنَّ رئيس وزراء المستبدِّ أو رئيس قُوَّاده، أو رئيس الدِّين عنده، هم أقدر الناس على الإيقاع به، وهو يداريهم تحذُّرًا من ذلك، وإذا أراد إسقاط أحدهم فلا يوقعه إلا بغتة.

لمثيري الخواطر على الاستبداد طرائق شتّى يسلكونها بالسِّرّ، والبطء، يستقرّون تحت ستار الدين، فيستنبتون غابة الثورة من بذرة أو بذورات يسقونها بدموعهم في الخلَوات.

وكم يُلْهون المستبدَّ بسوقه إلى الاشتغال بالفسوق والشَّهوات، وكم يغرُّونه برضاء الأمَّة عنه، ويُجسِّرونه على مزيد التشديد، وكم يحملونه على إساءة التدبير، ويكتمونه الرُّشْد، وكم يشوِّشون فكره بإرباكه مع جيرانه وأقرانه. يفعلون ذلك وأمثاله لأجل غاية واحدة، هي إبعاده عن الانتباه إلى سدِّ الطريق التي فيها يسلكون، أمَّا أعوانه، فلا وسيلة لإغفالهم عن إيقاظه غير تحريك أطماعهم المالية مع تركهم يُنهبون ما شاؤوا أن ينهبوا.

ومبْنَى قاعدة أنَّه يجب قبل مقاومة الاستبداد، تهيئة ماذا يُستبدل به الاستبداد هو: إنَّ معرفة الغاية شرطٌ طبيعي للإقدام على كلِّ عمل، كما أنَّ معرفة الغاية لا تفيد شيئًا إذا جهل الطريق الموصل إليها، والمعرفة الإجمالية في هذا الباب لا تكفي مطلقًا، بل لا بدَّ من تعيين المطلب والخطة تعيينًا واضحًا موافقًا لرأيِّ الكلِّ، أو الأكثرية التي هي فوق الثلاثة أرباع عددًا أو قوة بأس وإلا فلا يتمّ الأمر، حيث إذا كانت الغاية مبهمة نوعًا، يكون الإقدام ناقصًا نوعًا، وإذا كانت مجهولة بالكليّة عند قسم من الناس أو مخالفة لرأيهم، فهؤلاء ينضمّون إلى المستبدِّ، فتكون فتنةً شعواء، وإذا كانوا يبلغون مقدار الثلث فقط، تكون حينئذٍ الغلبة في جانب المستبدِّ.

ثمَّ إذا كانت الغاية مبهمة ولم يكن السير في سبيلٍ معروف، ويوشك أن يقع الخلاف في أثناء الطريق، فيفسد العمل أيضًا وينقلب إلى انتقام وفتن.

ولذلك يجب تعيين الغاية بصراحة وإخلاص وإشهارها بين الكافّة، والسعي في إقناعهم واستحصال رضائهم بها ما أمكن ذلك، بل الأَولى حمْل العوام على النداء بها وطلبها من عند أنفسهم. وهذا سبب عدم نجاح الإمام علي ومن وليّه من أئمة آل

البيت رضي الله عنهم، ولعلَّ ذلك كان منهم لا عن غفلة، بل مقتضى ذلك الزمان من صعوبة المواصلات وفقدان البوستات[٣١١] المنتظمة والنشْريات المطبوعة إذ ذاك.

والمراد أنَّ من الضروري تقرير شكل الحكومة التي يراد ويمكن أنْ يُستبدل بها الاستبداد، وليس هذا بالأمر الهيِّن الذي تكفيه فكرة ساعات، أو فطنة آحاد، وليس هو بأسهل من ترتيب المقاومة والمغالبة.

وهذا الاستعداد الفكري النظري لا يجوز أنْ يكون مقصورًا على الخواص، بل لا بدَّ من تعميمه وعلى حساب الإمكان ليكون بعيدًا عن الغايات ومعضودًا بقبول الرأي العام.

وخلاصة البحث أنَّه يلزم أولًا تنبيه حِسّ الأمَّة بآلام الاستبداد، ثمَّ يلزم حمْلها على البحث في القواعد الأساسية للسياسة المناسبة لها؛ بحيث يشغل ذلك أفكار كلِّ طبقاتها، والأولى أن يبقى ذلك تحت مخْضِ العقول[٣١٢] سنين، بل عشرات السنين حتى ينضج تمامًا، وحتى يحصل ظهور التلهُّف الحقيقي على نوال الحرية في الطبقات العليا، والتمنّي في الطبقات السفْلَى، والحذر كل الحذر من أن يشعر المستبد بالخطر، فيأخذ بالتحذُّر الشديد، والتنكيل بالمجاهدين، فيكثر الضجيج، فيزيغ المستبدُّ ويتكالب، فحينئذٍ إما أن تغتنم الفرصة دولة أخرى فتستولي على البلاد، وتجدِّد الأسر على العباد بقليلٍ من التعب، فتدخل الأمَّة في دورٍ آخر من الرقِّ المنحوس، وهذا نصيب أكثر الأمم الشرقية في القرون الأخيرة، وإمَّا أن يساعد الحظّ على عدم وجود طامع أجنبي، وتكون الأمَّة قد تأهَّلت للقيام بأن

---

(٣١١) قال الأستاذ محمد جمال الطحان في تعليقه على «طبائع الاستبداد»: «جمع كلمة (بوستة): بَرِيد، من الإيطالية عن اللاتينية بمعنى المركبة المسقوفة، استُعملت - بعد اختراع السيارات - للسيارة الكبيرة. واستُعملت قديمًا للبريد لأنها آلة حمله. ويُسمّون مَنْ يشتغل بالبوسطة البوسطجي. والبوسطة: حاملة البريد ذات الأربعة من الأحصنة».

(٣١٢) يعني: هزُّ العقول وتحريكها.

تحكم نفسها بنفسها، وفي هذه الحال يمكن لعقلاء الأمَّة أن يكلِّفوا المستبدَّ ذاته لترك أصول الاستبداد، واتِّباع القانون الأساسي الذي تطلبه الأمة.

والمستبدُّ الخائر القوى لا يسعه عند ذلك إلا الإجابة طوعًا، وهذا أفضل ما يصادَف. وإن أصرَّ المستبدُّ على القوّة، قضوا بالزوال على دولته، وأصبح كلٌّ منهم راعيًا، وكلٌّ منهم مسؤولًا عن رعيته، وأضحوا آمنين، لا يطمع فيهم طامع، ولا يُغلبون عن قلّة، كما هو شأن كلِّ الأمم التي تحيا حياةً كاملة حقيقية، بناءً عليه؛ فليبصَّر العقلاء، وليتَّقِ الله المغرون، وليعلم أنَّ الأمر صعب، ولكن تصوُّر الصعوبة لا يستلزم القنوط، بل يثير همم الرجل الأشمّ.

ونتيجة البحث، أنَّ الله -جلَّت حكمته- قد جعل الأمم مسؤولة عن أعمال مَنْ تُحكِّمه عليها. وهذا حقٌّ. فإذا لم تُحْسن أمّة سياسة نفسها أذلَّها الله لأمَّة أخرى تحكمها، كما تفعل الشرائع بإقامة القيِّم على القاصر أو السفيه، وهذه حكمة. ومتى بلغت أمَّةٌ رُشْدها، وعرفت للحرية قدرها، استرجعت عزَّها، وهذا عدْلٌ.

وهكذا لا يظلم ربُّك أحدًا، إنما هو الإنسان يظلم نفسه، كما لا يذلُّ الله قط أمة عن قلّة، إنما هو الجهل يسبِّب كلَّ علَّة.

وإني أختم كتابي هذا بخاتمة بُشْرَى، وذلك أنَّ بواسِق العِلْم وما بلغ إليه، تدلُّ على أنَّ يوم الله قريب. ذلك اليوم الذي يقلُّ فيه التفاوت في العلم وما يفيده من القوّة، وعندئذٍ تتكافأ القوات بين البشر، فتنحلُّ السلطة، ويرتفع التغالب، فيَسُود بين الناس العدْل والتوادُد، فيعيشون بَشَرًا لا شعوبًا، وشركات لا دِوَلًا، وحينئذٍ يعلمون ما معنى الحياة الطيبة: هل هي حياة الجِسْم وحصْر الهِمّة في خدمته؟ أم حياة الروح وغذاؤها الفضيلة؟ ويومئذٍ يتسنَّى للإنسان أن يعيش كأنَّه عالم مستقلٌّ خالد، كأنَّه نَجْمٌ مختصٌّ في شأنه، مشتركٌ في النظام، كأنَّه مَلَكٌ، وظيفته تنفيذ أوامر الرحمن المُلْهِمة للوجدان.

تمَّ الكتاب بعونه تعالى

الفهرس

مقدمة المعلق 8

قصة حياة الرحالة «كاف» 23

الكواكبي المناضل والمثقف........ 35

الإطار العام لفكر الكواكبي........ 59

مؤلفات الكواكبي وأهم ما كُتب عنه 92

فاتحة الكتاب 95

مقدمة........ 99

ما هو الاستبداد........ 105

الاستبداد والدِّين........ 114

الاستبداد والعلم........ 136

الاستبداد والمجد........ 145

الاستبداد والمال........ 161

الاستبداد والإنسان........ 163

الاستبداد والأخلاق........ 179

الاستبداد والتربية........ 197

الاستبداد والترقِّي........ 212

الاستبداد والتخلُّص منه........ 243